العدد 178
السنة التاسعة عشرة
شتاء ٢٠٢١

مجلة سياسية ثقافية فصلية تصدرها مؤسسة الإعلام والفن للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political, cultural magazine issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
سعد الزيباري
saadsuhaib@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

مدير الإدارة
مغديد صباح
maghdeedsabah@gmail.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

المحتويات

دراسات		٤
- الفضائح الجنسية تطال الكنيسة الكاثوليكية	أ.د. فرست مرعي	٥-٥٧
- التفكير وأثره في تحقيق التغيير	د. سعد صهيب	٥٨-٨١
- الوسطية والاعتدال في فكر الإمام ابن القيم الجوزية	د. دحام الهسنياني	٨٢-٩٥
- منهج العلامة ناصر سبحاني في التربية الإيمانية	د. عمر عبد العزيز	٩٦-١٠٢
- قراءة في النظام العالمي	د. عبد اللطيف ياسين	١٠٣-١٢٤
عبق الكلمات/ عندما تصطدم المخيّلة بالواقع	عبدالباقي يوسف	١٢٤-١٢٥
مقالات		١٢٦
- القول بقِدم العالم	د. أكرم فتاح	١٢٧-١٣٠
- الروايات الدخيلة على الفكر الإسلامي	د. سعد الديوەجي	١٣١-١٣٥
- تساؤلات من باب الشكّ المنهجي	إدريس آيات	١٣٦-١٣٨
- أهمية المراجعات في حياة الأحزاب والجماعات الإسلامية	محمد صادق أمين	١٣٩-١٤٢
- لماذا نكرهُ المعارضين؟	بكر أبو بكر	١٤٣-١٤٥
- في مرايا الواقع شيء من الشك	أ.م.د. سامي محمود	١٤٦-١٤٨
- الرحلات الجبلية في إقليم كوردستان	مثنى محمود	١٤٩-١٥١
- التبليغ وجدواه	عمار وجيه	١٥٢-١٥٣
مرافىء/ قطرة من بحر الإتكيت	د.يحيى عمر ريشاوي	١٥٤
محطات.. وذكريات		١٥٥
- تأملات في الدين والحياة	د. عماد الدين خليل	١٥٦-١٨٢

بصراحة/ حتى متى يدوم الظلم السياسي؟	صلاح سعيد أمين	١٨٣
ثقافة		١٨٤
- نظرية ما بعد الاستعمار / ٢	عبدالله خوراني	١٨٥-١٩٨
آخر الكلام/ أكبر المحتالين في العالم	محمد واني	١٩٩

دراسات

- الفضائح الجنسية تطال الكنيسة الكاثوليكية	أ.د. فرست مرعي
- التفكير وأثره في تحقيق التّغيير	د. سعد صهيب
- الوسطية والاعتدال في فكر الإمام ابن القيم الجوزية	د. دحام الهسنياني
- منهج العلامة ناصـر سبحاني في التربية الإيمانية	د. عمر عبد العزيز
- قراءة في النظام العالمي	د. عبد اللطيف ياسين

الفضائح الجنسية
تطال الكنيسة الكاثوليكية

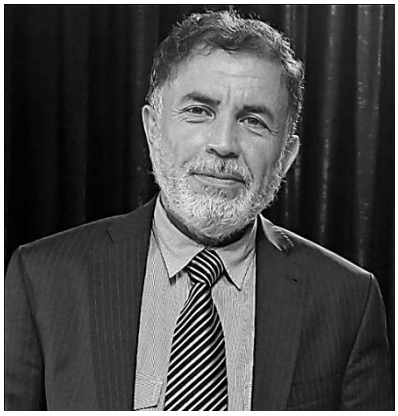

أ.د. فرست مرعي

لمحة عن تاريخ الكنيسة الكاثوليكية

✍ الكنيسة الكاثوليكية في الحقيقة مصطلح واسع جداً، ظهر للمرة الأولى في عام ١١٠م في رسالة من القديس (إغناطيوس) إلى أهل (سميرنا) (= أزمير)، حيث جاء فيها: "حيث يكون الأسقف، هناك يجب أن تكون الرعية، كما أنه حيث يكون المسيح، هناك تكون الكنيسة الكاثوليكية".

بالطبع لم تكن حينها الكنيسة الكاثوليكية التي نعرفها اليوم قائمة، ويُعتقد أنّه قصد بذلك (الكنيسة الجامعة)، وذلك للتمييز عن باقي الكنائس التي كانت موجودة حينها. وقد تم التأكيد على مصطلح (الكنيسة الكاثوليكية) في مرسوم (تسالونيكي)، الذي أصدره الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول) عام ٣٨٠م، وهو آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة، حيث انقسمت بعد وفاته إلى شطرين: شرقية بيزنطية، وغربية رومانية، وقد

جعل فيه المسيحية ديناً وحيداً أي رسمياً للإمبراطورية، لكن ما ذُكر في المرسوم تحديداً هو المسيحية الكاثوليكية.

في عام ٤٥١م انعقد المجمع الخلقيدوني في مدينة (خلقيدونية)، بالقرب من مدينة استنبول الحالية، والذي يُعد المجمع المسكوني الرابع، وقد نجم عنه انشقاقٌ بسبب الاختلافات في الكريستولوجيا (طبيعة السيد المسيح، وهل هي إلهية أم بشرية – أي طبيعة واحدة، أم طبيعتين)؛ أدى لحدوث الانفصال بين الكنائس المشرقية (السريانية، والقبطية، والأرمنية) من جهة، والتي ادعت بأن للمسيح طبيعة واحدة إلهية، والكنيستين الرومانية والبيزنطية، من جهة أخرى، واللتان كانتا حينها كنيسة واحدة، واللتان ادعتا بطبيعتين للسيد المسيح: إلهية وبشرية في آنٍ واحد.

وفي عام ١٠٥٤ م حدث ما سُمي الانشقاقَ العظيم، وهو انشقاق الكنائس الشرقية والغربية الخلقيدونية عن بعضها، لأسباب عديدة؛ عقائدية وقومية، مشكلةً بذلك فرعين: فرع غربي كاثوليكي في روما، وفرع شرقي بيزنطي أرثوذكسي- في القسطنطينية (استنبول الحالية).

سبقِ الانشقاق العظيم الذي وقع بشكل رسميَ في العام ١٠٥٤م، العديد من الخلافات الكنسية، والنزاعات اللاهوتية، بين الشرق الإغريقي والغرب اللاتيني، كان من بين هذه الخلافات البارزة مسألة انبثاق الروح القدس من الأب والابن Filioque ، كما هو الأمر في الكنيسة الشرقية، أو من الأب لوحده، في الكنيسة الغربية. وهذه إضافة تاريخية لم ترد في قانون الإيمان النيقاوي (= مجمع نيقية عام٣٢٥م). ومسألة ما إذا يجب استعمال الخبز المخمّر في الأفخارستيا أم لا، فالكاثوليك يقدمون القربان المقدس من الفطير، وليس من الخمير، وسر الأفخارستيا، أو سر التناول أو القربان المقدس، كلمة معناها اللغوي الشُكر، وهي تعريب للكلمة اليونانية εὐχαριστέω (أقول شكرًا)، وسر الأفخارستيا هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، أو أحد السرين المقدسين في الكنيسة البروتستانتية، وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع المسيح بصحبة تلاميذه عشية آلامه. (لوقا ١٩:٢٢؛ متى ٢٦:٢٦ ؛ مر ٢٢:١٤ ؛١قور ٢٣:١١-٢٥). ويحتفل بها في جماعة المؤمنين، لأنها التعبير المرئي للكنيسة، والاحتفال يكون بصيغة تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز (تعرف بالبرشان)، التي تمثل جسد يسوع، وأحياناً تذوق أو غمس قطعة الخبز في القليل من الخمر، الذي يمثل دم يسوع. والخلاف الآخر هو أحقية ادعاء بابا روما بامتلاكه سلطة بابوية عالمية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حملات الفرنجة، التي سميت حروباً صليبية، لإلباسها القناع الديني، جاءت بحجة الانتصار لمسيحيي الشرق ضد الظلم الواقع عليهم من المسلمين، فكانت النتيجة أن دمرت الحملة الصليبية الرابعة مدينة القسطنطينية؛ عاصمة المسيحية الشرقية، في شهر نيسان ع سنة ١٢٠٤م، بعدما انحرفت عن مسارها نحو الأراضي المقدسة، تلبية لشهوات الأطماع، وارتكب الفرنجة اللاتين جرائم كبرى، منها أنهم "في كنيسة آيا صوفيا العظيمة... أجلسوا مومساً فوق عرش البطريرك (الأرثوذكسي)، حيث غنت أغنيات فرنسية فاحشة، بينما أدخل آخرون خيولهم وبغالهم إلى الداخل لتبول وتتغوط فوق أرضها. أما في الشوارع، فلم يوفروا أحداً، فجردت الراهبات، وعرين من ملابسهن، وانتهكت أعراضهن، وأجبرت النساء والفتيات على البغاء والفحش بشكل لا يوصف، وحطمت رؤوس الأطفال مثل قشور البيض في ضربها على الجدران، وضربها بأعقاب أحذية الجنود..."[1]، وأقام الغزاة دولة لاتينية مكان الإمبراطورية البيزنطية، استمرت إلى سنة ١٢٦١م. والمهم هو الأثر الدائم لذلك، حيث لم تتعاف الإمبراطورية البيزنطية من الضعف الذي أصابها من الاجتياح اللاتيني، حتى لحظة فتح العثمانيين القسطنطينية بعد قرنين. (ينظر: أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٢٣٤؛ أرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الرابعة، ص١٤).

ومن جهة أخرى، فإن الكاثوليك برأوا اليهود من سفك دم السيد المسيح استناداً إلى مقررات المجمع المسكوني الثاني، الذي عقد في سنوات ١٩٦٢ – ١٩٦٥م، فيما لا يبرىء الأرثوذكس اليهود من تهمة قتل وصلب السيد المسيح (عليه السلام)، لأنهم طالبوا (بيلاطس البنطي)، الوالي الروماني على فلسطين، بصلبه. (انظر: إنجيل يوحنا ٦:١٩؛ يو ١٥:١٩؛ إنجيل متى ٢٥:٢٧؛ إنجيل مرقص ١٣:١٥؛ مر ١٥:١٥؛ إنجيل لوقا ٢٢:٢٣؛ لو ٢٣:٢٣).

فضلاً عن ذلك، فإن موقع بطريرك القسطنطينية المسكوني، فيما يتعلق بالنظام البطريركي الخماسي، وهو نظام ترتيب كنسي دعمته الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية تاريخياً، صيغت قواعده من قوانين الإمبراطور الروماني البيزنطي (جستنيان الأول) (٥٢٧-٥٦٥م). في هذا النظام يحكم الكنيسة المسيحية بطاركة الكراسي الأسقفية الخمسة الرئيسية للإمبراطورية الرومانية: روما، والقسطنطينية، والأسكندرية ، وأنطاكية، والقدس.

وأدى الإصلاح البروتستانتي، بين عام١٥١٧ إلى ١٥٣٠م، إلى انفصال الطوائف البروتستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية، على يد الراهب الألماني (مارتن لوثر)، وآخرين جاؤوا من بعده كـ(زوينكلي) وغيره.

الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هي أكبر الكنائس المسيحية، مع ما يقرب من ١.٣ مليار كاثوليكي مُعمّد في جميع أنحاء العالم، اعتباراً من عام ٢٠١٦م، رأسها هو البابا أسقف روما، وبحسب تقليدها الكنسي خليفة بطرس تلميذ يسوع المسيح، لقبها الرسمي هو الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية، وباعتبارها "أقدم مؤسسة دولية تعمل باستمرار"، فقد لعبت دوراً بارزاً في تاريخ وتطور الحضارة الغربية، إلى جانب الأرثوذكسية الشرقية والبروتستانتية.

تتبع الكنيسة الكاثوليكية في الشرق كنائس عديدة في شراكة كاملة معها، تعرف بالكنائس الكاثوليكية الشرقية. وعلى مر القرون طورت الكنيسة الكاثوليكية منظومة لاهوتية معقدة، وثبتت بنية إدارية فريدة، تحكمها البابوية، أقدم ملكية مطلقة مستمرة في العالم. رئيسها الحالي هو (البابا فرانسيس)، وتقع الإدارة المركزية للكرسي الرسولي في مدينة (الفاتيكان)، داخل مدينة (روما) في إيطاليا.

يستند اللاهوت الكاثوليكي على (قانون نيقية) للإيمان، الذي صدر عام٣٢٥م. تعلم الكنيسة الكاثوليكية أنها كنيسة واحدة، جامعة، مقدسة، ورسولية، التي أسسها يسوع المسيح. وبأن أساقفتها هم خلفاء رسل يسوع. وأن البابا هو خليفة القديس بطرس، وعليه مُنح الأسبقية من قبل يسوع المسيح. وتؤكد أنها تمارس الإيمان المسيحي الأصلي، وتحتفظ بالعصمة، وتنتقل من خلال التقاليد المقدسة. وتعكس الكنيسة اللاتينية، والكنائس الكاثوليكية الشرقية الثلاثة والعشرون، إلى جانب الجماعات والأوامر الرهبانية المختلفة، مجموعة متنوعة من التأكيدات اللاهوتية والروحية في الكنيسة.

من أسرارها السبعة: هو سـ ر القربان المقدس الرئيسيـ والذي يُحتفل به من خلال الليتورجية في القداس، كما يتم تبجيل مريم العذراء في الكنيسة الكاثوليكية كثيوتوكس وملكة السماء، وهو مصطلح لاهوتي مسيحي يطلق على السيدة مريم العذراء، ويستخدم في الأرثوذكسية المشرقية، والأرثوذكسية الشرقية، والكنائس الكاثوليكية الشرقية. والمصطلح اليوناني مركب من كلمتين يونانيتين، وتعني الولادة، أو الوضع. ولذا، فإن ثيوتوكس تعني والدة الإله. وفي سنة ٤٣١، اعترف المجمع المسكوني الثالث بهذا المصطلح على أنه مصطلح صحيح، وأن (مريم العذراء) هي والدة الإله، لأن ابنها يسوع هو شخص يجمع بين كلا من صفتي الألوهية والبشرية. وتخص لها تكريماً في العقائد والإخلاصات، ويشمل تدريسها

التقديس من خلال الإيمان والتبشير بالإنجيل، وكذلك التعليم الاجتماعي الكاثوليكي، الذي يؤكد على الدعم التطوعي للمرضى والفقراء والمصابين من خلال أعمال الرحمة الجسدية والروحية.

ولا يمكن اعتبار رفض (نسطور)، بطريرك القسطنطينية، تسمية مريم والدة الله، مرتبطًا بها بشكل مباشر، بل إن (نسطور)، وكذلك الكنائس التي لا تزال تتبع عقيدته، وهي: كنيسة المشرق الآشورية، وكنيسة المشرق القديمة، يقرّون مبدأ تبجيل العذراء وإكرامها؛ غير أن الخلاف الناشئ حول اللقب يأتي من الخلاف حول يسوع نفسه؛ آمن (نسطور) - كسائر المسيحيين - بالثالوث الأقدس، لكنه رفض اعتبار الابن ثاني الأقانيم الإلهية، حسب المعتقدات المسيحية هو يسوع، بل ظهر الابن أو تجلى في يسوع وقت العماد. وبناءً على نظرته نحو يسوع، وجد (نسطور) أن لقب (والدة الله) يعتبر هرطوقيًا، وأنه يجب استبداله بلقب (والدة المسيح).

الكنيسة الكاثوليكية هي أكبر مؤسسة غير حكومية للتعليم والرعاية الصحية في العالم. ومثلت هذه الكنيسة القوة الروحية الأساسية في تاريخ الحضارة الغربية. وتقوم الكنيسة بإدارة المدارس والجامعات والمستشفيات والملاجئ ودور العجزة حول العالم. وكوّن الكاثوليك، في بعض الأقطار التي تسكنها غالبية كاثوليكية، أحزابًا سياسية قوية. وكان للكنيسة الكاثوليكية أثر كبير في تاريخ أوروبا السياسي والثقافي والأدبي والفني. لقد أثرت الكنيسة الكاثوليكية على الفلسفة والثقافة والعلوم والفن الغربي. ويعيش الكاثوليك في جميع أنحاء العالم؛ من خلال البعثات، والشتات، والتحولات الدينية، منذ القرن العشرين.

تعرف هذه الكنيسة بـ(الرومانية)، بسبب جذورها التاريخية التي ترجع لمدينة (روما). وبشكل عام، فإن مصطلح (الرومانية الكاثوليكية) بدأ استخدامه في بريطانيا في القرن التاسع عشر، وذلك للتمييز بين كنيسة روما والكنائس الأخرى التي تدعو نفسها كاثوليكية أيضاً. وعبارة (الكنيسة الرومانية) تستعمل رسمياً للحديث عن أسقفية روما، أما لفظة (الكاثوليكية)، فتعني باليونانية (الجامعة). ويعتبر (إغناطيوس الأنطاكي) أول آباء الكنيسة استعمالاً لهذا المصطلح، ويمكن تعريف الرومان الكاثوليك ببساطة على أنهم مسيحيون في شركة إيمانية مع البابا.

حسب التقليد الكاثوليكي، والمذهب الكاثوليكي، فقد تأسست الكنيسة الكاثوليكية من قبل يسوع المسيح في القرن الأول، في منطقة يهودا (= بيت المقدس، وأطرافها)، ضمن الإمبراطورية الرومانية. ويسجل (العهد الجديد) أن يسوع بدأ بالتعليم، وعيّن الرسل، وعلمهم، لمواصلة عمله.

الكنيسة الكاثوليكية تقول إن الروح القدس حلّ على الرسل (= الحواريين)، في حدث يعرف باسم (عيد العنصرة). والمذهب الكاثوليكي يعلم أن الكنيسة الكاثوليكية المعاصرة هي استمرار للمجتمع المسيحي في وقت مبكر، ويفسر اعترافات (بطرس) وجدت في (إنجيل متى)، وتعيين المسيح الرسول بطرس، وخلفائه الباباوات، أساقفة لـ(روما)، ليكون الرئيس الزمني لكنيسته، وهو المذهب المعروف باسم الخلافة الرسولية.

خلافاً لمعظم الديانات في الإمبراطورية الرومانية، تطلب المسيحية من أتباعها نبذ جميع الآلهة الأخرى. وهي ممارسة اعتمدت من اليهودية، مما كان يعني رفض المسيحيين الانضمام لاحتفالات وثنية، ولم يتمكنوا من المشاركة في الكثير من ميادين الحياة العامة. وهو ما تسبب في خوف غير المسيحيين، بما في ذلك السلطات الحكومية، من إغضاب الآلهة؛ مما قد يهدد السلام والرخاء للإمبراطورية؛ فبدأت الاضطهادات، مما أدى إلى السمة المميزة لفهم الذات المسيحية، حتى تم قبول المسيحية في القرن الرابع الميلادي، في (مرسوم ميلان)، عام ٣١٣م، الذي أصدره الإمبراطور (قسطنطين الأول) (٣٠٦ – ٣٣٧م)، وفيما بعد تبنى الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول)(٣٤٧ – ٣٩٥م)، المسيحية، في عام ٣٨٠م، وجعل منها ديناً وحيداً للإمبراطورية في العام ٣٩١م. بعدها قسم (ثيودوسيوس الأول) (يطلق عليه أيضًا اسم العظيم) الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: الأول القسم الشرقي، ومنحه لولده (آركاديوس)، وسمّاه الإمبراطورية الرومانية الشرقية (وجعل عاصمتها القسطنطينية)، والقسم الثاني الغربي لولده (هونوريوس)، وسمّاه الإمبراطورية الرومانية الغربية (مع عاصمة بلاده في مدينة ميلانو).

وبعد تدمير الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦م، على يد (الهون)، كانت المسيحية الغربية عاملاً رئيسياً في الحفاظ على الحضارة الكلاسيكية: الفن الكلاسيكي ومحو الأمية. وتجدر الإشارة إلى أن البابا (بنيديكتس السادس)(٤٨٠ – ٥٤٣م)، من (نورسيا)، قد أسس الرهبنة الغربية، وبدا لها تأثير هائل على الثقافة الأوروبية، عن طريق الاستيلاء على التراث الروحي للكنيسة الرهبانية في وقت مبكر. وخلال هذه الفترة أصبحت (أيرلندا) مركزاً للتعليم والتبشير في وقت مبكر، وساهمت في انتشار المسيحية في جميع أنحاء قارة أوروبا.

وخلال العصور الوسطى كان للكنيسة الكاثوليكية تأثير على الحضارة الغربية، استمر حتى العصور الحديثة، ففي عصر النهضة اشتهر العديد من الناس، مثل: رافاييل، مايكل أنجلو، ليوناردو دافينشي، بوتيتشيلي، انجيليكو فرا، تينتوريتو، تيتيان، برنيني، وكارافاجيو، وغيرهم من الفنانين الذين رعتهم الكنيسة. أما الرهبان الكاثوليك، فعملوا نوتات موسيقية من أجل تلحين القداس في جميع أنحاء الكنيسة؛ مما ساعد على تطوير الموسيقى والتلحين،

وأدى هـذا التقليـد، برعايـة الكنيسـة المبـاشرة، إلى نشـوء وتطـور الموسـيقى الكلاسـيكية الأوروبية، ومشتقاتها الكثيرة.

قـام القديسـان (فرنسـيس الأسـيزي)، و(دومينيـك دي غوزمـان)، مؤسسي الأخويـات اليسـوعية (الجزويـت)، والدومنيكيـة، خـلال القـرن الثالـث عشـر، بتأسـيس الكثـير مـن المؤسسات الصحية، والتعليميـة، وغيرهـا مـن المؤسسـات الاجتماعيـة، وسـاهموا في إغنـاء الناحية الفكرية أيضاً.

وتشترك الكنيسة الرومانية الكاثوليكيـة بالمعتقـدات الدينيـة الأساسـية نفسـها للكنـائس المسيحية الأخرى، خصوصاً الكنائس الأرثوذكسية الشـرقية والمشـرقية، بمـا في ذلـك قبـول تعاليم الكتاب المقدس (بحسب فهمها لـه)، وقبـول العقائـد المقـررة في المجـامع الكنسـية خلال القرون الميلادية الأربعة الأولى (مجمع نيقية ٣٢٥م، ومجمع القسطنطينية ٣٨١م).

وعلى أية حال، فلعقيدة الخلافة الرسولية أهمية عظمى في الإيمان الكاثوليكي، لأنها تؤكد أن البابا (ممثل المسيح على الأرض)، وأن الأساقفة يمتلكون – بدرجات مختلفـة – السـلطة الروحية التي وهبها يسوع المسيح لتلاميذه، فما يقرره البابا منفرداً، أو مـع بقيـة أسـاقفته في المجامع الكنسية، يعتبر معصوماً عندما يتعلق بقضايا التعليم العقائدي أو الأخلاقي.

وبخصوص تنظيم الكنيسة، يوجـد داخـل الكنيسـة الكاثوليكيـة مجموعـة مـن التقاليـد الكنسية، فإلى جانب التقليد الروماني اللاتيني، الذي ينتمي لـه غالبيـة الكاثوليـك، تحتضـن الكنيسة خمسة تقاليد شـرقية، تتبعهـا كنـائس كاثوليكيـة شـرقية، جميـع هـذه التقاليـد، والمرجعيات، لها تنظيمها الخاص، وقيادتها الذاتية، تحت سلطة البابا، وهي محمية مـن أي محاولة لتحويلها للتقليد اللاتيني.

الكنائس الكاثوليكية الشـرقية:

١- التقليد البيزنطـي: كنيسـة الـروم الملكيـين الكاثوليـك، تتشـارك بـه مـع الكنـائس الأرثوذكسية الشـرقية (التي لا تتبع روما)، ويتواجد أتباعها في تركيا وسوريا والأردن ولبنـان وفلسطين.

٢- التقليد الأنطاكي: الكنيسة المارونيـة، والكنيسـة السـريانية الكاثوليكيـة. هـو أيضـاً تقليد الكنيسة السـريانية الأرثوذكسـية (التـي لا تتبـع رومـا)، ويتواجـد أتباعهـا في لبنـان وسوريا والأردن وفلسطين.

٣- التقليـد الإسـكندري: الكنيسـة القبطيـة الكاثوليكيـة. هـو أيضـاً تقليـد الكنيسـة القبطية الأرثوذكسية (التي لا تتبع روما)، ويتواجد أتباعها في مصـر حصـراً، وبصـورة قليلـة في أثيوبيا والسودان.

٤- التقليد الكلداني: الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، هو أيضاً تقليد الكنيسة النسطورية (التي لا تتبع روما). ويتواجد أتباعها في العراق حصراً.

٥- التقليد الأرمني: الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية، تتشارك به مع الكنيسة الأرمنية الرسولية الأرثوذكسية الشرقية (التي لا تتبع روما). ويتواجد أتباعها في لبنان حصراً، وبصورة أقل في سوريا والعراق.

بغض النظر عن الكنائس الكاثوليكية الشرقية، والإرساليات، تنتظم الكنيسة الكاثوليكية في أبرشيات (مفردها أبرشية) يرأسها أسقف يعين بشروط خاصة من قبل البابا، وتتألف كل أبرشية من مجموعة رعيات، تمتلك كل واحدة منها كنيسة أو مبنى للصلاة وقسيس. يدير البابا الأساقفة بشكل أساسي عن طريق تشريع عام، وتنشغل حكومته، المؤلفة من مجموعة من الكرادلة، بأمور ذات أهمية عامة، كالإرساليات، والعلاقات الدولية.

ومن جانب آخر، هناك أخويات، أو تنظيمات رهبانية للرجال والنساء: كاليسوعيين، والدومنيكان، والكبوشيين، والكرمليين، وغيرهم، تتقاطع مع حدود الأبرشية، يكون مجال عملها الحياة الديرية، والأنشطة غير الرعوية، وأيضاً في المدارس. وتدير الجماعات الرهبانية - عادةً - إرساليات في الخارج، ومستشفيات، ومؤسسات تعليمية مختلفة المستويات، ويعتمد أعضاؤها بشكل رئيسي على المعونات، بينما يعتاش قساوسة الكنائس المحلية من رواتب ثابتة، يحددها الأسقف.

والسواد الأعظم من رجال الدين الكاثوليك هم من القساوسة، يدربون عادة، من أربع إلى ست سنوات، في معاهد لاهوتية، تتبع أبرشية المنطقة، أو جماعة رهبانية، أو الفاتيكان. ولا يسمح لرجال الدين الكاثوليك بالزواج (مع وجود استثناءات في الكنائس الكاثوليكية الشرقية، التي تبيح زواج الكهنة الذين لم يصلوا إلى رتبة الأسقفية فقط).

أما نسبة الكاثوليك في كل دولة حول العالم، فلا توجد إحصائية عالمية محددة لعدد الكاثوليك في العالم، وذلك مع وجود معايير مختلفة لتحديد عضوية أو هوية الكاثوليكي. ومع ذلك فمن المقدر أن نسبة الكاثوليك بين جميع الكنائس المسيحية، تبلغ النصف، مما يجعل الكنيسة الكاثوليكية أكبر الجماعات أو الطوائف الدينية في المسكونة، بعدد أتباع يتجاوز المليار مؤمن، موزعين على الشكل الآتي (بحسب إحصائية ٢٠٠٥م):

الأمريكيتين: ٤٩.٨ % من كاثوليك العالم (تقريباً ٥٤١ مليون).

أوروبا: ٢٥.٨ % من كاثوليك العالم (تقريباً ٢٨٢ مليون).

أفريقيا: ١٣.٢ % من كاثوليك العالم (تقريباً ١٤٣ مليون).

آسيا: ١٠.٤ % من كاثوليك العالم (تقريباً ١١٣ مليون).

أوقيانوسيا: ٠.٨ % من كاثوليك العالم (تقريباً ٩ مليون).

ما معنى البابوية

إن البابا هو رئيس الكنيسة الأعلى، وعندما ذهب بعض الحواريين (الرسل، في المصطلح المسيحي) إلى آسيا الصغرى، واليونان، لنشر المسيحية هناك، كان من بين المذكورين القديس (بطرس)، الذي أقامه السيد المسيح رئيساً على الرسل.(يوحنا: ١٥/٢١ – ١٧).

وفي سنة ٦٧م قتل الإمبراطور الروماني الوثني (نيرون) - والذي يوصف عهده بعصر الاضطهاد المسيحي - كلاً من القديس بطرس، والقديس بولص، في روما، وتم صلبهما. وحصد أرواح الكثير من المسيحيين أثناء توليه الحكم، وكان من ضمن ما يعتقد أنهم استشهدوا في عصره هما القديسان: بطرس، وبولص.

ورغم أن الإصحاحات الأولى من (سفر الأعمال) لا تعرف الكثير عن حياة بطرس الرسول، سوى أنه ذهب إلى روما، ووفقاً للوثائق المسيحية أن بطرس عاش فى روما، لكنه قطعها بسبب اضطهاد نيرون للمسيحيين، حيث نصحه أصدقاؤه بأن يترك المدينة حتى لا يخسر فرصة استمرار التبشير، ولكن أثناء خروجه من المدينة، رأى يسوع داخلاً روما، فسأل يسوع عن وجهة ذهابه، فإجابه (أنا ذاهب لروما لأصلب)، فعاد إلى نفسه، ودخل المدينة ثانية فرحاً، فقبض عليه، وصلب مقلوباً، حسب طلبه. لكن هذه القصة يراها البعض خيالية، وتحمل الكثير من المبالغة. (جون درين، مدخل للعهد الجديد)[1].

أما بولس، الذي كان يلقب بشاؤول، فبعد اعتناقه المسيحية، حيث كان يهودياً في الأصل، جاب سوريا وآسيا الصغرى وقبرص واليونان، مبشراً بالدين الجديد، ومن ثم ذهب إلى روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وعاش فيها، حتى لاقى الاضطهاد على أيدى السلطات الرومانية، في زمن الإمبراطور نيرون، وبعد صدور مرسوم إمبراطوري بألا يكون أحد مسيحياً، قتل الكثير من المسيحيين، ومنهم القديس بطرس، والقديس بولس. (مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا - الجزء الأول).

[1]- ويوضح مؤلف الكتاب أيضاً أنه يوجد في (روما) الكثير من بقايا العظام، وقبور ترجع لوقت مبكر، بعضها يعود إلى القرن الأول، بينما يشكك البعض في أن هذه القبور ليست لأشخاص مسيحيين، إلا أن الكاتب عاد وأكد أنه لا يوجد شك في استشهاد بطرس في عهد حكم نيرون، وأن قبره موجود في روما، رغم عدم وجود دليل على أنه مؤسس الكنيسة الرومانية مع بولس، وأن الكنيسة قد بنيت على قبره وقبر بولس.

ويجسد البابا، في نظر الكنيسة، وحدة الإيمان المنظورة، فأولوية البابا هي أساس لأولوية القديس بطرس، كما وردت على لسان السيد المسيح في الإنجيل المقدس (متى ١٦/١٨)، وتقوم أولوية البابا على أنه بقوة وظيفته هو الأول في مصف الأساقفة، فهو رئيس الكنيسة كلها، لذلك فهو يشد عرى الوحدة بين مختلف الكنائس، على اختلاف طقوسها وتقاليدها. ويزاول سلطته العليا عليها، بالتعاون مع الأساقفة. بينما لا يحق للأساقفة مزاولة هذه السلطة وحدهم، دون وجود رئيسهم، أي البابا - ولما كان البابا راعي كل المؤمنين، فهو يضع نفسه في خدمة الكنيسة جمعاء، ويشرف على الكنائس الخاصة، على اختلاف طقوسها، متمتعاً بالتقدم على الكنائس الخاصة أو المحلية. وبالرغم من أن الأساقفة يزاولون السلطة مباشرة في أبرشياتهم الخاصة، فللبابا - بقوة رئاسته - الحق بالتدخل في الأمور المهمة، فيبت فيها، أو بعوض عنه شخصاً يوليه حق البت فيها. أخيراً، فإن لاولوية البابا شأن مهم في الأمور العقائدية، وفي ما يخص السلطة والولاية، ولذلك فله الحق - بقوة رسالته، التي هي نشر الإنجيل-، و بعد استشارة الأساقفة، وطلب رأي المؤمنين، أن يصدر التعليمات الضرورية في أمور الدين، والآداب، لإنارة المؤمنين، وهدايتهم؛ وتعتبر تعاليمه معصومة من الغلط، نظراً لكونها صادرة عنه بعد تبادل الرأي بين أعضاء الكنيسة.

ونظراً للصلاحيات الدينية العظيمة التي يتمتع بها البابا ؛ يحق له أن يمارس مختلف السلطات: التشريعية، والتدبيرية (التنفيذية)، والقضائية. وقد يطيب للقارىء الكريم التعمق في بدايات تاريخ الكنيسة، ليبحث عن مواقف خاصة اتخذتها روما، أو أسقف روما، برهنت عن ممارسته للسلطة العليا كخليفة بطرس. (فرنسيس المخلصي، مدينة الفاتيكان، تعريب: يوسف حداد، مطبعة الأديب البغدادية، ١٩٧٤م، ص٨).

فالبعودة إلى أصول المسيحية، حيث نرى البابا (كليمانس) (٨٨ – ٩٧م)، رابع خلفاء بطرس، على كرسي روما، يمارس سلطته على (كنيسة قورنثيا)، وكان قسم من كبار القوم قد أبعدوا عن مراكزهم بطرق غير شرعية؛ فشعر البابا بمسؤوليته، وبسلطته، فكتب إليهم موبخاً، وأمر بإعادة المبعدين إلى أماكنهم. وهذا القديس (أغناطيوس الأنطاكي) (المتوفى سنة ٨٦م) له رسالة حررها سنة ١٠٧م إلى المؤمنين في روما، تؤكد مكانة خليفة بطرس، وأوليته في الكنيسة الجامعة. يقول (الأنطاكي): "إن الكنيسة المتقدمة في عاصمة الرومانيين، تتقدم أيضاً في المحبة..". (فرنسيس المخلصي، مدينة الفاتيكان، المرجع السابق، ص٨- ٩).

أما القديس (أيريناوس)، أسقف مدينة لوغدونوم - ليون في بلاد الغال - فرنسا (المتوفى سنة ٢٠٢م)، فإنه يشير في مؤلفاته، إلى الكنيسة المؤسسة في روما من قبل الرسولين المبجلين بطرس وبولس، ويضيف: "... إنها أعظم الكنائس، وأقدمها، وأكثرها شهرة". ثم

يعود ليؤكد أنها تتقدم على كل الكنائس الأخرى، فيكتب: " من أراد أن يتعلم العقيدة الحقيقية، فإنه يجدها في هذه الكنيسة الوحيدة، إذ فيها عقيدة الإيمان خالية من الشوائب، وقد تسلسلت من أساقفة هذه الكنيسة" . (إيرينيوس، كتابه ضد الهرطقات، ج٣، ص٢- ٣). https://arz.wikipedia.org

أما البابا (اسطيفان الأول) (٢٥٤ – ٢٥٧م)، فإنه يؤكد ـ كما ذكر فيرميليان ـ بأنه يدير كرسي بطرس الذي عليه أرسى المسيح أسس الكنيسة (ذكره القديس قبريانوس في رسالته ٧٥ ، ١٧).

هذه بعض الشهادت المذكورة عند الآباء الأقدمين، في أماكن مختلفة، وكلها تشير إلى مكانة الكنيسة الرومانية المرموقة، وتقدم أسقفها على سائر الكنائس. ولا بد من الاعترف بأن هذه الصدارة توسعت ونضجت على مدى الأجيال، وعلى إثر جولات لاهوتية طويلة.

يلاحظ أن البابوات منذ القرنين الرابع ثم الخامس دافعوا عن الامتياز الذي كانوا يتمتعون به، والذي جاءهم من المسيح. كما نرى الجماعات المسيحية تستغيث بالبابوات، وترفع دعواها إليهم في محنها، طالبة البت في الأمور، وإصدار الحكم الأخير. وبعض المجامع ـ كالمجمع السرديني (٣٤٣-٣٤٤م) - تعلن عن رأيها بأن البابا هو حارس الحق الأصيل. ونقرأ عن البابا (سيرقيوس)(٣٨٤-٣٩٩م) أنه أرسل تعليماته إلى أسقف تيراكونا، في إسبانيا، بخصوص منح سر العمادة، وأمره أن يعمل بها.

وكما حدث في كنائس الغرب، حدث كذلك في كنائس الشرق، حيث نرى الأساقفة الشرقيين يرفعون طلبهم إلى البابا ليبت في بعض الأمور، كما حدث للقديس (يوحنا فم الذهب)(٣٤٧–٤٠٧م)، بطريرك القسطنطينية. وعندما التئم مجمع خلقيدونية، سنة ٤٥١م، فإن الأساقفة المجتمعين صرخوا بصوت واحد، بعد أن قرئت عليهم رسالة البابا (لاون الكبير)(٤٤٠ – ٤٦١م): (هذا هو إيمان الرسل، فإن بطرس يكلمنا بفم لاون).

إن الأولوية التي نتكلم عنها لا تعني فقط البت في الأمور العقائدية، وحل المشاكل الإيمانية، بل تنطبق على الأمور الإدارية أيضاً؛ كترشيح الأساقفة، ورؤساء الأساقفة، والبطاركة؛ لذا نرى البابوات يمارسون حقهم في هذه الأمور، في مختلف الأجيال. وكان الأساقفة يتداولون ألقاباً كثيرة، مثل: نائب المسيح، وغيرها، لكن هذه الألقاب انحصرت منذ القرن الخامس الميلادي في شخص البابا فحسب. أما كلمة (بابا) ، فهي يونانية الأصل (PAPAS)، وتعني الأب، وكانت في القديم تطلق على رجال الأكليروس دون تمييز أو حصر، ثم انحصر استعمالها بالأساقفة، ورؤساء الأديرة. ومنذ مطلع القرن الخامس أفرد بها شخص الحبر الروماني، إذ نرى البابا غريغوريوس الأول (٥٩٠ – ٦٠٤م) يأمر بعدم

إطلاق هذا الاسم إلا على أساقفة روما. أما في الشرق، فقد دام إطلاقها حقبة طويلة، وخاصة على بطاركة الكنيسة الشرقية، وبطاركة الكنائس المشرقية الأخرى المستقلة؛ كالنسطورية، والكلدانية، والقبطية، والأنطاكية بشقيها السريان الأرثوذكس، والسريان الكاثوليك، والروم السريان، والروم الكاثوليك، والأرمن السريان، والأرمن الكاثوليك.

وأخذت هذه الحقوق الأساسية تثبت تدريجياً، منذ القرن السابع حتى الحادي عشر، ولم يطرأ عليها تبدل جدير بالذكر، خاصة بالنسبة إلى الأولوية في ميدان التعليم والتدبير، فإن البابوات دافعوا عنها، لأنها من صلاحياتهم الخاصة. أما في الشرق، فإن الاعتراف بالزعامة البابوية كان بين مد وجزر، إذ تارة يعترف بها، ويخضع لها، وتارة ترفض، أو تنكر، وهذا هو شأنها إلى يومنا هذا، واستمرت الحالة هكذا حتى انتهت إلى مقاطعة نهائية بين الكنيسة الشرقية والغربية سنة ١٠٥٤م. وفي الغرب تداعت الأولوية في فترة من الزمن على إثر انحطاط السلطة الكارلونجية، نسبة إلى إمبراطورية شارلمان (٨٠٠ – ٨١٤م)، إذ كان الارتباط بينهما وثيقاً تدعم الواحدة الأخرى.

ولما جاء البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥م)، كان عهده عهد ازدهار الكنيسة، فاستعادت الأولوية البابوية مكانتها، وقوتها. ومما ساعد على تقويتها، خلق المركزية في الدوائر البابوية. وأصدر البابا المذكور براءة؛ منها ٢٧ بنداً حدد فيها سلطة البابا المطلقة في الكنيسة إزاء الأساقفة، وكل ذوي المقامات العليا، ومن بين هذه البنود قانون يعلن عدم شرعية المجمع الكنسي المنعقد دون إذن البابا.

ثم حدث في الكنيسة تجدد، حمل أفكاراً في بعضها شطط ومبالغة بخصوص الأولوية، فقال بعضهم إن السلطة المدنية تأخذ شرعيتها من السلطة الروحية - وعلى هذا المبدأ، فللسلطة الروحية حق التدخل في الأمور المدنية - ثم ظهر رأي جديد في العصور الوسطى، أطلق عليه اسم (الحركة المجمعية)، وخلاصة هذا الرأي أن المجمع المسكوني هو أعلى من البابا، وهكذا رفضت الأولوية البابوية. ودامت هذه الحركة، بالرغم من تحريمها، إلى المجمع الفاتيكاني الأول (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠م)، إذ حدد هذا المجمع مبدأ الأولوية البابوية بصريح العبارة، وهذا نصه: (إن الأولوية البابوية لا تعني التقدم الشرقي فقط، بل أولوية التصرف الحقيقية. إذ إن المسيح وعد بطرس بها، ثم عهد بها إليه وحده، وليس إلى جماعة الرسل، أو إلى الكنيسة بحد ذاتها..."). (وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، القاهرة، دار العالم العربي، ج١، ص٥٨).

ثم جاء المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ – ١٩٦٥م) ليدعم تعليم المجمع السابق بخصوص الأولوية، ويحدد علاقتها الصحيحة مع الدرجة الأسقفية. وهذا نص

تعليمه، كما جاء في الدستور العقائدي عن الكنيسة (البند ٢٢ - في مجرى كلامه عن الجماعة الأسقفية)، قال: "لا سلطة لهذه الجماعة، أو الهيئة الأسقفية، ما لم تكن، في الوقت ذاته، متحدة مع الحبر الروماني خليفة بطرس، بوصفه رأسها، ومع بقاء سلطان رئاسته كاملاً على الجميع؛ رعاة، ومؤمنين. فالحبر الروماني في الكنيسة، بحكم وظيفته، أي بوصفه نائباً للمسيح، وراعي الكنيسة جمعاء؛ يمتلك السلطة الكاملة والعليا والشاملة، ويستطيع أن يمارسها دائماً بحرية".(وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، المرجع السابق، ج١، ص٥٨ وما بعدها).

في سنة ٧٩٥م توفي البابا أدريانوس الأول(٧٧٢ – ٧٩٥م)، وانتخب بابا جديد هو (لاون – ليو الثالث) (٧٩٥ - ٨١٦ م). ولكن نظراً للفوضى المستحكمة في روما في ذلك الزمن، ووضع البابوية المقلق، وغير المستقر، قام مؤيدو أدريان المتوفي يخطف البابا الجديد، عندما وجدوا أنه يختلف في سياسته عن البابا المتوفى، ونقلوه إلى دير القديس (إبراسموس)، وعاملوه معاملة في غاية الوحشية والسوء، بحيث أصبح عاجزاً عن التعليق والرؤية تقريباً، ولكنه عمد إلى الهرب، وبعد رحلة محفوفة بالأخطار، وصل إلى قلعة شارلمان في (بادريونBuderboin)، وقد اشتد غضب الإمبراطور عند سماعه ما حدث للبابا، وتعهد بحمايته، ودخل إلى روما على رأس جيش. عندها بدل خصوم البابا (ليو) موقفهم المبني على العنف، واتخذوا موقفاً جديداً، أساسه المطالبة بالاحتكام، وذلك الحق الذي كان شارلمان قد أمنه لهم، ووعدهم به، كما ذكرنا آنفاً. بعدها عقد مجلس اتهم البابا ليو من قبل خصومه باللا أخلاقية واليمين الكاذب، والحنث باليمين. وعندما أشار أنصار ليو إلى المبدأ القائل بعدم جواز محاكمة البابا من قبل أي سلطة، مادام أنه هو ممثل المسيح، نهض ليو بنفسه، وبحركة درامية أمسك بالكتاب المقدس، وأقسم أنه بريء، وهكذا انتهت المحاكمة، ورضي الفريقان بهذا الوضع، الذي إن دل على شيء، فهو يدل على خضوع البابا، مع أنه لم تتخذ أية إجراءات رسمية في هذا المجال. وعدّ هذا الحل حلاً بارعاً بديعاً. (ينظر: واكيم برنز، باباوات يهود من غيتو روما، ترجمه وقدم له، سهيل زكار، ص١٠٥).

وبعد سنتين، حدث حادث درامي آخر، كانت له نتائجه العميقة في المستقبل، بالنسبة لتاريخ البابوية، وقد تم هذا الحدث أثناء القداس الإلهي في بازليكا القديس بطرس من في روسياء ، حالما ركع الإمبراطور أمام المذبح، وهو يبدو غارقاً في صلاته، إذا بالبابا يتقدم منه، ويضع التاج الإمبراطوري على رأسه. ومع أنه من الصعب أن تصدق أن شارلمان لم يكن على علم مسبق بهذه المناورة السياسية، إلا أنه يبدو أن المؤرخين متفقون أن هذا العمل كان مفاجأة الشارفات، وسواء أكان مفاجأة أم لا، فالحقيقة أن ملك بلاد الفرنجة قد أصبح

إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهكذا حيا الأساقفة والنبلاء شارلمان بحماس، وهنؤوه، وهم يشهدون هذا المشهد من كثب، وعليه أعلن على الملأ: "إن شارل أوغسطوس المتوج من قبل الرب، قد أصبح الإمبراطور العظيم المسالم للرومان، وليعيش حياة ملكية بالنصر والظفر". (سانت موس، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة: عبدالعزيز جاويد، ٣٤٦ – ٣٤٧).

وهكذا أصبح شارلمان رجل المسيحية الغربية الأوحد، ليصبح داود الجديد، والرجل الذي اختاره الرب وكرّسه مرشداً للشعوب المسيحية في مدينة الله على الأرض. (تاريخ كمبردج للعصور الوسطى). أما مؤرخ شارلمان الخاص، فقد لقبه: "بالسيد، والأب، والمليك، والكاهن، والزعيم المرشد، لجميع المسيحيين". وهكذا برع عصر جديد، إذا أخذنا المقاييس الحديثة، فإننا نعد شارلمان الملك الجديد مركباً من المتناقضات، حقاً إنه افتتح عصراً جديداً من العلم والمعرفة، سمّي بعصر النهضة الكارولجية، إلا أن هذا الإمبراطور لم يحسن القراءة حتى وقت متأخر من حياته، وحتى ذلك الوقت لم يحسن القراءة تماماً، وكان مسيحياً تقياً ورعاً، ومع ذلك فلم يكن يتورع عن استعمال السيف لتحويل الناس إلى المسيحية قسراً، و كان لين العريكة، حسن الأخلاق، ومع ذلك ففي يوم واحد، وفي مدينة (فيردين على الألير Verden on the Aller) تسبب في موت خمسة وأربعين ألف رجل سكسوني بتهمة الخيانة. ولكن بالنسبة لمقاييس العصور الوسطى، لم تعد هذه الأمور تناقضات، إذ كانوا يعدون أن كل ما يصدر عن القديس والفارس والراهب والمحارب يعد مغتفراً، ومن الأمور المحترمة، التي لا يجوز التصدي لها. (عبدالقادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، جامعة الموصل،١٩٦٧م، ص٩٤)، الذي حدد ٤٥٠٠ سكسونياً فقط، قتلوا في يوم واحد، على يد شارلمان، كما شن حرب إبادة ضد (الآفار) سنة ٧٩٩م، (المرجع نفسه، ص٩٤ – ٩٥).

أما المستنيرون حينها، فكانوا يقولون إنه لأمير بغيض كريه مستهجن أن يجبر السكسون، والإسكندنافيين، على قبول مذهب الصليب، ويقولون إنه كان من الأفضل اللجوء إلى المبشرين بالدين، وإلى الأتباع ذوي المصالح الذاتية، وكان من الواجب استعمال الإقناع، وليس القوة والوحشية، في هذا السبيل. ولكن هذه الأمور لم تكن ذات بال أو خطر بالنسبة لشارلمان، فكما عد قسطنطين المسيحية وسيلة للمحافظة على تماسك الإمبراطورية الرومانية، هكذا تبنى شارلمان الخطة نفسها لحل مشاكله العسكرية مع السكسونيين الجامحين العنيدين، وذلك بتحويلهم إلى الديانة المسيحية بالقوة، فالديانة المسيحية لم تنم وتترعرع في أوروبا في ظل جلال ووقار الرسول بطرس، بل نمت وعظم

أمرها في ميادين الحروب، وهكذا أصبح شارلمان منظماً ممتازاً، لا بل حتى مصلحاً للكنيسة (مع أن إصلاح الكنيسة كان سيأتي من داخلها، إلا أن بداية الإصلاح بدأت على يدي شارلمان، وبناء على إصراره). والحقيقة أن هذا التدخل له أسباب مادية وجيهة، فأملاك الكنيسة قد تضخمت زمن البابا غريغوري، وكانت بحاجة إلى أكثر من شخص واحد لإدارتها، لذلك عمد شارلمان إلى تنصيب نفسه قيما على ممتلكات الكنيسة، ولكنه اصطدم بقضية أكثر إلحاحاً، وهي معالجة الفساد الداخلي في الكنيسة، إذ إن الأساقفة كان قد سمح لهم بالاستقلال الداخلي في الكنيسة، لذلك أصبحوا شديدي الحرص على زيادة مدخولاتهم المادية. ولقد أظهر بعضهم إسفافاً باستعمال الوسائل الفاضحة في هذا السبيل، فقد عمد بعض الكهنة والأساقفة الجشعين لانتهاز فرص تعوزها اللياقة والحكمة، وذلك باستغلال توفير وافتتان بعض الناس بآثار القديسين، إذ اعتقدوا أن هذه الآثار قادرة على شفاء كل الأمراض، ولهذا فقد شجع هؤلاء الكهنة العائلات الفقيرة للتضحية بكل ما يملكونه من مال لشراء ما يستطيعون شراءه من البقايا المقدسة، وهكذا أهملت شؤون الفقراء، وأصبح الكهنة يتقاضون الأموال الطائلة لقاء الخدمات الشخصية البسيطة، دونما شفقة أو رحمة، ووجدت أموال الصدقات للكنيسة طريقها إلى جيوب الأكليروس، بدلاً من توزيعها على الفقراء، وأهمل القداس الإلهي، وأصبح الكهنة يتفوهون بكلمات لا معنى لها أثناء القداس، ولم يكن أحد يبالي فيما إذا فهم المتعبدون شيئاً، أو لم يفهموا. والحقيقة أنه لما كانت الأمية متفشية بين الأكليروس، لذلك أصبح من المشكوك به أن يستطيع الكثيرون منهم أن يفهموا ما يقولونه، ولذلك ففي أثناء حكم شارلمان، كان القانون الإمبراطوري (وليس القرارات البابوية) هو الذي يصل وينقل على جميع المستويات، وأصبحت القاعدة المتبعة تقديم الحسابات الدقيقة للبلاط، وكان على الأديرة الواسعة الثراء أن تنشئ وتبني المستشفيات، وبيوت الفقراء على نفقتها الخاصة. وكان على الأكليروس أن يساهموا في مساعدة الفقراء، وقد تحدد العمل بالقانون البندكتي، الذي أهمل منذ زمن طويل، فأصبح البر والإحسان ليس من واجب العلمانيين فحسب، بل واجباً على الكهنة والأكليروس أيضاً. ومهما كانت مجهودات شارلمان فعالة ومؤثرة، إلا أن الكنيسة كانت لا تزال بحاجة إلى إصلاحات روحية، فضلاً عن الإصلاحات الإدارية، وإلى التأكيدات الأخلاقية للقيم والفضائل المسيحية، وهذا هو الهم الأكبر الذي تنوء به كواهل رجال الكنيسة. ولقد زجر العالم المسيحي بالشواهد، فمع أن الفساد لم يكن قد تسرب إلى البابوية بعد، إلا أن ذلك سرعان ما حدث، إذ إن العرض البابوي سرعان ما تورط في حالة من الفساد الأخلاقي، ألقت الكنيسة على حافة الهاوية التي كانت تنتظرها، وظهر للعيان

أن الكنيسة الفرنجية التي كان شارلمان حريصاً على دعمها وتقويتها، أصبحت في حالة تدعو للأسف. وقد كتب المبشر الإنكليزي (بونيفيس)، في تقرير بعث به إلى البابا زكريا (٧٤١ -٧٥٢م)، حول الكنيسة الفرنجية، يقول: "تجد أنه في أكثر المدن سلمت الوظائف الكنسية إلى رجال من العلمانيين الجشعين، والكتبة الفاسقين، والزناة، ومديري الحانات والخمارات، الذين يعيشون حياتهم، ويتمتعون بأسلوب دنيوي صرف، حالهم منذ طفولتهم بالفسوق والزنا، وعاشوا حياة مستمرة مملوءة بالقذارة، والذين وصلوا إلى مناصبهم بفضل قذارتهم، وهم مع كونهم شمامسة يحتفظون في فراشهم بأربع أو خمس محظيات مومسات، أو أكثر، ومع ذلك فهم لا يخجلون ولا يتورعون أن يدعوا أنفسهم بالشمامسة، وأن يقرأوا الإنجيل أثناء القداس، ويأتون وهم في هذه الحالة من القذارة، وعدم الطهارة، ويحضرون اجتماعات الإخوانيات الكهنوتية وهم يصرون على ارتكاب الذنوب نفسها، فيضيفون ذنباً إلى ذنب. ومع ذلك، فهم يقومون بالأعمال الكهنوتية، ويدعون القدرة على الشفاعة، وتقديم القربان المقدس. والأنكى أنه في هذه الأيام، ويا للأسف، ترتفع درجاتهم يوماً بعد يوم، ويكرسون، ويعلن ترفيعهم إلى مقام الأساقفة. ولذا أتوسل إلى قداستكم أن تتفضلوا بإدانة هؤلاء، وإدانة هذه الأعمال، كتابةً، حتى يقتنع هؤلاء الخطاة، ويشعروا بالخزي والعار عند استلام جوابكم الرسولي. وفوق ذلك هنالك بعض الأساقفة، من هذه الزمرة، الذين ينكرون صفة الزنا والفسق عن أنفسهم، إلا أنه من الثابت أنهم سكيرون ومشاغبون، أو صيادون في الماء العكر، فهم رجال يقاتلون بالسلاح في المعركة، ويريقون دماء الأبرياء بأيديهم؛ سواء أكانت ضحاياهم من المسيحيين أو الوثنيين .(واكيم برنز، باباوات يهود في غيتو روما، ص١٠٨ – ١٠٩؛ سانت موس، ميلاد العصور الوسطى، ص ٣٤٩ – ٣٥٠).

أما النساء اللواتي يرتدين مسوح الراهبات، فكتب المبشر (يونيفيس) نفسه عنهن ما يلي: "إنا سنشعر ببعض الراحة والتفريج عن العار اللاحق بنا، لو أن مجمعكم المقدس، وأمراء الكنيسة، أشاروا وأمروا بمنع النساء اللواتي يرتدين مسوح الراهات من تكرار الحج إلى روما، والرجوع من هناك، لأن معظمهن يتعرضن لهتك أعراضهن، ولا يبقى إلا القليلات اللواتي يحتفظن ببكارتهن، لأنه قلما تجد أية مدينة في لومبارديا، أو فرانكونيا، أو فرنسا، تخلو من أعمال الغش والربا، والعاهرات من أصل إنكليزي".(واكيم برونز، باباوات يهود، المرجع السابق، ص١٠٩).

كانت إصلاحات شارلمان معظمها تعتمد على القوة (مما يشبه النظام البروسي – قبل ظهور ألمانيا) فقد كان يطلب الإشراف التام الصارم على الحياة الخاصة للأكليروس،

وأمرهم بارتداء ملابس خاصة في الكنيسة، وفي الشوارع، وذلك حتى يسهل ضبط أي كاهن ينغمس في الملذات بالجرم المشهود، إذا صدف وانغمس في اللذائذ المخصصة للعلمانيين. وهذا القانون له صلة بموضوع بحثنا، هذا لأن نظاماً مشابهاً قد اتبع فيما بعد بالنسبة لليهود، إذ عندما لاحظت الكنيسة أثناء حكم البابا (أنوسنت الثالث) (١١٩٨ ـ ١٢١٦م) - بكل استياء - أن هنالك اتصالات اجتماعية حسية بين اليهود والكفار، عمدت الكنيسة إلى ابتداع ملابس مميزة لليهود، بحيث يمكن إلقاء القبض عليهم، واعتقالهم بالجرم المشهود. وهكذا قرر المجمع اللاتيراني الرابع (١٢١٥م): "إنه لا يجوز ولا بحال من الأحوال أن يسمح هؤلاء لأنفسهم في المستقبل في الإفراط في الاتصالات الجنسية، ويدعون بالوقوع في خطأ من هذا النوع. ولذلك قررنا أن يخصص لباس خاص لليهود، لتسهيل معرفتهم على الجمهور". وهكذا ظهر إلى الوجود الرداء الكهنوتي، كما ظهرت القبعة اليهودية المدببة، والشعار الأصفر. (المرجع السابق، ص١٠٩).

ولا بد أن كل من قرأ عن خبر استقالة البابا الألماني (بنيديكتس السادس عشر) من قيادة الكنيسة الكاثوليكية بالڤاتيكان، في بداية عام ٢٠١٣م، وهي قبلة ومحج المسيحيين الكاثوليك من أرجاء المعمورة، سيشك في صحة السبب الذي أعلن عنه الإعلام، والذي لُخِّص في كون سنّه الكبير (٨٥ سنة) يمنعه من الاستمرار في أداء مهامه بشكلها التام، علماً أن قيادة الكنيسة الكاثوليكية يقع عليها ما يقع من تشاحن وقتال بين الباباوات. ومهما كان السبب الخفي الذي يكمن وراء حجاب الكنيسة الساتر.. لن يكون بقدر الفضائح التي اشتهر بها الباباوات السابقون، ممن قادوا كنائس كاثوليكية.. بين من عانى من مرض (الزهري)، لدرجة لم يعد قادراً على الصلاة بالناس، والوعظ. وبين آخر عرف بإقامة حفلات العري، والثمالة، لحد العربدة..

ويسرد (موقع هسبريس) لمحة عبر التاريخ، لكشف أكبر فضائح باباوات الكنيسة الكاثوليكية، من (بيدوفيليا) العصر الحديث، إلى جرائم قتل، حاكمت فيها الكنيسة جثة ميت سنة ٨٩٧م!!

لم يكن إنكار فعالية حبوب منع الحمل في تحديد النسل أول مواجهة بين معتقدات الكنيسة الكاثوليكية والأبحاث العلمية، بل الأمر يعود إلى القرن السادس عشر الميلادي، حين خرج العالم (غاليلو) يعلن كروية الأرض التي تدور حول نفسها وحول الشمس، وأنها كوكب من بين كواكب عديدة داخل المجموعة الشمسية. تضارب هذا الواقع الجديد مع قرار باباوات الكنيسة، الذي اتخذت به الأرض شكلاً مسطحاً، مؤمنين أن الأرض مستقيمة، وأنها مركز الكون، وجعل لعنة الكنيسة تحل على العالم (غاليلو)، فمنعت الكنيسة كتبه

وصادرتها، وأمرت به إلى محاكم التفتيش، ثم قادته معتقلاً إلى وسط (روما) أمام حشود من الناس، حيث هددوه بالتعذيب ليتوقف عن أبحاثه!. مرض العالم (غاليلو)، ولم يعش طويلاً حتى يرى الكنيسة ترفع الحظر عن كتبه سنة ١٨٢٢م، حيث توفي سنة ١٦٤٢م، وبقي الأمر كذلك حتى منتصف القرن الماضي، سنة ١٩٦٠م، ليتقدم بابا الكنيسة (يوحنا بولس الثاني)(١٩٧٨ – ٢٠٠٥م) باعتذار رسمي لغاليلو عن التعذيب والإهانة التي لحقت به طيلة قرون!!.

ليس السياسيون وحدهم الذين يملأون خزائنهم بأموال الشعب، بل عرف باباوات الكنيسة بذلك أيضاً، منذ القدم، حيث المقولة الشهيرة للبابا الألماني (جوهان تيتزل)(١٤٦٥ – ١٥١٩م): "بمجرد أن ترمي الدرهم داخل هذا الصندوق الصغير.. ستتطهر روحك من المعاصي، وترتاح من عذاب الضمير"! هكذا كان البابا (جوهان)، والبابا الإيطالي (ليو العاشر)(١٥١٣ – ١٥٢١م)، الذي لحقه، لا يعطيان لنفسهما حق غفران ذنوب الآخرين فقط، وإنما يشجعان الناس على دفع المال، لتنمحي خطاياهم، دون اعتراف لكاهن ولا دعاء!، وقد علقوا لائحة للأسعار، كل ذنب بثمنه، ابتداء بالكذب، ثم الزنا، إلى القتل، حتى تقوى النشاط الاقتصادي لكنيسة (پيترز باسيليسكا) (كنيسة بطرس)، وتدفق المال على باباواتها، وكاردينالاتها، وأساقفتها، من حيث لم يحتسبوا!

وقد استمر الوضع كذلك إلى أن زادت حنقة الناس والعاملين بالكنيسة، وانفجر أحد الرهبان الألمان، المعروف باسم (مارثن لوثر)، الذي طرح وثيقة يفضح فيها هذه النشاطات بعنوان: (٩٥ أطروحة) في عام١٥١٧م!!.

لم تكن مفاجأة أن يصدر البابا يوليوس الثاني (١٤٣٣ – ١٥١٣م) للملك الإنكليزي هنري الثامن (١٤٩١ – ١٥٤٧ م) إعفاءً بالطلاق، الذي كان وقتها محرماً في الكنيسة الكاثوليكية، ويسمح له بالزواج من حبيبته الإسبانية (كاثرين) ، فقد كان البابا نفسه متزوجاً قبل أن يلتحق بالكنيسة! لكن الرهبانية لم تنزع من قلب (خوليوس) حبه للمعاشرة، فقد أنجب على الأقل ابنة واحدة غير شرعية، وهي المعروفة، وكانت له أكثر من عشيقة!، ففي سنة ١٥١١م وجهت الكنيسة ضده اتهامات لممارساته الجنسية البذيئة، واصفة إياه حرفياً باللوطي: "اللوطي المغطى بقرحات مثيرة للاشمئزاز"!!

كان البابا المذكور معروفاً بقضائه أغلب الوقت مع أطفال صغار، وذكور يمارسون البغاء، وكان أول بابا عرف بإصابته بمرض (الزهري). وفي يوم من أيام الجمعة سنة ١٥٠٨م، أصيب بقروح مرض الزهري لدرجة لم يستطع تقديم القداس!، وعرف أيضاً بصداقاته مع الفنانين، ومن بينهم الرسام (مايكل أنجيلو)، الذي أجبره على رسم سقف الكنيسة.

اتفق المؤرخون جميعاً على أن أسوأ بابا في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، هو البابا ألكسندر السادس(١٤٣١ – ١٥٠٣م)، مؤسس السيمونية (= شراء المناصب)، والمحسوبية، سليل عائلة (بورجيا) الشهيرة، الذي عرف بحفلات الثمالة والعربدة، وأشهرها سنة ١٥٠١م، التي أثارت حنق الكنيسة، وسكان مدينة روما، والتي سماها حفلة: (تنافس العاهرات)! حيث رقصت ٥٠ امرأة من جميلات القرون الوسطى، فوق طاولة البابا وأصدقائه، وكان أكثرهم جماعاً تلك الليلة هو الفائز، حيث منحه البابا ملابس ومجوهرات ثمينة، أخذ ثمنها من صندوق الكنيسة!!.

ونتيجة لتلك الحفلات، فقد أنجب البابا "ألكساندر السادس" ٦ أولاد و٣ بنات، من نساء مختلفات، وفرق عليهم وظائف ضمنت لهم حياة كريمة داخل الكنيسة، بين قساوسة وباباوات!!!، وأشيع أن أحد أبنائه البررة سمّمه بتفاحة ليأخذ مكانه في قيادة الكنيسة!

فلو قمت بزيارة كنيسة (سيستن) بالڤاتيكان، ستذكر البابا سيكستوس الرابع (١٤١٤ – ١٤٨٤م)!! وهو بابا أنجب ستة أطفال، والسابع من علاقة مع شقيقته.. كان يجمع الضريبة من أرباح الباغيات، ويجمع الرشاوى من القساوسة، مقابل جلب العاهرات، وممارسة البغاء داخل غرفهم بالكنيسة. ورغم وجود النساء في دور الرهبان، لم يمنع ذلك من انتشار الشذوذ الجنسي في تلك الحقبة بين رهبان الكنائس، كما يقول المؤرخون!

وأخيراً، فضيحة ليس لها علاقة لها بالجنس!، هذه الفضيحة لها علاقة بالانتقام، وهي ليست قصة فلم مختلقة، إنما حقيقة البابا ستيفن السادس(٨٩٦ – ٨٩٧م) الذي أراد الانتقام من سلفه البابا فورموسس (٨٩١ – ٨٩٦م)، رغم أن هذا الأخير كان قد مات مسبقاً!!، وعلى ما يبدو أن تنصيب (ستيفن) على رأس الكنيسة لم يكن بمحض الصدفة، ولم يشف تنصيبه بابا للكنيسة، ولا موت سلفه، غليله حول ماهية الصراع الذي كان بينهما؛ فقرر (ستيفن) حفر قبر (فورموسس)، وانتشال جثته بعد ٩ أشهر من وفاته، ثم ألبس الجثة، ووضعها على كرسي، وأخذها ليحاكمها في قاعة المحكمة!، حوكمت الجثة، وقرر القاضي أن قيادة (فورموسس) للكنيسة باطلة، وأن القرارات التي اتخذها خلال مرحلة بابويته ملغاة، ولن تأخذ بعين الاعتبار، ابتداء من وقت صدور الحكم. ولم يكتف (ستيفن) بذلك الحكم العدل على جثة، إنما قطع ثلاث أصابع كان يستعملها (فورموسس) خلال خطاباته، قبل أن يعيد الجثة إلى مكانها!.

لكن القدر لم يغب طويلاً حتى حكم على (ستيفن) حكماً أعدل من الأول، حيث قام شغب عارم في روما، واقتحم المشاغبون الكنيسة، واعتقلوه، وجعلوه في زنزانة انفرادية، وعثر عليه لاحقاً ميتاً بالخنق!.. هكذا استمرت فضائح الكنيسة الكاثوليكية عبر التاريخ..

حين تتحول الكنائس إلى مجالس خمر، وقلع ملابس.. ويتحول الرهبان إلى فضائح جنسية تهز أركان الفاتيكان، وتقوّض مصداقية الكنيسة. (موقع هسبريس. في ٢٠١٣/٢/١٤م).

ومن جانب آخر، فإن القرار المفاجئ لاستقالة البابا (بنيديكتس السادس عشر) من قيادة الكنيسة الكاثوليكية بالڤاتيكان، والذي أعلنه رسمياً يوم ٢٨ من فبراير/ شباط عام ٢٠١٣ م، شكل صدمة لدى المسيحيين عامة، وانقساماً داخل الكنيسة بين مؤيد ومعارض لهذا القرار، الذي لم يتخذه أحد قادة الكنيسة منذ ٦٠٠عام، إذ إن الترتيب الطبقي داخل الكنيسة، والذي يكون أعلاه البابا القائد، وتحته الكرادلة، لم يسبق أن عرف عودة أحد الباباوات طبقة إلى الأسفل، كما سيحدث الآن حين يعود البابا (بنيديكتس)، بعد استقالته، إلى رتبة كاردينال، تحت قيادة البابا الجديد الذي يخلفه!

ولذلك يقترح كثيرون أن تكون استقالة البابا بمثابة نهاية عمله داخل الكنيسة، وأن يذهب ويستريح في أحد أديرة الرهبان المشيدة عند حدود دولة الڤاتيكان!!!، فمنذ زمن والأقاويل تتناقل عن الاستغلال الجنسي للأطفال من طرف القساوسة الكاثوليك الأمريكان، أقاويل تعود إلى سنة ١٩٥٠م، مع ظهور أحد الأساقفة الذي ظل يحذر من العواقب الوخيمة التي ستلطخ سمعة الكنيسة من جراء هذه الجريمة الشنعاء. لكن تستر الكنيسة، وصمتها، انتهى سنة ٢٠٠٢م، حين نشرت صحيفة (بوستن ڤلوب) الأمريكية تحقيقاً معمقاً، في شهر يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٢م، عن الكاهن (جون جيوڤان)، الذي اتهم بالتحرش بأكثر من ١٥٠ طفلاً، على مدى فترة ٣٠ سنة. وقد أدين الكاهن (جيوڤان) بعشر سنوات سجن نافذة، وقُتل بعد سنتين من صدور الحكم. لكن الفضيحة الحقيقية هي أن الكنيسة كانت تعلم بجريمة (جيوڤان)، وكانت طوال تلك الفترة تنقله من "أبرشية" إلى أخرى، لتبعده عن التهم والأقاويل، وكانت ترسله للعلاج النفسي!! وبقيت تتستر عليه حتى بعد خلعه من منصبه سنة ١٩٩٨م.

وبعد الكشف عن قضية ذاك الكاهن المغتصب، خرجت مئات القضايا الأخرى إلى النور، بما في ذلك ملف كنيسة (لوس أنجلوس)، حيث دفعت الكنيسة ٦٠٠ مليون دولار لتسوية القضية مع ضحايا عقود وعقود، ممن تجرعوا ظلم الاغتصاب في صمت!!!.

المدارس والمعاهد الكاثوليكية تنهار على وقع الفساد والشذوذ الجنسي

أظهرت وثائق رسمية إيطالية، لتسجيلات تعود لاتصالات هاتفية تجسست عليها الشرطة، تورط مرتل في جوقة الفاتيكان، بشبكة دعارة مثلية، أمّن من خلالها عدداً من الرجال المستعدين لممارسة الشذوذ الجنسي مع موظف حكومي إيطالي، يتمتع في الوقت

عينه بمنصب ضمن حاشية البابا بنيدكتس السادس عشر بالمجموعة المعروفة بـ(نبلاء صاحب القداسة).

وجاء اكتشاف هذا الدور للمرتل النيجيري (طوماس شندو إيهيم)، والميول الشاذة للموظف (أنجيلو بالدوتشي)، خلال تحقيقات كانت ترمي إلى كشف إمكانية وجود فساد في صفقات حكومية، كان (بالدوتشي) يشرف على تحديد الشركات الفائزة بها، وبينها أعمال البناء في (مطار بيروجيا). وتعمل مجموعة (نبلاء صاحب القداسة) ضمن مناصب شرفية دون رواتب، وهم بمثابة حجّاب للبابا، وتتركز مهماتهم في استقبال رؤساء الدول والحكومات، ومرافقتهم إلى مكتب البابا.

وكانت الشرطة الإيطالية قد قبضت على (بالدوتشي)، مع ثلاثة موظفين كبار آخرين، ورجل أعمال، بتهمة الحصول على رشى لقاء تسهيل الفوز بصفقات حكومية. وقالت الشرطة إن الرشى توزعت على شكل مبالغ مادية، أو هدايا عقارية، وخدمات جنسية، علماً أن القضاء لم ينظر بالقضية بعد. وأعرب (فرانكو كوبي)، محامي بالدوتشي، عن غضبه حيال كشف الصفقات الجنسية لموكله، وطبيعتها، وقال إن عرض الأمور الشخصية التي لا صلة لها بالتحقيقات - على حد قوله -: "معيبة،" كما رجح أن يقوم بملاحقة المصادر التي عرضت تفاصيل حياة بالدوتشي الخاصة.

وكانت مجلة (بانوراما) الإيطالية قد أجرت مقابلة مع المرتل النيجيري (إيهيم)، قال خلالها إنه كان يجلب الرجال إلى بالدوتشي- ليمارس الجنس معهم، من مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك ممثلين، ورياضيين، وعاملين في عرض الأزياء، وصولاً إلى طلاب في معاهد لاهوتية. وبحسب (إيهيم)، فإن (بالوتشي) كان يفضل الرجال الذين هم فوق سن الأربعين، ويرى أن الشباب في منتصف العقد الثاني من عمرهم "صغار جداً بالنسبة له."بحسب سي ان ان.

وتشير وثائق تسجيلات الاتصالات الهاتفية إلى عدد من المحادثات حول القضايا الجنسية بين بالدوتشي وإيهيم، حيث يقول المرتل النيجيري للمسؤول الإيطالي خلال اتصال معه: "لدي ثلاث أو أربع قضايا جيدة جداً لك، إن لم تكن مشغولاً.. بينهم رجلان من كوبا.. لقد رأيتهما يا أنجيلو وهما يشكلان فرصة جيدة.. يمكن تدبير شيء ما فوراً".

وفي اتصال آخر قال إيهيم لبالدوتشي: "إذا كنت ترغب يمكنني أن ارتب حضورهما بشكل متتالي،" فيرد بالدوتشي: "من هم الأفضل بين من عرضت علي"، فيجيبه إيهيم: "الأفضل هما من ذكرتهما لك أول الأمر، رجل من بالونيا، والثاني من روما". وزعم المرتل

النيجيري الذي يبلغ من العمر ٣٩ سنة أنه كان يقوم بهذه المهمة لمساعدة عائلته مادياً في نيجيريا.

بالمقابل، ذكر مصدر رفض كشف اسمه في الفاتيكان، أن البابا قرر إعفاء إيهيم من منصبه ضمن جوقة الفاتيكان، أما بالنسبة لبالدوتشي فأشار المصدر إلى أنه لن يتمكن حالياً من ممارسة مهامه ضمن مجموعة (نبلاء صاحب القداسة)، بسبب وجوده في السجن. وأضاف: إن القضاء لم يدن الموظف الإيطالي بعد، متوقعاً أن يكون هناك موقف آخر للكنيسة في حال حصل ذلك. (شبكة صباح، بقلم صباح جاسم).

وفي السياق نفسه، صرحت مديرة إحدى المدارس التابعة للكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، بضرورة حل مجلس إدارة المدرسة بصفة كاملة، ليتسنى للمدرسة أن تبدأ بداية جديدة، بعد فضيحة الاعتداء على بعض تلاميذها جنسياً. وقالت (مارجاريتا كاوفمان)، مديرة مدرسة أودنفالد، الواقعة في جنوبي ألمانيا: إن الاتهامات التي وجهت للمدرسة أساءت لسمعتها، وأن حل هذه المشكلة يتمثل في حل مجلس إدارتها بصورة كاملة، لتمهيد الطريق أمام بداية جديدة. وصرحت (كاوفمان) لصحيفة (فرانكفورتر روندشاو)، قائلة: "أعتقد أن مجلس الإدارة الذي أنتمي إليه لا بد أن يستقيل بصفة كاملة"، ومع ذلك أبدت كاوفمان رغبتها في إدارة المدرسة التي تقع في دائرة هيبنهايم جنوب ولاية هيسن الألمانية. مضيفة: إنها "ستقوم بمهامها المنوطة بها كمديرة للمدرسة حالياً بصورة كاملة". وأعلنت كاوفمان، التي تدير المدرسة منذ عام ٢٠٠٧م، أنها ستقدم "المساعدة من الخارج" في التحقيقات الدائرة بشأن الفضيحة التي أساءت لسمعة المدرسة.

الفاتيكان: من الخطأ التركيز على الكنيسة وحدها:

وقال الفاتيكا ن رداً على هذه الانتهاكات التي تجري في المعاهد والمدارس التابعة له، إنه من الخطأ إلقاء اللوم في إساءة معاملة الأطفال على الكنيسة الكاثوليكية وحدها، ونفى اتهامات بأنه حاول التستر على أعمال تحرش جنسي- بالأطفال لرجال دين تابعين له في أنحاء أوروبا، واعترف الأب (فيديريكو لومباردي)، المتحدث باسم الفاتيكان "بعمق الأزمة التي تمر بها الكنيسة"، بعد ظهور ادعاءات جديدة في الأسابيع الأخيرة بشأن انتهاكات جنسية واسعة من جانب رجال دين في ألمانيا والنمسا وهولندا. ولكنه أنكر ادعاءات ساقها وزير في الحكومة الألمانية بأن الفاتيكان تواطأ للتستر على انتهاكات جنسية للأطفال، وزعمت تقارير أن قساوسة كاثوليك استغلوا جنسيا أكثر من ١٠٠ طفل في المدارس اليسوعية هناك، بحسب رويترز.

وقال (لومباردي) لراديو الفاتيكان: "ارتكبت أخطاء من جانب المؤسسات، وأعضاء في الكنيسة، وهناك لوم مستحق، خاصة بالنظر إلى المسؤولية التعليمية والأخلاقية للكنيسة. وأضاف: "ولكن كل شخص موضوعي ومتنور، يعلم أن الأمر أوسع كثيراً، وتركيز الاتهامات على الكنيسة وحدها، يجعل الأمور تخرج عن نصابها". واستشهد لومباردي بتقرير حديث للسلطات النمساوية، أورد تفصيلاً ١٧ حالة انتهاك في مؤسسات ذات صلة بالكنيسة الكاثوليكية، ولكنه تضمن أيضاً ٥١٠ حالات في مؤسسات أخرى. وقال: "سيكون من الأفضل القلق بشأن هذه أيضاً".

وجاءت أحدث الادعاءات، بعد سنوات من فضيحة مدوية في ايرلندا والولايات المتحدة، ودفعت الكنيسة الأمريكية الكاثوليكية نحو ملياري دولار لتسوية قضايا مع ضحايا منذ عام ١٩٩٢م. وقالت الكنيسة الكاثوليكية الهولندية إنها ستطلب تشكيل لجنة تحقيق مستقلة للنظر في أكثر من ٢٠٠ تقرير عن مزاعم بانتهاكات جنسية من جانب قساوسة، وذلك رداً على ظهور مزيد من الضحايا.

وغضب الألمان بسبب تقارير عن إساءة معاملة من جانب القائمين على المدارس اليسوعية، وادعاءات بالضرب وانتهاكات جنسية في ثلاث مدارس كاثوليكية في (بافاريا)، من بينها واقعة ذات صلة بجوقة راقية، أدارها شقيق بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، من ١٩٦٤ إلى ١٩٩٤م. واعترف جورج راتسينجر (٨٦ عاماً) بانه صفع التلاميذ على وجوههم لتأديبهم، ولكنه نفى معرفته بأي انتهاك جنسي.

شقيق البابا بنيديكتس السادس عشر: قضية الاستغلال الجنسي لم تُطرح يوماً:

ومن ناحيته، أكد المونسنيور (غيورغ راتسينغر)، شقيق البابا بنيديكتس السادس عشر، أن قضية الاستغلال الجنسي "لم تطرح يوما" في الجوقة الألمانية التي كان يقودها في (ريغنسبورغ)، وأدان العقوبات الجسدية التي تعرض لها تلاميذ. وقال (غيورغ راتسينغر) (٨٦ عاماً)، لصحيفة (باسوير نيوي بريسي): إن "مشكلة الاستغلال الجنسي، التي كشفت الآن، لم تبحث يوماً"، مضيفا: "لم نتحدث أبداً عن هذا النوع من الأمور داخل كنيستنا".

وكان المخرج والمؤلف الموسيقي (فرانتس فيتنبرينك)، الذي كان طالباً في مدرسة داخلية في الكنيسة، وعضواً في الجوقة، حتى عام ١٩٦٧م، تحدث عن استغلال جنسي تعرض له عدد كبير من التلاميذ، من قبل مدير سابق للمؤسسة.

وكشفت هذه الفضيحة، في نهاية كانون الثاني/ يناير، بشأن معهد كانيسيوس اليسوعي في (برلين)، الذي اعترف بحدوث انتهاكات جنسية في السبعينات والثمانينات من القرن

العشرين، تورط فيها مدرسان سابقان على الأقل. ومنذ ذلك الحين، كشفت حالات كثيرة أخرى، يعود معظمها إلى عقود في (ألمانيا)، حيث استقال عدد كبير من رجال الدين، بحسب (رويترز).

وأدان شقيق البابا العنف الجسدي الذي تعرض له تلاميذ الجوقة من قبل مدير المدرسة. وقال: "لو عرفت درجة العنف المفرط لتحركت، لقلت شيئاً ما". وأضاف: "أطلب الصفح من الضحايا". وأوضح: إن "تلاميذ رووا لي خلال جولات، عن الطريقة التي يعاملون بها (...) لكن رواياتهم لم توح لي بأن عليّ أن أفعل شيئاً ما". وتابع: "كنت أعرف أن المدير العام السابق (للمدرسة) كان يصفع التلاميذ بقوة (...) ولأسباب سخيفة في بعض الأحيان". لكنه رأى - في الوقت نفسه - أنه أسلوب كان شائعاً في تلك الفترة.

وبينما تواصل فضيحة تصاعد حالات الاستغلال الجنسي، التي تهز الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، قالت وزيرة العدل الألمانية السابقة (سابين لويتهويسر شنارنبرغر) أنه يجب دفع تعويضات مالية للضحايا. وكانت الوزيرة الألمانية صرحت لإذاعة (دويتشلاندفونك) إن "جداراً من الصمت رفع في عدد كبير من المدارس والمؤسسات"، متهمة الفاتيكان بعرقلة التحقيقات في هذه الفضيحة.

وانتقلت القضية إلى (النمسا)، حيث أعلن مسؤول في (كنيسة سالزبورغ) أنه يشتبه بحدوث حالات استغلال جنسي في مؤسستين دينيتين نمساويتين، واعترف في تصريح للإذاعة العامة بأنه استغل شاباً نمساوياً يبلغ من العمر اليوم ٥٣ عاماً، لكنه عرض عليه في نهاية ٢٠٠٩م تعويضاً بمبلغ خمسة آلاف يورو مقابل صمته. وأكد أسقف سالزبورغ (الويس كوتغاسر) أنه بمثابة (تعويض).

البابا يدعو الأساقفة إلى إعادة مصداقية الكنيسة:

ومن جهته، دعا البابا (بنيديكتس السادس عشر) حوالي عشرين من أساقفة إيرلندا، استقبلهم في الفاتيكان، إلى اتخاذ إجراءات (عملية) من أجل "إعادة المصداقية الأخلاقية والروحية للكنيسة"، التي تهزها فضيحة التحرش الجنسي بالأطفال. وتعهد الأساقفة الإيرلنديون، خلال اللقاء، التعاون مع القضاء في بلدهم، حيث اتهمت الكنيسة الكاثوليكية بالتغطية على ممارسات كهنة تحرشوا جنسياً بمئات الأطفال، خلال عقود من الزمن، على ما ذكر الفاتيكان. وفي بيان نشره الفاتيكان بعد اللقاء، وصف البابا هذه الأعمال بأنها "جريمة دنيئة" و"خطيئة مميتة، تشكل إهانة للرب، وتجرح كرامة البشر الذين خلقوا على مثاله".

وندد (بنيديكتس السادس عشر) - أيضاً – بـ"فشل سلطات الكنيسة الإيرلندية، طوال سنوات، في العمل بفعالية لمواجهة هذه الحالات من الاستغلال الجنسي لـلأولاد، من قبل أفراد في السلك الكهنوتي الإيرلندي، ورجال دين". ودعا البابا الأساقفة إلى "الانكباب على مشكلات الماضي بحزم، ومواجهة الأزمة الراهنة بكل صدق وشجاعة (...) مع الإدراك بأن الوضع الحالي المؤلم لن يحل بسرعة". كما دعاهم إلى اتخاذ "تدابير واضحة لتضميد جراح أولئك الذين تعرضوا للاستغلال الجنسي (...) وإعادة المصداقية الروحية والأخلاقية للكنيسة". واعتبر أن "ضعف الإيمان كان عاملاً حاسماً أسهمَ في ظاهرة الاستغلال الجنسي للقاصرين". وطلب في هذا الخصوص "تأملاً لاهوتياً عميقاً"، ودعا إلى "تحضير أفضل بشري وروحي وأكاديمي ورعوي للمرشحين لدخول السلك الكهنوتي والحياة الدينية".

فضائح الاعتداءات الجنسية بالمعاهد اليسوعية في ألمانيا:

وكرد فعل على فضيحة الاعتداءات الجنسية بالمعاهد اليسوعية في ألمانيا، أعلنت إدارة تلك المؤسسات أن الأب (ثيوشنايدر)، عميد (كلية الويسيوس)، في (بون)، قد استقال من منصبه بأثر فوري. وكانت مجلة (دير شبيغل)، قد نشرت تحقيقاً مثيراً تناول الاعتداءات الجنسية في المعاهد اليسوعية في ألمانيا، حيث أظهر وجود هذه الحالات المخلة، في أربعة وعشرين أبرشية، من أصل سبعة وعشرين.

وكان طالب سابق في الكلية المذكورة، يبلغ من العمر اثنين وستين عاماً، قد اشتكى من أنه تعرض في الماضي للاغتصاب على يد قس. ولاحقاً وجّهَ طالب آخر تهمة مماثلة. ثم اتهم طالب يدعى (ميغيل ابرانتس) عدداً من القساوسة بأنهم مارسوا اعتداءات جنسية ضده، ورفاقه، على مدى سنوات، في مدرسة (باد غودسبرغ). كما نشر طالب سابق، يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً، كتاباً تحت عنوان (بوب ساكرا)، يروي فيه تجربته في إحدى المدارس الدينية. (بحسب وكالة رويترز).

وجاءت خطوة الأب شنايدر بسبب الاتهامات الموجهة ضده، حول تواطؤه في بعض من حالات الاعتداء الجنسي، حيث قبلت استقالته، وسيعنى بتسيير الكلية مدير مؤقت، وفقاً لما نقلته وكالة (آكي) الإيطالية للأنباء. وكان البابا بنيديكتس السادس عشر قد أدان الكهنة الذين قاموا باغتصاب الأطفال، وقال خلال كلمة أمام المجمع الفاتيكاني للأسرة: "إن الكنيسة عززت على مر القرون مبدأ حماية كرامة وحقوق الأطفال، واعتنت بهم". وأضاف قائلاً: "للأسف، في كثير من الحالات، قام بعض أعضاء الكنيسة بانتهاك هذه الحقوق، والكنيسة لن تكل عن إدانة هذا السلوك، واستنكاره".

وكانت الكنيسة في أيرلندا، قد تلقت ضربة موجعة للثقة فيها، بعد أن قال تقرير حكومي، نشر في نوفمبر/ تشرين ثاني عام٢٠٠٣م، إن "أبرشية دبلن، وعدد آخر من الكنائس والمؤسسات الكاثوليكية الأيرلندية، أخفت عمليات تحرش جنسي، ارتكبها كهنة بحق مئات الأطفال في التسعينيات". وقال تقرير لجنة التحقيق التي شكلتها أبرشية دبلن، والذي جاء في ٧٢٠ صفحة: إنه "مما لا شك فيه أن اعتداء الكهنة على الأطفال جنسياً، تم التستر عليه،" بين يناير/كانون ثاني عام ١٩٧٥م وحتى أيار/مايو ٢٠٠٤م، وهو الوقت الذي غطاه التقرير.

الفاتيكان يطرد حاجباً للبابا متهم بالدعارة:

وورد اسم حاجب للبابا بنيديكتس السادس عشر، وعضو بجوقة خاصة في كاتدرائية القديس بطرس، ضمن شبكة دعارة للشواذ جنسياً، وذلك في أحدث فضيحة جنسية تلطخ الفاتيكان.

وطرد الفاتيكان (جيندو ايهايم) - وهو نيجيري - من جوقة جوليا، بعد أن ظهر اسمه في نصوص اتصالات هاتفية سجلتها الشرطة، ونشرتها صحيفة إيطالية، في إطار تحقيق في قضية أخرى. وقامت الشرطة بتسجيل تلك الاتصالات في إطار تحقيق في فساد في عقود لبناء أشغال عامة.

وكان أربعة أشخاص اعتقلوا في فضيحة الفساد؛ من بينهم (انجيلو بالدوشي)، وهو مهندس وعضو بمجلس إدارة الأشغال العامة الإيطالية، ومستشار إنشاءات للفاتيكان. واعتقل (بالدوشي) بتهم الفساد، وتكشفت اتهامات الدعارة في وقت لاحق (بحسب رويترز).

و(بالدوشي) عضو أيضاً في جوقة مختارة، تضم حجاباً يستدعون للعمل في القصر الرسولي للفاتيكان في مناسبات مهمة، مثل استقبالات البابا لرؤساء دول، أو عندما يرأس البابا مناسبات كبيرة. وأفراد تلك الجوقة هم الذين حملوا نعش البابا يوحنا بولس أثناء مراسم جنازته في ٢٠٠٥م. وأظهرت مقتطفات نشرت في صحيفة (لاريبوبليكا) الإيطالية أن (ايهايم) (٤٠ عاما) كان على اتصال منتظم مع (بالدوشي)، قبل اعتقال الأخير، وأن موضوع محادثاتهما كان جنس الشواذ. (شبكة النبأ المعلوماتية - الأحد ١٤/آذار/٢٠١٠ - ما ليس في الحسبان!).

انتقادات جديدة للفاتيكان بشأن الشذوذ الجنسي:

لقد أثارت تصريحات وزير خارجية الفاتيكان (الكاردينال تارشيزيو بيرتوني) جدلاً حاداً في الأوساط السياسية، وجمعيات حقوق المثليين، عندما شبّه الانتهاكات الجنسية التي هزت الكنيسة الكاثوليكية بسلوك المثليين. وقال (بيرتوني) للصحفيين، خلال زيارته لـ(تشيلي): "إن العديد من علماء النفس قد أثبتوا أنه لا يوجد أي ارتباط بين التحرش الجنسي والعزوبية، بينما أثبت آخرون أن التحرش الجنسي- مرتبط بسلوك المثليين". تأتي هذه التصريحات في وقت تتعرض فيه الكنيسة الكاثوليكية لاتهامات بالتستر على فضائح جنسية ارتكبها قساوسة في مختلف الأبرشيات العالمية، منذ أكثر من خمسين عاماً.

وتتوجه أصابع الاتهام، بشكل خاص، إلى البابا (بنيديكتس السادس عشر)، الذي تجاهل - حسب صحيفة نيويورك تايمز - شكاوى من انتهاكات جنسية قام بها كهنة، وذلك عندما كان مسؤولاً عن (هيئة عقيدة الإيمان).

وتعليقاً على تلك الاتهامات، قال الصحفي والخبير بشؤون الفاتيكان (أوراتسيو لاروكا): "إنها لمأساة أن تخفي الكنيسة قضايا الفضائح الجنسية"، لكنه أعرب عن شكوكه في أن تكون هناك أهداف أخرى وراء هذه الحملة القادمة من الولايات المتحدة ضد بابا الفاتيكان. وذكر (لاروكا)، في حديث للجزيرة نت، بأن أول مرة تحدثت فيها الصحف الأميركية عن التحرشات الجنسية بأطفال في الكنائس الكاثوليكية، جاءت بعد انتقادات البابا الراحل (يوحنا بولص الثاني) للحرب الأميركية على العراق، وانتقاده للرئيس جورج بوش. ووصف (لاروكا) الكهنة الذين ارتكبوا الانتهاكات الجنسية بأنهم أنذال، وأعرب عن أمله في أن توقع بهم أقسى- العقوبات، لكنه رفض أن يربط انتهاكات الكاهن الشاذة بالعزوبية.

ومن جهته، قال عالم اللاهوت السويسري (هانس كونغ)، المعروف بانتقاداته للفاتيكان: إن سياسة البابا بنيديكت السادس عشر فشلت في إجراء تعديلات على المؤسسة الدينية، خاصة فيما يتعلق بالأخلاقيات الجنسية. وقال (كونغ)، في مقال نشر بصحيفة (لاريبوبليكا) الإيطالية: إنه كان الأحرى ببابا الفاتيكان أن يتحدث خلال قداس الفصح عن قضايا التحرش الجنسي- بدلاً من التزام الصمت. وأشار (كونغ) إلى أن قضايا التحرش جُمعت من قبل (هيئة عقيدة الإيمان)، عندما كان البابا الحالي نفسه مسؤولاً عنها، لكنها عولجت بسرية تامة، وفرض على الأساقفة الكتمان مع أن مرتكبي الانتهاكات قد نالوا عقوبات قاسية حسب القانون الكنسي.

وأشار الناطق باسم الفاتيكان (فيديريكو لومباردي) في مؤتمر صحفي خاص برحلة البابا بنيديكتس السادس عشر إلى مالطا (نيسان عام٢٠١٠م) إلى أنه لا يُستبعد أن يلتقي البابا بعض ضحايا التحرشات الجنسية في مالطا.

وقبل أيام من وصوله إلى مالطا تعرضت صور البابا التي وضعت على الطرقات استقبالا له، للتشويه حيث كتبت عليها شتائم ورسم شارب هتلر على وجهه. وفي محاولة للدفاع عنه أعلن "مجلس الشورى العلماني الوطني" التابع لمجلس الأساقفة يوم ١٦ مايو/أيار ٢٠١٠م يوم تضامن مع بابا الفاتيكان، حيث اجتمعت نحو (٧٠) مؤسسة كنسية في ساحة القديس بطرس بوسط روما للإعراب عن تضامنها مع البابا ضد ما تعتبره حملة تعرض لها في الآونة الأخيرة. (المصدر : الجزيرة نت. غادة دعيبس - روما في ٢٠١٠/٤/١٦).

شذوذ القساوسة الجنسي وراء استقالة البابا بنيديكتس السادس عشر:

وعلى الصعيد نفسه، ذكرت صحيفة (ذي غارديان) البريطانية، في عددها ٢٠١٣/٢/٢٣م، أن تقريراً صحفياً عزا استقالة البابا بنيديكتس السادس عشر من منصبه، إلى الكشف عن شبكة من الأساقفة الشاذين جنسياً داخل الفاتيكان، تعرض بعضهم للابتزاز من أشخاص في الخارج. وامتنع الناطق الرسمي باسم البابا عن تأكيد أو نفي التقرير الذي أوردته صحيفة (لاربوبليكا) اليومية الإيطالية، وكانت الصحيفة الإيطالية نشرت أن البابا اتخذ قرار استقالته في ١٧ ديسمبر/كانون الأول عام٢٠١٢م، وهو اليوم الذي تلقى فيه ملفاً جمع بياناته ثلاثة من الكرادلة، أنيطت بهم مهمة النظر في قضية تسريب وثائق سرية من الفاتيكان، فيما عُرف بفضيحة (فاتيليكس).

وكان (باولو غابرييلي) - كبير خدم بابا الفاتيكان - قد اعتُقل في مايو/ أيار عام ٢٠١٢م بتهمة سرقة وتسريب مراسلات بابوية، صورت الفاتيكان على أنه بؤرة تمور بالدسائس والصراعات الداخلية. وطبقا لصحيفة (لا ربوبليكا)، فإن الملف الذي يتألف من (مجلدين، من ٣٠٠ صفحة تقريباً"، أودع في خزانة حديدية بالشقق البابوية، وسيسلم إلى البابا الجديد بعد انتخابه.

وفي اقتباس واضح من تقرير الكرادلة، قالت (لاربوبليكا): إن بعض مسؤولي الفاتيكان خضعوا "لنفوذ خارجي من أشخاص عاديين، تربطهم بهم علاقات ذات طبيعة دنيوية". ونقلت عن مصدر وصفته بأنه وثيق الصلة بمن أعد التقرير من الكرادلة، القول: "إن كل شيء يدور حول عدم التقيد بما جاء في الوصيتين السادسة والسابعة من الوصايا العشر

التي أنزلها الله تعالى على نبيه موسى (عليه السلام)". وهاتان الوصيتان تحرمان الزنا والسرقة على التوالي.

وفي تطور آخر، ذي صلة بالديانة المسيحية، اقترح أكبر رجال المذهب الكاثوليكي في بريطانيا، أن يُسمح للقساوسة بالزواج وممارسة الجنس، في خطوة اعتبرتها صحيفة (إندبندنت) البريطانية انحرافاً كبيراً عن التعاليم السائدة حالياً في الكنيسة. وقال رئيس أساقفة سانت أندروزوإدنبره (الكاردينال كيث أوبراين)، في مقابلة مع تلفزيون بي بي سي، إن على البابا الجديد أن يعمل على تعديل القوانين المتعلقة بتبتل القساوسة، "لأن ليس لها أصل في الدين". (صحيفتي الإندبندين والكارديان البريطانيتان، في ٢٠١٣/٢/٢٣).

أسباب استقالة البابا بنيديكتس السادس عشر، في عام٢٠١٣م:

وقد شكك كثيرون في تصريحات البابا، والأسباب التي برر بها استقالته، واعتبروها غير مقنعة. وتضاربت الآراء حول هذه الخطوة غير المسبوقة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية منذ ٦٠٠عام، عندما قام البابا (شيليستينو الخامس) بالاستقالة، وإن كانت الأسباب والظروف مختلفة عن اليوم. واعتبر العالم الكاثوليكي والعالم الغربي إعلان بابا الفاتيكان (بنيديكتس السادس عشر) التنحي عن سدة البابوية يوم ٢٨ فبراير/ شباط عام ٢٠١٣م، بالقرار الشجاع والاستثنائي، لما يحمل في طياته من مسؤولية كبيرة لرئيس الكنيسة الكاثوليكية. وجاء قرار البابا المفاجئ خلال جلسة استثنائية للكرادلة، على هامش اجتماع للمجلس البابوي، مبرراً ذلك بأن صحته، وسنّه، لم يعودا ملائمين لقيادة الكنيسة. وقال البابا: "بعد أن فحصت ضميري أمام الله، تيقنت بأن قوتي وتقدمي في السن أصبحا غير ملائمين لممارسة منصب الوزارة البطرسية، كما أن عالم اليوم يخضع لتغيرات سريعة، وتحركه مسائل لها أهمية كبيرة لحياة الإيمان، لهذا أعلن تنازلي عن منصب أسقف روما".

ويرى أستاذ التاريخ في جامعة الدراسات العليا في مدينة بيزا الإيطالية (البروفيسور دانييلي مينوتسي)، في حديث للجزيرة نت، أن مشاكل كثيرة هي التي قد تكون تسببت باستقالة البابا. ويذكر (مينوتسي)، في هذا الصدد، فضائح الفساد، والاعتداءات الجنسية، والصراع على السلطة، والخلافات حول (عقيدة الإيمان)، معتبراً أن كل هذه المشاكل ألقت بثقلها على البابا، بحيث لم يعد قادراً على إدارة الحكم بنفس النهج السياسي الذي اتبعه حتى الآن. لكن المشكلة الحقيقية، كما أوضح مينوتسي، هي عدم مواكبة الكنيسة للعصر الحديث، "فمنذ تسلم البابا منصبه عام ٢٠٠٥م، أصبحت الكنيسة أكثر تزمتاً، وخاصة فيما يتعلق بفرضية الحقيقة الحصرية الصالحة لكل زمان ومكان كمعيار عالمي". ويضيف: إن

هذه الفرضية خلفت اعتراضات كثيرة في كنيسة روما، لأنها تصر على أن المبادئ والقيم الكاثوليكية غير قابلة للنقاش، وتنطبق على كافة المجتمعات والسياسات بالتساوي. معتبراً أن هذا يدل على انغلاق الكنيسة تجاه العالم الآخر، والحوار مع الديانات الأخرى.

من جهته، ذكر الباحث البلجيكي (البروفيسور ماركو فينتورا)، أن البابا برر استقالته بمشكلة صحية، "لكن المشكلة الحقيقية هي الصراع من أجل الدين في عالم علماني سريع التغيرات، فالبابا ضحية - مثله مثل باقي القيادات الدينية - للتغيرات السريعة، ولفكرة أن العلمانية تتناقض مع الدين". وأضاف (فينتورا) للجزيرة نت: إن البابا ركز على السلطة واللاهوت، منذ المجمع الفاتيكاني الثاني، ولم يترك حيزاً لإبداعات جديدة لإدخال تغييرات على الكنيسة، وركز على شخص الكاهن، واستثنى المرأة من الكهنوت، ووطد السلطة الذكورية والهرمية للكنيسة. لكن استقالته أثبتت أنه لم يكن بمقدوره الاستمرار في هذه السياسة المتناقضة مع العصر الحديث.

وفيما يتعلق بالبابا القادم، توقع (فينتورا) أن يكون من الولايات المتحدة، "لأنها أصبحت المكان الذي يشهد تزايداً في أتباع الديانة الكاثوليكية المتشددة. لكنه أبدى تخوفه من تأثير البابا المستقيل على البابا المنتخب، "لأنه سيكون هناك اثنان وليس واحداً، بما أن بنيديكتس السادس عشر تنحى عن منصبه، ولم توافه المنية، مثلما يحصل عادة في تاريخ الكنيسة"(المصدر: الجزيرة نت).

بدايات التحرش الجنسي في عام ١٩٨٥م:

قد تكون بدايات التحرش الجنسي لرجال الكنيسة الكاثوليكية، بشتى مراتبهم الكنسية، قديمة، ولكنها ظهرت للملأ بحق الكرادلة في عام ١٩٨٥م، في ولاية لويزيانا الأمريكية، بعد ما اعترف الكاهن (جيلبرت جوث) بالاعتداء الجنسي، وإساءة معاملة ٣٧ صبياً، بالإضافة إلى اعترافه بأنه مُذنب في الـ٣٤ تهمة جنائية الموجهة له، بحسب صحيفة نيويورك تايمز. وحُكم على (جوث) بالسجن لمدة ٢٠ عاماً، لكنه أفرج عنه بعد عشر سنوات فقط. وبحسب وكالة رويترز، فإن البابا فرانسيس طالب بضرورة تسريع وتيرة التحقيقات التي يخضع لها الكرادلة المتهمين بالاعتداءات الجنسية. وأضافت: أن البابا يجتمع بعدد من الكرادلة أربع مرات خلال العام الواحد، من أجل مناقشة عدد من الأمور الهامة، والتي كان من بينها هذا العام قضية الاتهامات الجنسية.

وقال المتحدث باسم الفاتيكان (جريج بورك) إن البابا ناقش مع الكرادلة خلال الاجتماع، الخطوات التي من الممكن أن يتخذوها من أجل الإسراع من وتيرة التحقيقات المتعلقة

بالتحرش الجنسي. وأضاف: إن من بين تلك الإجراءات هو إقامة عدد من المحاكم الإقليمية في عدد من الدول، من أجل أن تتابع التحقيقات مع الكرادلة والكهنة المتورطين في تلك القضايا.

وتجدر الإشارة إلى أنه عندما أُنتخب البابا الأرجنتيني (فرانسيس) زعيماً للكنيسة الكاثوليكية (بابا) منذ نحو ثمانية أعوام، وتحديداً في ١٣ مارس/ آذار من عام ٢٠١٣، تم اصطحابه في جولة - مثله في ذلك مثل أي بابا سبقه - من كنيسة سيستين إلى (غرفة الدموع)، وهي المكان الذي يتوقف بداخله أي بابا جديد لبضع لحظات، ودون شك ذرف الكثير منهم بضع دمعات في هذه الغرفة، وهم يفكرون في المسؤولية الضخمةالمُلقاة على عاتقهم، قبل أن يخرج ليطل من شُرفة كاتدرائية القديس بطرس، ليحيي العالم كقائد جديد للكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

ووفقًا لما ذكرت صحيفة (الغارديان) البريطانية، فإنه عند ظهور البابا فرانسيس، الذي كان يعرف حتى ذلك الوقت بـ(خورخي بيرغوليو)، أسقف العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس، لأول مرة في تلك الليلة، بدا متفائلاً بشكل ملحوظ، ومزح قائلاً: إن الكرادلة قد ذهبوا إلى أطراف الكرة الأرضية لاختيار البابا الجديد. لكن لو كان البابا يعلم كيف ستسير السنوات الثماني الأخيرة، لكان انفجر في البكاء داخل (غرفة الدموع)، حسب ما جاء في تقرير الصحيفة.

بينما حظى البابا فرانسيس بشعبية ضخمة في معظم أرجاء العالم، سواء في الأوساط الكاثوليكية، أم غير الكاثوليكية، فقد عانى من معارضة شرسة داخل الفاتيكان، بسبب سعيه لأن تواكب الكنيسة الكاثوليكية ما يجري في القرن الحادي والعشرين، حيث كافح من أجل إصلاح الحكومة، وحاول إقناع الكرادلة بمراجعة آرائهم بشأن الطلاق والزواج مرة أخرى، ولاقى معارضةً واضحة من بعض الأساقفة المتمردين.

وقد تلقى البابا (بنيديكتس)، قبل استقالته، ضربة موجعة من أعدائه، عندما تقدمت (ماري كولينز)، التي نجت من حادث اعتداء جنسي بالكنيسة في صغرها، وكانت آخر الأعضاء الباقين باللجنة التي فوضها البابا للتصدي لحالات الاعتداء الجسدي على الأطفال في الكنيسة، باستقالتها من اللجنة، معربة عن خيبة أملها بسبب عدم إحراز أي تقدم، وما سمته (الغياب المخزي للتعاون) من جانب المسؤولين المعنيين بحالات الاعتداء الجسدي. لافتة إلى تعنت أعضاء الكوريا الرومانية، أو الهيئة الحاكمة في الفاتيكان، وهي الهيئة التي يرغب البابا فرنسيس في إصلاحها.

واعترض مسؤولو الكوريا الرومانية (= الدائرة الرومانية Curia Romana)، أي ما يقابل أمانة سر الدولة، على توصية اللجنة بضرورة إنشاء محكمة للتعامل مع حالات الأساقفة المتهمين بالاعتداء الجنسي، على الرغم من موافقة البابا نفسه عليها.

وتضع المعارضة التي يواجهها البابا فرانسيس الكنيسة في منطقة مجهولة. وقال (ماسيمو فاجيولي)، وهو عالم لاهوت بارز وصحفي متابع لأخبار الفاتيكان: "الوضع والحالة في الفاتيكان هي السبب وراء ذلك. إنها معارضة ثقافية وسياسية كانت ظاهرة بالفعل بعد أسابيع قليلة من انتخاب البابا فرانسيس، إنهم يعارضون تغيير أسلوب وموقف الكنيسة، والتحول من التقاليد الغربية إلى التقاليد العالمية"..

في أيام فرانسيس الأولى كبابا للفاتيكان، ركَّزت الأصوات الخافتة في الفاتيكان على الإصلاحات المالية التي يريد القيام بها. استقال البابا بنيديكتس السادس عشر بعد سلسلة من التسريبات عُرفت باسم (فاتيليكس) ، والتي كشفت عن ممارسات مالية فاسدة في الفاتيكان. وسعى البابا فرانسيس إلى إنهائها، ولكن الأصوات المعارضة للبابا تعالت بعد رغبته في الحوار بشأن الزواج، والطلاق، والمثليين، والعائلة.

وبعد اجتماعين للكنيسة بشأن هذه القضايا عامي ٢٠١٤م و٢٠١٥م، أصدر البابا فرانسيس وثيقة (Amoris Laetitia)، التي يطلب فيها من أساقفة الكنيسة أن يتخذوا قرارات موضوعية بشأن المُطّلقين، والمتزوجين مرة أخرى، وتلقيهم للإرشاد الروحي. حيث إن تعاليم الكنيسة التقليدية تنص على أن الشخص الكاثوليكي الذي يتزوج مرة أخرى بعد الطلاق، يمكنه أن يتلقى الإرشاد الروحي فقط، إذا ألغت الكنيسة زواجه الأول. بعض الأساقفة رأوا وثيقة Amoris Laetitia كتوجيه للترحيب بالأشخاص الذين لم تُبطل الكنيسة زواجهم، ولمنحهم الإرشاد الروحي.

أثار هذا الأمر غضب المحافظين، وأعلن أربعة كرادلة معارضين للتغيير بالكنيسة، في خطابٍ وجهوه إلى البابا فرانسيس، الذي أخذ هيئة تعرف باسم (دوبيا)، عن شكوكهم، وطلبوا إجاباتٍ واضحة. وفي حقيقة الأمر تحدوا سلطة البابا من خلال مطالبته بتوضيح تعاليم الكنيسة بخصوص هذه القضية والحياة المسيحية. وخلال أيام، ظهرت ملصقات معارضة للبابا فرانسيس في شوارع روما، بالإضافة إلى انتشار أخبار وهمية، وعبارات ساخرة منه على صفحات الجرائد بالفاتيكان. ويحاول البابا أن ينقل بعض القرارات على الأقل إلى الأساقفة والكنائس المحلية في مختلف أنحاء العالم، من خلال السماح للكهنة والأساقفة باتخاذ القرارات بخصوص السماح للمُطّلقين بتلقي الإرشاد الروحي. وكان هذا الأمر بمثابة ناقوسِ خطرٍ بالنسبة للمحافظين.

وبشأن حالات الاعتداء الجنسي الكاثوليكية، التي اهتمت الصحافة الغربية بها كثيراً، في الآونة الاخيرة، فهي سلسلة من الدعاوى القضائية، والملاحقات الجنائية، والفضائح المتصلة بالاعتداءات الجنسية التي ارتكبها كهنة كاثوليك، وأعضاء في النظام الديني من الرهبان، وكلاهما تحت السيطرة الأبرشية، والأوامر تصدر منهم لهذه المؤسسات برعاية المرضى أو تعليم الأطفال.

بدأ اهتمام الرأي العام بهذا الموضوع، وعلى نطاق واسع، في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، ولقي الموضوع اهتماماً واسعاً في وسائل الإعلام، في كل من: فرنسا، ألمانيا، استراليا، كندا، أيرلندا، والولايات المتحدة، وبدأت بعدها حالات أخرى يتم التبليغ عنها بلدًا بعد آخر، وحصلت الانتهاكات حتى في قارات مختلفة، وفي بلدان عديدة.

إن الكثير من الفضائح تركزت حول تصرفات بعض الأفراد من رجال الدين الكاثوليك، الذين لم يتم الإبلاغ عن الجرائم الجنسية التي ارتكبوها إلى السلطات القانونية، بل على العكس من ذلك، فقد تم التستر عليهم، ونقل الجناة إلى أماكن أخرى، في خطوة من شأنها التغطية على الفضائح، وضمان عدم وصولها إلى السلطات القضائية، وبالتالي الإعلام، في حين أن ذلك تركهم على اتصال مع الأطفال، وبالتالي إتاحة الفرصة لهم لمواصلة الاعتداء الجنسي على هؤلاء الأطفال. وفي استجابة لهذه الفضائح، ادعى بعض الأساقفة، والأطباء النفسيين، أن علم النفس الحديث يشير إلى أنه من الممكن - في بعض الأحيان - أن يتم الشفاء من مثل هذا سلوك من خلال تقديم المشورة.

وعلى الرغم من أن الفضائح الجنسية والاعتداءات على الأطفال والقصر حدثت في كثير من الكنائس، لكن وقعها كان الأكبر على الكنيسة الكاثوليكية، فقد كانت الأكثر تضرراً من الفضائح التي تنطوي على العاملين فيها، الذين يمارسون الجنس مع الأطفال. وفي الولايات المتحدة الامريكية، على سبيل المثال، دفعت الكنائس أكثر من ٢ مليار دولار على سبيل التعويض المادي للضحايا. أما في أيرلندا مثلاً، فقد هزت تقارير الاعتداءات الجنسية رجال الدين الكاثوليك في أعلى قمة التسلسل الهرمي للكنيسة، والدولة، على حد سواء، مما أدى لاحقاً إلى استقالة الحكومة. كما قد كشفت دراسة حكومية دامت لمدة تسع سنوات (تقرير ريان، الذي نشر في مايو/ حزيران عام ٢٠٠٩م)، عن أن عمليات الضرب والإهانة من قبل الراهبات والقساوسة أو الكهنة، كانت حالة عامة في المؤسسات التي كانت ترعى ما يصل إلى ٣٠٠٠٠ طفل. وكشف التحقيق أن القساوسة الكاثوليك، والراهبات، وعلى مدى عقود، قاموا بـ"ترويع الآلاف من الفتيان والفتيات، في حين أن مفتشي الحكومة فشلوا في وقف مثل هذه الانتهاكات".

بلوغ الفضائح الجنسية حد العالمية:

كانت الشرارات الأولى التي أشعلت فتيل فضائح الاعتداء الجنسي على الأطفال في الكنائس، هي في: الولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من أن ادعاءات حالات الاعتداء الجنسي الكاثوليكية من قبل رجال الدين ترددت في كثير من البلدان الأخرى. والبلد الثاني من حيث عدد حالات الاعتداء الجنسي المكتشفة هو أيرلندا. إضافة إلى كثير من البلدان التي شهدت حالات اعتداءات جنسية كثيرة مماثلة أيضاً، منها في: أستراليا، ونيوزيلندا، وكندا، وبلدان في أوروبا، وأمريكا اللاتينية، وآسيا .

ففي عام ٢٠٠١ م، برزت قضايا رئيسية في الولايات المتحدة وأيرلندا أيضاً، والتي تزعم أن بعض الكهنة قد اعتدى جنسياً على أطفال قصر، وأن رؤساءهم قد تآمروا لإخفاء جرائمهم، خوفاً من الفضيحة التي قد تمس الكنائس، والتحريض على خلاف ذلك من سوء السلوك الإجرامي. وفي عام ٢٠٠٤م، وفي تقرير (جون جاي)، جدول هذا التقرير مجموعة من (٤٣٩٢) من القساوسة والكهنة والشمامسة، في الولايات المتحدة، من الذين ظهرت ضدهم مزاعم الاعتداء الجنسي. وعلى الرغم من أن الفضائح في الولايات المتحدة وأيرلندا تكشفت خلال ما يقرب من نفس الفترة الزمنية، لكن هناك بعض الاختلافات بينهما. ففي الولايات المتحدة مثلاً، كان معظم المعتدين من كهنة الرعية، ويقعون تحت السيطرة الأبرشية. في حين كان هناك أيضاً عدد كبير من الحالات التي تنطوي على اعتداءات على أطفال من قبل كهنة الرعية في أيرلندا. ولكن كانت آخر الفضائح الكبرى معنية بالاعتداءات الجنسية التي يرتكبها أعضاء الجماعات الدينية الذين يعملون في المؤسسات التي تديرها الكنيسة الكاثوليكية، مثل: د ورالأيتام، ومدارس الإصلاح. وفي الولايات المتحدة أيضاً، كانت الاعتداءات معظمها جنسية في المقام الأول، وكان ضحايا الاعتداءات الجنسية معظمهم من الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين ١١ و١٧ عاماً؛ أما في أيرلندا، فكانت الاعتداءات تنقسم إلى نوعين: اعتداءات الإيذاء البدني، واعتداءات الإيذاء الجنسي، وكان الضحايا من الأطفال من كلا الجنسين (ذكوراً وأناثاً)، ولكن الغالبية العظمى كانوا من الذكور.

وفي بيان قرأه رئيس الأساقفة (سيلفانو توماسي)، في أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٩م، ذكر الكرسي الرسولي "نحن نعلم الآن أنه في السنوات الـ(٥٠) الماضية، في مكان ما، شارك ما بين ١.٥٪ و٥٪ من رجال الدين الكاثوليك في حالات الاعتداء الجنسي-". مضيفاً: إن هذا الرقم مماثل بالمقارنة مع الجماعات والطوائف الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، ووفقاً لمجلة نيوزويك، فإن الرقم في الكنيسة الكاثوليكية هو مماثل لتلك الأرقام، مقارنة ببقية السكان البالغين. وفي المقابل - وفقاً لمجلة ذا إيكونومست – التي أشارت إلى أن ٤٥ من القساوسة والكهنة،

من مجموع ٨٥٠، في (مالطا)، اتهموا بالاعتداءات الجنسية، ووصفت المشكلة على أنها مشكلة "واسعة النطاق على نحو مخيف".

لذلك تم تكليف المؤتمر الأميركي للأساقفة الكاثوليك، المعرف اختصارا بـ (USCCB)، في عام ٢٠٠٤م، لإصدار تقرير (جون جاي)، واستناداً إلى الدراسات الاستقصائية التي تم إنجازها في الأبرشيات الكاثوليكية، في الولايات المتحدة، استخرجت معلومات من الملفات الموجودة عن كل كاهن في الأبرشيات، من المتهمين بالاعتداء الجنسي على الأطفال، والتفتيش عن جميع ضحايا الكهنة، في الشكل الذي لم يكشف عن أسماء المتهمين أو كهنة الأبرشيات التي يعملون فيها. كما شجع الأبرشيات لإصدار التقارير الخاصة بها، استناداً إلى الدراسات الاستقصائية التي أنجزت فيها. وأفاد الفريق أنه من خلال (١٠٦٦٧) شخصاً في الولايات المتحدة، ادّعوا أنهم ضحية الاعتداءات الجنسية، شملهم التحقيق في مزاعم الاعتداءات الجنسية على الأطفال، بين عامي ١٩٥٠م و٢٠٠٢م، الموجهة ضد (٤٣٩٢) من الكهنة (وهذا العدد يمثل حوالي ٤٪ من المجموع الكلي (١٠٩٦٩٤) للكهنة الذين عملوا خلال الفترة الزمنية التي تغطيها الدراسة). وحدثت ثلث هذه الاتهامات بين الأعوام ٢٠٠٢م و٢٠٠٣م، وثلث آخر بين عامي ١٩٩٣م و٢٠٠١م. وهكذا، وقبل عام ١٩٩٣م، إلا أن ثلث الحالات فقط كانت معروفة لمسؤولي الكنيسة"، كما يقول التقرير، من مجموع ادعاءات بلغ حوالي ١١,٠٠٠ ونيف، جرى التحقيق في ٦٧٠٠ حالة، ودعمت بالأدلة الدامغة وتم إثباتها ضد ١٨٧٢ من الكهنة أو القساوسة، وفي ١٠٠٠ حالة أخرى كانت غير مدعمة بالأدلة، ولم تثبت، موجهة ضد ٨٢٤ من الكهنة أو القساوسة. الحالات المتبقية ٣٣٠٠ حالة لم يتم التحقيق في الادعاءات بالاعتداءات الجنسية، لأن الكهنة أو القساوسة المتهمين كانوا قد ماتوا بحلول الوقت الذي قدمت هذه الادعاءات والاتهامات ضدّهم.

ويعتقد أن هذه الادعاءات كانت ذات مصداقية لـ(١٦٧١) من الكهنة أو القساوسة، ولم يكن موثوقاً بها بالنسبة لـ(٣٤٥) حالة أخرى. وتم الاتصال بالشرطة في حوالي (١٠٢١) من الحالات، بشأن هؤلاء الكهنة أو القساوسة. وقد أدت هذه التقارير كلها تقريباً إلى تحقيقات، وأدت (٣٨٤) من الحالات إلى توجيه اتهامات جنائية للكهنة المتوافرة معلومات عنهم، وأدين (٢٥٢) منهم، وخدم حوالي (١٠٠) على الأقل من هؤلاء فترة في السجن. ونسبة ٦٪ من جميع الكهنة الذين ظهرت اتهامات ضدهم، كانوا قد أدينوا، وحوالي ٢٪ حكم عليه بالسجن، حسب التقرير. وكان مجموع (٤٣٩٢) من الكهنة أو القساوسة، أو بنسبة ٥٦٪ منهم، متهمين بتهمة واحدة فقط. وما يقل قليلاً عن ٣٪ (أو ١٤٩ من الكهنة) كانوا متهمين بعشرة أو أكثر من هذه الاتهامات. وحوالي ٨١٪ من الضحايا كانوا من

الذكور، و٥١٪ ممن تتراوح أعمارهم بين ١١ و١٤ عاماً، و٢٧٪ بين الذين تتراوح أعمارهم من ١٥-١٧ عاماً.

واستناداً إلى إحصائيات قاعدة بيانات من ٣٠٠٠ من القساوسة المتهمين بارتكاب الاعتداء الجنسي، قالت جماعة BishopAccountability.org، في عام ٢٠٠٩م، أن ثلث الكهنة المسيئين في الولايات المتحدة لهم صلات بإيرلندا، اعتماداً على قاعدة البيانات هذه التي تشير إلى أن البعض منهم إما ولدوا في إيرلندا، أو ينحدرون من أصول إيرلندية، جاءوا إلى الولايات المتحدة.

ووافق البابا فرانيسس على مرسوم بتاريخ ١١ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٩م أصدره تكتل أهل العقيدة والإيمان، الذي حل محل محاكم التفتيش القديمة في روما، يقضي بفصل (ثيودور ماك كاريك) عن مهامه الدينية، وواجباته الكهنوتية، وهي أخطر عقوبة يمكن أن تلحق برجل دين.

وكان (ماك كاريك) قد فقد لقبه ككاردينال - كما تقول صحيفة ليبراسيون الفرنسية - قبل أن تثبت عليه عدالة الكنيسة تهمة الاعتداء الجنسي على القصر، واستخدامه سلطته الدينية لهذا الغرض. وقال الكاردينال (دانيي ديناردو)، كبير الأسقفية الأميركية: "لا يوجد أسقف فوق قانون الكنيسة".

وتقول (برناديت صوفاجي) - التي كتبت المقال في ليبراسيون - إن اللعنة التي أصابت (ماك كاريك) تنم عن الفوضى الكبيرة التي تتخبط فيها الكنيسة الكاثوليكية في أيامنا هذه. ففي فرنسا كشفت صحيفة (لوموند) أن السفير البابوي (لويجي فنتورا) متهم بالاعتداء الجنسي على شاب يعمل في بلدية باريس، ولم تحاول الكنيسة تحويله عن مكان عمله لتمكين القضاء من محاكمته.

وقد يدل هذا التصرف - بحسب الكاتبة- على تطور في موقف الكنيسة، لأنها كانت في السابق تحاول التستر على سلوك رجالها، كما حدث في ٢٠٠٢م، عندما غطى أسقف بوسطن الكاردينال (برنار لو) مئات الحالات من الاعتداء الجنسي- كما يظهر ذلك في القضية التي يرويها فيلم (سبوت لايت)- ولجأ هو نفسه إلى الفاتيكان للإفلات من القضاء الأميركي. وتضيف (صوفاجي): أنه بعد محاكمة الكاردينال (فيليب باربارية) الشهيرة، لتستره على الاعتداء الجنسي في قضية برينات، سُمح لفيلم (فرانسوا أوزون) - بقرار من العدالة - بالصدور في ٢٠ فبراير/ شباط ٢٠٢٠م، خاصة أنه يعالج مشكلة التكتم على الحقيقة، وصعوبة تحدث ضحايا العنف الجنسي.

ويقول (فرانسوا أوزون) لصحيفة (ليبراسيون): إنه لاحظ وجود إرادة قوية في التغيير لدى الكاثوليك، وإنه يجب على الكنيسة إجراء تغيير كبير من الداخل لتتخلص من هذه التهمة السيئة التي تلاحقها. وترى الصحيفة أن كتاب (سودوما) - وموضوعه الشذوذ الجنسي- لمؤلفه (فريدريك مارتل)، والذي نشر في عام٢٠١٩م، يكشف - هو الآخر - نفاق الكنيسة الكاثوليكية حول قضية المثلية. وكما يقول (هنري ثينك)، الكاتب الصحفي بصحيفة (لوموند) الفرنسية: "سيكون ذلك بمثابة قنبلة ذرية ضد البابا يوحنا بولس الثاني، وبنيديكتس السادس عشر".

وقالت الصحفية: إن البابا الحالي ظل قبل ربيع ٢٠١٨م يتمسك بموقف غامض من قضية الاستغلال الجنسي للأطفال، إذ منع إنشاء محكمة خاصة بالفاتيكان لمحاكمة الأساقفة الذين تستروا على قضايا اعتداءات جنسية، كما قام بحماية صديقه الكاردينال الأسترالي (جورج بيل)، المسؤول عن الشؤون المالية. وأوضحت الصحيفة: أن (فريدريك مارتل) -رغم أنه محاب جداً للبابا، ويعتبره البطل المناهض للاعتداء الجنسي على الأطفال- متهم لدى بعض الدوائر المتشددة الأميركية بأنه صديق للشواذ. وفي النهاية، تخلص الصحيفة إلى أن الكنيسة الكاثوليكية تمر بأزمة لم يسبق لها مثيل في العصر الحالي، متوقعة أن بقاءها في أوروبا الغربية مهدد، ولا سيما أنها منهارة أصلاً بفعل العلمانية.

وأعلن الفاتيكان رفضه تقديم أي معلومات إلى لجنة حقوقية أممية، عن التحقيقات الداخلية للكنيسة في الاعتداءات الجنسية على أطفال، من رجال دين. وقال: إن سياسته هي الحفاظ على السرية في مثل هذه الحالات. ورداً على سلسلة أسئلة وصفت بـ(الصعبة)، طرحتها لجنة الأمم المتحدة لحقوق الطفل، قال الكرسي الرسولي: إنه لن يصدر معلومات عن التحقيقات الداخلية في حالات الاعتداء، "إلا إذا تلقى طلباً بذلك من دولة، أو حكومة، للتعاون في الإجراءات القانونية".

وتهدف الأسئلة - التي طرحتها اللجنة - إلى تقييم التزام الكنيسة باتفاقية الأمم المتحدة لعام ١٩٩٠م بشأن حقوق الطفل، وهي معاهدة تضمن مجموعة كاملة من حقوق الإنسان للأطفال، وقّع عليها الكرسي الرسولي. وقال الفاتيكان: إن الإجراءات التأديبية الداخلية "غير متاحة للجمهور"، من أجل حماية "الشهود، والمتهمين، ونزاهة العملية الكنسية"، لكنه أضاف: إنه يجب احترام قوانين الدولة، بما في ذلك الالتزام بالإبلاغ عن الجرائم.

وأشار الكرسي الرسولي إلى أنه "يشعر بحزن عميق إزاء محنة الاعتداء الجنسي". وأكد أنه غيّر شروط قبول المرشحين للكهنوت، وطور القانون الكنسي، وطالب مؤتمرات الأساقفة

بوضع المبادئ التوجيهية لمكافحة الاعتداء. ولفت الأنظار إلى أنه لا يمكن إلقاء المسؤولية على الفاتيكان عن تصرفات المؤسسات أو الأفراد الكاثوليك حول العالم. وقال: إن الأساقفة المحليين يتحملون المسؤولية عن ضمان حماية الأطفال. (المصدر: وكالة رويتر، في ٢٠١٣/١٢/٤).

الدول المتهمة بالاعتداءات الجنسية:

أولاً: إيرلندا

ابتداء من تسعينيات القرن العشرين، ظهرت سلسلة من القضايا الجنائية، وتحقيقات قامت بها الحكومة الأيرلندية، تناولت اتهامات بشأن كهنة اعتدوا جنسياً وجسدياً على مئات من القصر، على مدى العقود السابقة. وقد حدث في كثير من الحالات أن تم نقل الكهنة المسيئين، من قبل رجال دين كبار، إلى الأبرشيات الأخرى، لتجنب الفضيحة. وبحلول عام ٢٠١٠م تم نشر عدد من التقارير القضائية المتعمقة بهذا الموضوع، ولكن مع عدد قليل نسبياً من الملاحقات القضائية. وتم الإقرار بأن الاعتداءات كانت معروفة من قبل موظفين في وزارة التربية والتعليم، والشرطة، وهيئات حكومية أخرى، والذين دافعوا عن مواقفهم بالقول إن الملاحقة القضائية لرجال الدين الكاثوليك كانت صعبة للغاية، نظراً لما أسموه ب"الروح الكاثوليكية "Catholic ethos" "للجمهورية الأيرلندية .

وفي عام ١٩٩٤م استقال (مايكل ليدوذ)، الذي كان رئيساً لكلية سانت باتريك، في (ماينوث)، عندما خرجت هذه المزاعم بالاعتداءات الجنسية إلى العلن. وفي يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٥م صرح (دينيس مكولوغ) أن عدداً من الأساقفة قد رفضوا المخاوف بشأن السلوك غير الملائم لـ(مايكل ليدوذ) نحو اللاهوتيون "تماما بذلك، وذلك بشكل مفاجئ، دون أي تحقيق مناسب"، على الرغم من أنه اعترف بتقريره أن "التحقيق على وجه كامل أو كبير جداً، أو أي شكوى عامة بشأن ميول شخص ما على ما يبدو، كان صعباً".

ومن الجدير بالذكر، أن واحدة من أكثر الحالات المشينة للانتهاكات الجنسية في أيرلندا، هي قضية القس (برندان سميث)، الذي قام بين الأعوام ١٩٤٥م و١٩٨٩م، بالاعتداء الجنسي، والاعتداء غير الأخلاقي، على العشرات من الأطفال، في الأبرشيات، في بلفاست ودبلن والولايات المتحدة. وقد أدى الجدل حول التعامل مع قضية تسليم ألقس (برندان سميث) إلى أيرلندا الشمالية، إلى انهيار حكومة العمل الائتلافية (فيانا فيل) في عام ١٩٩٤.

وواجه البابا الألماني (بنيديكتس السادس عشر) موجة من الانتقادات اللاذعة بسبب اتهام للكنيسة بأنها تسترت على الاعتداءات خوفاً من الفضيحة. وذكرت صحيفة (نيويورك

تايمز)، نقلاً عن مصادر ووثائق حصلوا عليها من الكنيسة، أن أحد القساوسة قام بالاعتداء الجنسي على حوالي ٢٠٠ من الأطفال المصابين بمرض الصمم. وقد قامت قبل مدة من هذا الزمن جماعات الدفاع عن ضحايا هذه الاعتداءات، بتوجيه انتقادات أيضاً لرسالة البابا التي قدمها للضحايا بالاعتذار عن هذه الاعتداءات الجنسية. وقد أشار البابا، في هذه الرسالة، إلى عقود من الزمان من الاعتدءات الجنسية التي قام بها رجال دين وقساوسة في أيرلندا، ودول أخرى. ومن الجدير بالذكر أنها أول رسالة علنية من نوعها يرسلها البابا، وقد تضمنت الرسالة اعتذار البابا، وقد قال فيها بالنص: (لقد عانيتم كثيراً، وأنا آسف حقاً).

وفي عام ٢٠٠٦م انتجت هيئة الإذاعة البريطانية فيلماً وثائقياً بعنوان (جرائم الجنس والفاتيكان)، تم إنتاج الفيلم الوثائقي من قبل ضحايا الاستغلال الجنسي- من قبل رجال الدين الكاثوليك، وتضمن الفيلم الوثائقي الادعاءات الواردة والموجهة ضد الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان، بأن جميع مزاعم الاعتداءات الجنسية تم إرسالها إلى الفاتيكان بدلاً من السلطات المدنية المختصة بهكذا حالات من الاعتداءات الجنسية، أو الشرطة. وأن الفاتيكان أصدرت مرسوماً كنسياً، وبمنتهى السرية، تم تسميته باللاتينية Crimen): (sollicitationisوتعني جريمة التحريض، أو إلاغواء، الذي يفرض على الطفل الضحية، ويحلف بيمين سري، وكذلك الكاهن المتعامل مع هذه المزاعم، وكذلك شهود العيان، إن وجدوا، ويقوم جميعهم بأداء القسم أو اليمين السرية هذه، قبل التعامل مع هذه القضايا. وأن العقوبة على كسر هذا القسم شديدة، وتعني النفي الفوري من الكنيسة الكاثوليكية (الطرد).

اقتبس الفيلم الوثائقي عبارة من تقرير فرنس لعام ٢٠٠٥م، يقول فيه: "إن ثقافة السرية والخوف من الفضيحة هي التي أدت بالأساقفة إلى وضع مصالح الكنيسة الكاثوليكية قبل سلامة الأطفال". أما المحامي الكنسي (توماس دويل)، والذي أدرج في الفيلم الوثائقي من أجل دعم الصورة التي كانت قد قدمت في الوثائقي، وكتب في وقت لاحق، فيما يتعلق بجريمة التحريض أو الإغواء (باللاتينية Crimen sollicitationis) عام ١٩٦٢م، ورسالة على الجرائم الأكثر خطورة (باللاتيني: (Crimen sollicitationis)عام ٢٠٠١، وتحقيقات الكنيسة الرسمية في اتهامات الاعتداءات الجنسية، قال: إنه "لا يوجد أساس لافتراض أن الكرسي الرسولي تصور هذه العملية لتكون بديلاً عن أي عملية قانونية علمانية، أو جنائية، أو مدنية. وهو أيضاً غير صحيح أن نفترض، كما فعل البعض للأسف، أن هاتين الوثيقتين من الفاتيكان هي دليل على وجود مؤامرة لإخفاء الاعتداءات الجنسية للقساوسة، أو للحيلولة دون الكشف عن الجرائم الجنسية التي يرتكبها رجال الدين، إلى السلطات

العلمانية". ومع ذلك، فقد قال المحامي الكنسي (دويل)، بعد ذلك بعامين، في عام ٢٠٠٨م، عن المحاولات لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية بأنها كانت مثل: "المشي- من خلال أفضل ما يمكن وصفه بأنه مستنقع من النفايات السامة". وقال إن الكنيسة كانت ترفض تسليم المعلومات إلى السلطات المدنية، حول التحقيقات الكنيسة الخاصة في التهم الموجهة إلى العاملين فيها.

وقد ذكر (ريك روملي Rick Romley)، في الفيلم الوثائقي للبي بي سي، وهو محامي المقاطعة، الذي بدأ تحقيقاً في الأبرشية الكاثوليكية في (فينيكس): أن "السرية، والعرقلة، التي رأيتها أثناء التحقيق لم يسبق لي أن واجهت مثيلاً لها في حياتي المهنية كلها... ومن الصعب الحصول على أي معلومات من الكنيسة على الإطلاق". وأفاد أن المحفوظات من الوثائق والأدلة المتعلقة بجرائم الاستغلال الجنسي- التي تم إخفاءها عن السلطات، لا يمكن استدعائها بموجب القانون. "إن الكنيسة ليس فقط فشلت بالإقرار أن هذه مشكلة خطيرة، ولكن أكثر من ذلك، ولكنه ليس التخاذل أيضاً، ولكنها كانت طريقة معرقلة علنية لمنع السماح للسلطات بمحاولة وقف الاعتداءات الجنسية التي تجري داخل الكنيسة. قاتلونا في كل خطوة في الطريق".

ثانياً: الولايات المتحدة الامريكية:

استند تقرير (جون جاي) لعام ٢٠٠٤م، على دراسة في الاتهامات، وعددها (١٠٦٦٧) حالة، وهي موجهة ضد (٤٣٩٢) من القساوسة المتهمين بالتورط في الاعتداءات الجنسية على الأطفال، بين عامي ١٩٥٠م و٢٠٠٢م. رقم (٤٣٩٢) يمثل أربعة في المئة من عدد الكهنة (١٠٩٦٩٤) المتورطين خلال تلك الفترة. ما يقرب من (٥٦) في المئة لديهم اتهام واحد مبلغ عنه ضدهم؛ و (٢٧) في المئة لديهم اثنين أو ثلاثة من التهم الموجهة إليهم، وكان ما يقرب من ١٤ في المئة عندهم أربعة أو تسعة من الادعاءات ضدهم؛ ٣ % (١٤٩ من القساوسة) كان ضدهم ١٠ أو أكثر من الادعاءات. وكان هؤلاء القساوسة الـ ١٤٩ مسؤولون عن ما يقرب من ٣٠٠٠ اعتداء جنسي، أو حوالي ٢٧٪ من هذه الادعاءات.

وكانت ادعاءات كثيرة عن (١٨٧٢) من القساوسة قد أكدت، في حين لم تؤكد هذه الادعاءات ضد (٨٢٤) منهم. كما ويعتقد أن هذه الأحكام ذات مصداقية لـ (١٦٧١) من القساوسة، وليس موثوقاً بها، أو ليست ذات مصداقية لـ (٣٤٥) من القساوسة. وكذلك (٢٩٨) من القساوسة، والشمامسة، الذين كانوا قد تم تبرئتهم تماماً، لم يكونوا مدرجين في الدراسة. وكانت أعمار ٥٠ % من الذين وجهت إليهم الاتهامات بالاعتداءات الجنسية

حوالي ٣٥ سنة، أو أصغر سناً، حين حدوث الاعتداءات. وقد تم ترسيم هؤلاء الكهنة، أو تعيين تقريباً ٧٠% منهم، قبل عام ١٩٧٠م.

وقد أبلغ أقل من ٧% منهم أنهم أنفسهم كانوا ضحايا للإيذاء البدني والجنسي- أو العاطفي، عندما كانوا أطفال. وعلى الرغم من أن ١٩% منهم، كان عندهم مشكل تعاطي الكحول، أو تعاطي المخدرات، أقر ٩ % فقط منهم أنه تم استخدام المخدرات أو الكحول خلال حالات الاعتداءات الجنسية. وقد كان هناك ما يقرب من ١٠٦٦٧ طفل أو قاصر من ضحايا الاعتداءات الجنسية من قبل رجال الدين خلال هذه الفترة:

نحو ٨١% من هؤلاء الضحايا كانوا من الذكور.

وكان ٢٢.٦٪ منهم أعمارهم ١٠ سنوات أو أقل.

وكانت ٥١٪ منهم ممن تتراوح أعمارهم بين ١١ و١٤ سنة.

وكان ٢٧٪ مهنم ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و١٧ سنة.

وكان عدد كبير (حوالي ٢٠٠٠) من الأطفال الصغار جداً، وكانوا ضحايا للكهنة خلال هذه الفترة الزمنية.

وكانت استطلاعات لـ ٩٢٨١ من الضحايا، من الذين يحملون معلومات حول التحقيق، أوضحت أن في ٦٦٩٦ (٧٢ ٪) من الحالات، تم إجراء تحقيق في الادعاءات التي نفذت. ومن بين هؤلاء ٤٥٧٠ (٨٠ ٪) قد تم إثباتها؛ ١٠٢٨ (١٨ ٪) كان لا أساس لها، أو لم يكن يوجد دليل إدانة، وكان ٨٣ (١.٥ ٪) حالة اعتبرت حالات كاذبة. وفي ٥٦ قضية، تم الإبلاغ عن أن القساوسة نفوا هذه الادعاءات.

واعتبر أكثر من ١٠% من هذه الادعاءات أنها غير مثبتة (وهذا لا يعني أن هذا الادعاء غير صحيح، بل يعني فقط أنهم لم يتمكنوا من تحديد ما إذا كان الاعتداء المزعوم قد حصل فعلاً، أي فقدان الدليل الكافي للإدانة).

وفي ما يقرب من ٢٠% من الادعاءات، كان القس أو الكاهن إما متوفى، أو غير نشط، في وقت تلقي هذا الادعاء، أو الاتهام، ولا يجري أي تحقيق في العادة في مثل هذه الظروف.

وفي ٣٨.٤٪ من الادعاءات، تم الادعاء أن الاعتداء وقع في غضون عام واحد، و٢١.٨٪ من الاعتداءات استمرت أكثر من عام، ولكن أقل من ٢ سنة. و ٢٨٪ من الاعتداءات دامت لفترة بين ٢ و٤ سنوات، و ١٠.٢٪ من الاعتداءات دامت لفترة بين ٥ و٩ سنوات، وأقل من ١٪ قد دامت الاعتداءات لمدة ١٠ سنوات أو أكثر.

وكان كثير من الاعتداء الجنسية التي تم الإبلاغ عنها، تتراوح بين اعتداء جنسي، أو اعتداء مداعبة، أو غير محدد. وكان هناك أيضاً عدد كبير من ادعاءات الاعتداءات الجنسية أكثر

خطورة، بما في ذلك أعمال الجنس عن طريق الفم، والجماع. كما ولم يتم الإبلاغ عن معلومات مفصلة عن طبيعة أو نوع الاعتداء الجنسي في ٢٦.٦٪ من الادعاءات المبلغ عنها. وقد كانت ٢٧.٣٪ من حالات الاعتداء قام بها القساوسة بممارسة الجنس الفموي مع الضحية. كما وشملت ٢٥.١ ٪ من حالات الاعتداء إدخال للقضيب، أو محاولة إدخال.

وعلى الرغم من أن هناك تبليغاً عن أعمال الاعتداءات الجنسية على القاصرين والأطفال في كل عام، كان حدوث الاعتداءات متزايداً، وبشكل ضخم، في الرهبانيات، في فترات الستينات والسبعينات من القرن العشرين. وقد كان هناك، على سبيل المثال، أكثر من ستة أضعاف زيادة في عدد الاعتداءات الجنسية الواقعة على الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ١١-١٧ سنة، في الفترات بين الخمسينات والسبعينات. وبعد بلوغ الذروة في فترة السبعينات، كان عدد الحوادث انخفض خلال الثمانينات والتسعينات بشكل أكثر حدة من نسبة حدوث الزيادة في الستينات والسبعينات.

الولايات المتحدة الأمريكية والتسويات، وحالات الإفلاس، والإغلاق:

وفقا لـ(دونالد كوزنس)، "بحلول نهاية منتصف التسعينات من القرن العشرين، كان يقدر أن أكثر من نصف مليار دولار قد تم دفعها كتعويضات في هيئة المحلفين، وكإجراءات تسوية، ورسوم قانونية. وازداد هذا الرقم إلى نحو مليار دولار، بحلول عام ٢٠٠٢م. أنفق الروم الكاثوليك ٦١٥ مليون دولار على حالات الاعتداء الجنسي في عام ٢٠٠٧م حصراً .

وفي مارس/ آذار عام ٢٠٠٦م، وفي الأبرشيات الأمريكية التي ارتكبت فيها الاعتداءات الجنسية، تمت تسوية الدعاوى والشكاوى خارج المحكمة، حيث قدمت تسويات مالية للضحايا، بلغ مجموعها أكثر من ١.٥ مليار دولار. وبسبب العدد والحجم الهائل لهذه التسويات، أصبح من الضروري للعديد من الأبرشيات الحد من نفقاتها التشغيلية العادية؛ عن طريق إغلاق الكنائس، والمدارس، من أجل جمع الأموال اللازمة لدفع هذه المبالغ التعويضية. في حين اختار العديد من الأبرشيات إعلان الفصل ١١ من قانون الإفلاس، كوسيلة لمقاضاة التسويات، وفي نفس الوقت لحماية بعض الأصول للكنيسة، للتأكد من استمرارية عملها.

وبحلول عام ٢٠٠٩م، دفعت أبرشيات الولايات المتحدة أكثر من ٢.٦ مليار دولار أمريكي كتكاليف لدعاوى متصلة بالاعتداءات الجنسية التي حصلت فيها، ومنذ عام ١٩٥٠م. وفي كثير من الحالات، أجبرت الأبرشيات على إعلان إفلاسها، نتيجة لعمليات التسوية. في حين

سعت ما لا يقل عن ستة من الأبرشيات الأمريكية للحماية من الإفلاس. أما في بعض الحالات، وكخطوات استباقية، فقد أقدمت بعض الأبرشيات على إشهار الإفلاس قبل إقامة الدعاوى المدنية ضدهم، عندما كانت هذه الدعاوى على وشك، أو في طريقها للذهاب إلى المحكمة. وكان لهذا أثره في إقامة الوصاية، وذلك ريثما تتم تسوية الدعاوى القضائية المقبلة في محكمة الإفلاس.

منذ الخمسينات، كانت هناك مناقشة عامة ضئيلة عن المشكلة، وحتى منتصف الستينات، وحتى ذلك الحين، عقدت أكثر الحوارات على مستوى عالٍ من التسلسل الهرمي الكاثوليكي، مع تغطية ضئيلة أو معدومة في وسائل الإعلام. وجرت المناقشة العلنية الأولى للاعتداءات الجنسية على الأطفال، من قبل الكهنة أو القساوسة، في اجتماع عقد برعاية الرابطة الوطنية لتجديد الرعوية، التي عقدت في حرم جامعة (نوتردام)، في العام ١٩٦٧م، والتي دعت فيها جميع الأساقفة الكاثوليك في الولايات المتحدة الامريكية. وعقدت العديد من المناقشات المحلية والإقليمية لهذه المشكلة من قبل الأساقفة الكاثوليك في السنوات اللاحقة. ومع ذلك، لم يحدث الاهتمام الإعلامي حتى الثمانينات من القرن العشرين، بمناقشة الاعتداء الجنسي من قبل رجال الدين الكاثوليك. وبدأت تغطيتها بوصفها ظاهرة في وسائل الإعلام في الولايات المتحدة، بعد ذلك التاريخ. ووفقاً لوكالة الأنباء الكاثوليكية، بدأ ظهور الوعي العام للاستغلال الجنسي للأطفال، في الولايات المتحدة، وكندا، في أواخر السبعينيات والثمانينيات، كثمرة لتزايد الوعي عن الإيذاء الجسدي للأطفال .

وفي عام ١٩٨١م أقر الأب (رومر دونالد)، من أبرشية لوس أنجلوس، بأنه مذنب في الاعتداء الجنسي الإجرامي على قاصر. وحظيت هذه القضية على نطاق واسع من التغطية الإعلامية، في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣م، عندما نشر مراسل الكاثوليكية الوطنية مقالاً حول هذا الموضوع. واكتسب هذا الموضوع سمعة سيئة على نطاق قومي أوسع، في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٨٥م، عندما أقر قس لويزيانا (جيلبرت جاوثة Gilbert Gauthe) بأنه مذنب في ١١ تهمة تحرش جنسي- على الأولاد الصغار أو القصر. بعد أن بدأت تغطية قضية القس (جيلبرت) تهدأ، تراجعت القضية، وبدت على هامش اهتمام الرأي العام، حتى منتصف التسعينات، عندما تم طرح هذه القضية مرة أخرى إلى الاهتمام الوطني، بعد عدد من الكتب التي نشرت حول هذا الموضوع.

وفي أوائل عام ٢٠٠٢م حصلت (بوسطن غلوب) على (جائزة بوليتزر) لتغطية حالات الاعتداء الجنسية التي قام بها القساوسة الكاثوليك على الأطفال. فقد كانت الصحيفة

ألأولى التي لفتت انتباه العالم لهذه الجرائم، وكانت الرائدة في هذا المجال في الولايات المتحدة أولاً، وفي العالم ككل.

ونشرت الكنيسة الكاثوليكية الأميركية أسماء ثلاثمائة كاهن، في أبرشيات تكساس، متهمين بارتكاب اعتداءات جنسية على أطفال، منذ عام ١٩٥٠م، مواصلة بذلك عملية الشفافية التي أطلقتها في هذا الإطار. وبعد ولايتي واشنطن وإلينوي، نشرت الأبرشيات الـ١٥ في ثاني أكبر الولايات الأميركية في عدد السكان، أسماء الكهنة الذين استهدفوا "باتهامات تتمتع بالصدقية بشأن اعتداءات جنسية على قاصرين". ونشرت أبرشية سان أنطونيو ٥٧ اسماً، وهيوستن ٤٢، ودالاس ٣١، وبعض الأسماء تكررت على اللوائح، لكن في المجموع نشرت أسماء نحو ثلاثمائة كاهن، توفي عدد كبير منهم. وقد قدم رئيس مجمع الأساقفة الأميركيين الاعتذار إلى الضحايا، وأهاليهم، قائلاً: "باسم جميع الذين أخفقوا في القيام بذلك، أوجه اعتذاراتي الصادقة إلى الضحايا"، مضيفاً: إن "كنيستنا تضررت بهذا الجرح، وعلينا التحرك لمعالجته".

وكانت سلسلة مقالات بشأن تجاوزات وقعت في (بوسطن)، لعقود، قد هزت في ٢٠٠٢م الكنيسة الكاثوليكية، ودفع كشف هذه القضايا العديد من الضحايا إلى التحدث في جميع أنحاء البلاد، ومنذ ذلك الحين أقصي عدد من الكهنة من الكنائس، وتمت ملاحقتهم أمام القضاء، كما دفعت الكنيسة مبالغ كبيرة لعدد من الضحايا .

وخلال صيف عام ٢٠١٨م وجه مكتب النائب العام في (بنسلفانيا) ضربة جديدة إلى الكنيسة، بعدما نشر تفاصيل تجاوزات ارتكبها أكثر من ثلاثمئة كاهن في هذه الولاية، ضد أكثر من ألف طفل. وفتح القضاء تحقيقات في عدد من الولايات، في حين رفعت أبرشيات عدة السرية عن أرشيفها. لكن كثيرين يتساءلون عن قيمة اللوائح التي تنشر. وفي نهاية ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠١٨م، اتهمت المدعية العامة في (إلينوي)، رجال الدين في الولاية، بنشر لائحة لا تتضمن "الاتهامات الموجهة إلى خمسمائة كاهن على الأقل".

الوعي العام الدولي:

وعلى الرغم من أن إجراء التحقيقات الضخمة، وعلى مستوى البلاد، تم في الولايات المتحدة وأيرلندا فقط، في البداية، لكن حالات الاعتداء الجنسي- على الأطفال والقاصرين من قبل الكهنة قد تم التبليغ عنها، وإجراء محاكمات، في كل من: أستراليا، ونيوزيلندا، وكندا، وبلدان أخرى. وقد حصلت في عام ١٩٩٤م اتهامات بالاعتداءات الجنسية على الصغار ضد ٤٧ من اللاهوتيين في الأرجنتين. وفي عام ١٩٩٥ استقال المطران (هانز هيرمان

غروير) من منصبه كرئيس أساقفة فيينا (= النمسا)، بسبب اتهامات بالإساءة جنسياً لأطفال ورهبان، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل في منصب كاردينال.

ونشرت منظمة الأمم المتحدة، عام ٢٠١٤م، تقريراً حول حالات التحرش الجنسي بالأطفال في الكنيسة الكاثوليكية. وجاء في التقرير، أن الفاتيكان يقوم بالتستر على قضايا التحرش الجنسي في الكنائس الكاثوليكية في الكثير من الدول حول العالم. وحسب دراسة أجراها معهد (جون جاي)، التابع لمؤتمر كبراء الأساقفة الكاثوليك في الولايات المتحدة، عام ٢٠٠٤م، فقد تعرض ١٠ آلاف و٦٦٧ طفلاً للتحرش الجنسي، من قبل أكثر من ٤ آلاف راهب كاثوليكي، ما بين عامي (١٩٥٠م -٢٠٠٠م).

ثالثاً: استراليا:

وفي أستراليا، ومنذ ١٩٩٥م أدين أكثر من مائة قسيس، من مختلف مناطق استراليا، بالاعتداء الجنسي على الأطفال أو القصر. وفي ٧ أبريل/ نيسان عام ٢٠١٠م، تم الكشف عن اعتراف المطران السابق للكنيسة الكاثوليكية النرويجية (جورج مولر)، إلى الشرطة النرويجية، في أوائل يناير/ كانون الثاني عام ٢٠١٠م، إلى أنه قد اعتدى جنسياً على صبي قاصر قبل ٢٠ عاماً. وكانت الكنيسة الكاثوليكية النرويجية على علم بالحادث، ولكن لم تنبه السلطات الحكومية إلى ذلك. وقد أجبر المطران (جورج مولر) على التنحي من أسقفية الكنسية في يوليو/ تموز عام ٢٠٠٩م. وكرد فعل على هذا الخبر، اعترف أسقف أوسلو: (بيرنت أيدسفك Bernt Eidsvig)، لوكالة الأنباء النرويجية، أنه كان على علم بمجموع أربع حالات من استغلال الأطفال جنسياً، في الكنيسة الكاثوليكية النرويجية.

وفي السياق نفسه، فقد أعلنت محكمة أسترالية، في ٢٠١٩/٢/٢٦م، أن الكاردينال (جورج بيل) ، ثالث أكبر مسؤول في الفاتيكان، أدين بالاعتداء جنسياً على أطفال في أستراليا، ليصبح بذلك أرفع مسؤول في الكنيسة الكاثوليكية يدان بارتكاب جرائم جنسية بحق قاصرين. وقالت محكمة (ملبورن) (جنوب) إن الكاردينال البالغ من العمر ٧٧ عاماً أدين بالاعتداء جنسياً على طفلين كانا عضوين في جوقة الإنشاد الديني في كاتدرائية ملبورن، في تسعينيات القرن الماضي، وكان عمرهما يومها ١٢ و١٣ عاماً.

وكان كبير أساقفة أستراليا دفع ببراءته من هذه التهم، خلال محاكمة أولى انتهت في سبتمبر/أيلول ٢٠١٨م، من دون أن تتوصل هيئة المحلفين إلى قرار بشأن إدانته، أو تبرئته، الأمر الذي استدعى إجراء محاكمة ثانية انتهت في ١١ ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠١٨م بإدانته. ويومها أمر القاضي بحظر النشر في هذه القضية، حماية لأعضاء هيئة محلفين أخرى تم تشكيلها للنظر في قضية ثانية، كان مفترضاً أن يحاكم فيها الكاردينال (بيل)، لكن

النيابة العامة صرفت في نهاية المطاف النظر عن هذه المحاكمة الثانية، الأمر الذي دفع القاضي لرفع حظر النشر في القضية.

وكان الكاردينال (بيل) أخذ إجازة من مهامه في الفاتيكان، لكي ينصرف للدفاع عن نفسه، لكنه لا يزال رسميا وزير اقتصاد الكرسي الرسولي، وهو ثالث أعلى منصب في دولة الفاتيكان.

رابعاً: كندا:

كان عدد حالات الاعتداءات الجنسية في الولايات المتحدة هائلاً، ولذلك فقد تركز اهتمام الرأي العام على ذلك البلد. وفي السياق نفسه، كانت هناك فضائح على نطاق أصغر في (كندا)، منذ أكثر من عقد من الزمان قبل الفضائح التي حدثت في الولايات المتحدة. ففي أواخر الثمانينات ظهرت مزاعم بالاعتداءات الجسدية والجنسية والتي ارتكبها أفراد من منظمة الأخوة المسيحيين، الذين كانوا يديرون داراً للأيتام في جبل كاشل، في سانت جونز، نيوفاوندلاند. وقد تواطأت الحكومة، والشرطة، والكنيسة، في محاولة فاشلة للتغطية على هذه الفضائح، ولكن في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٨٩م، نشرت صحيفة (سانت جون صنداى اكسبريس) الفضائح على العلن، مما حال دون إمكانية التغطية عليها. مما شجع - في نهاية المطاف - أكثر من ٣٠٠ تلميذ سابق، أن يقدموا شكاوى في تعرضهم للاعتداء الجسدي والجنسي في دار للأيتام هذه. وقام النظام الديني الذي كان يدير دار الأيتام بإشهار الإفلاس، لكي يواجه دعاوى قضائية عديدة. ومنذ الكشف عن فضيحة جبل كاشل، تم اتهام لفيف من الكهنة، في جميع أنحاء كندا، بتهمة الاعتداء الجنسي على الأطفال والقصر.

خامساً: بلجيكا:

أما في بلجيكا، فقد داهمت الشرطة البلجيكية في يونيو/حزيران عام ٢٠١٠م، مقر الكنيسة الكاثوليكية البلجيكية في بروكسل، وقامت بمصادرة جهاز كمبيوتر، وسجلات لجنة التحقيق بالاعتداءات الجنسية على الأطفال التابعة للكنيسة. وحققت السلطات في اتهامات بشأن بعض رجال الدين البلجيكي، الذين قاموا بالاعتداءات الجنسية على الأطفال. وقد أثيرت مئات من هذه الادعائات منذ نيسان/أبريل عام ٢٠١٠م، عندما أقر أسقف برجز المدعو (الأسقف روجر فانجيلوي Roger Vangheluwe) بجريمته باعتدائه على صبي، ثم استقال بعدها. وذكرت تقارير أن الفاتيكان أقر بأنه (ساخط)، وغير راضٍ على تلك المداهمات، مدّعياً أنها أدت إلى (انتهاك السرية) للضحايا، وهم على وجه التحديد الذين نفذت المداهمات من أجلهم.

وفي يوليو/ تموز عام ٢٠١٠م، ذكرت الشرطة البلجيكية أنها تحقق في شكاوى بتهديدات بالقتل ضد الشهود، وقضاة التحقيق. وفي عام ١٩٩٨م ذكر أن في كتاب تعليم مسيحي يُدعى (رويج ٣ Roeach 3)، تم تأليفه من قبل رجل دين مسيحي من بلجيكا، يشير إلى أن ممارسة الجنس مع الأطفال - كما يزعم - مقبولة داخل الكنيسة.

وخارج دوائر الكنيسة، فإن معظم حالات الاعتداء الجنسي تخضع لقانون كل دولة. ولحد نيسان/أبريل عام ٢٠١٠، تم إدانة العديد من مرتكبي الاعتداءات الجنسية المرتبطة بالكنيسة، في العديد من البلدان، وقد حوكموا من قبل السلطات العلمانية، وعند الاقتضاء، أدينوا، وحكم عليهم بالسجن.

سادساً: ألمانيا:

وفقا لمجلة الإيكونومست، وسيدني مورنينغ هيرالد، فإن الكثير من الكاثوليك يهجرون الكنيسة في ألمانيا، بسبب فضائح الاعتداءات الجنسية، حيث وصل عدد التاركين للكنيسة في شهر واحد من عام واحد، إلى ٤٧٢، في أبرشية ميونيخ، منذ بداية عام ٢٠١٠. بالإضافة إلى ذلك، تراجع الألمان عن الثقة ببابا الفاتيكان إلى حد كبير. وفي نهاية آذار/مارس عام ٢٠١٠م أصبح ٣٩٪ فقط من الألمان الكاثوليك يثقون بالبابا، في حين كانت النسبة ٦٢٪ في يناير/ كانون الثاني عام ٢٠١٠م.

وبعد فضيحة الاعتداءات الجنسية التي ضربت الكنيسة الكاثوليكية، عندما كُشف أن قرابة ٤ أربعة آلاف طفل تم الاعتداء عليهم جنسياً منذ عام ١٩٤٦م، طلب رئيس أساقفة ميونيخ (راينهارد ماركس) الإعفاء من مهامه بسبب (الفشل المؤسساتي).

وأعلن رئيس أساقفة ميونيخ (راينهارد ماركس) أنه طلب من البابا (فرنسيس) إعفاءه من مهامه، معترفا بـ (فشل) الكنيسة الكاثوليكية في (كارثة الاعتداءات الجنسية) داخل المؤسسة. وقال الكاردينال (ماركس)، الرئيس السابق لمؤتمر الأساقفة الألمان، في رسالة بعث بها إلى البابا: "بالنسبة لي، يتعلق الأمر بشكل أساسي بتقاسم المسؤولية عن كارثة الاعتداءات الجنسية التي ارتكبها مسؤولون في الكنيسة في العقود الأخيرة".

وأوضح أنه يدين، في رسالته المؤرخة في ٢١ أيار/مايو عام٢٠٢٠م، ونشرتها أبرشية ميونيخ: "فشل المؤسسة، أو النظام" في هذه الفضيحة الواسعة التي عصفت بالكنيسة الكاثوليكية الألمانية. وأضاف: إن التحقيقات والتقارير "أظهرت باستمرار حصول العديد من الإخفاقات الشخصية، والأخطاء الإدارية، وأيضا الفشل المؤسساتي، أو المنهج". وانتقد الكاردينال الزملاء الذين "يرفضون الاعتراف بأن هناك مسؤولية مشتركة في هذا الصدد"، مضيفاً: إن الكنيسة تواجه "طريقاً مسدوداً". وآمل أن تكون استقالته مؤشراً لبداية جديدة للكنيسة..

وأظهر استطلاع، جاء في فحواه أن ثلث الرهبان الكاثوليك بألمانيا متهمون بانتهاكات للأطفال. وفي السنوات القليلة الماضية هزت الكنيسة الكاثوليكية الألمانية تقارير كشفت عن مدى الاعتداءات الجنسية التي ارتكبها رجال دين بحق أطفال. وأظهر تقرير نشر في ٢٠١٨م، بتكليف من مؤتمر الأساقفة الألمان، خلال رئاسة ماركس، أن ١٦٧٠ رجل دين ارتكبوا اعتداء جنسياً ما بحق ٣٦٧٧ قاصراً، غالبيتهم صبيان، بين الأعوام ١٩٤٦م و٢٠١٤م. لكن معدي التقرير قالوا إنه من شبه المؤكد أن العدد الفعلي للضحايا أعلى بكثير.

وفي شهر ديسمبر/ كانون الأول عام٢٠٢٠م، أرسل البابا موفدَين إلى (أبرشية كولونيا)، للتحقيق بشأن "أخطاء محتملة"، في ردها على التقارير عن الاعتداءات الجنسية بحق أطفال.

و اعتذر (ماركس)، المعروف بأنه من الداعين البارزين لإدخال إصلاحات، نيابة عن الكنيسة، لضحايا الاعتداءات الجنسية. وفي نيسان/ أبريل الماضي امتنع عن قبول وسام استحقاق جمهورية ألمانيا الاتحادية، وسط انتقادات من مجموعات تمثل الضحايا، لرد الكنيسة على الفضائح.

سابعاً: فرنسا:

لقد شكل مجلس أساقفة فرنسا الكاثوليكي مجلساً تحقيقياً في انتهاكات جنسية بالكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، واستند المجلس في ديباجة القرار إلى أن آلاف الأطفال كانوا ضحايا انتهاكات ارتكبها رجال دين كاثوليك منذ عام ١٩٥٠م، حسبما ذكر (جان مارك سوفيه)، رئيس اللجنة التي أعدت التقرير.

ويُعَدّ الكشف عن الانتهاكات في فرنسا، أحدث هزّة تعصف بالكنيسة الكاثوليكية، بعد سلسلة فضائح مماثلة في بلدان مسيحية كاثوليكية وبروتستانتية عديدة حول العالم، خلال السنوات العشرين الماضية. وقال (سوفيه) إن الانتهاكات كانت ممنهجة مضيفاً: إن الكنيسة أبدت "لا مبالاة عميقة وتامة، بل وقاسية، طوال سنوات"، وفضّلت حماية نفسها على حماية الضحايا. وأضاف: إن الكنيسة لم تكتف بعدم اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع الانتهاكات، بل غضت الطرف عنها، بتقاعسها عن الإبلاغ، وفي بعض الأحيان تركت الأطفال في معيّة المنتهكين، وهي على علم.

وأوضح رئيس لجنة التحقيق (جان مارك سوفيه)، لدى عرضه التقرير أمام الصحافيين: إن هذا العدد يصل إلى (٣٣٠) ألفاً، إذا ما أضفنا المعتدين العلمانيين العاملين في مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية"؛ من معلمين في مدارس كاثوليكية، وعاملين في منظمات للشبيبة، وغيرهم.

وأكد (سوفيه) أن هذه الأعداد ليست مقلقة فحسب، بل مروعة، وتستدعي تحركاً أكيداً. وقال: إن المشكلة قائمة. وأضاف أن الكنيسة أظهرت عدم اكتراث تامّ بالضحايا، حتى القرن الحادي والعشرين، ولم تبدأ تغيير موقفها حقاً إلا عام ٢٠١٥م - ٢٠١٦م.

واحتسبت هذه الأعداد نتيجة تقدير إحصائي يضم هامش خطأ قدره ٥٠ ألف شخص، على ما أوضح رئيس لجنة التحقيق المستقلة. وقال (سوفيه)، الذي تولى رئاسة اللجنة في ٢٠١٨: إن الكنيسة الكاثوليكية أبدت "حتى مطلع الألفية لا مبالاة عميقة، لا بل قاسية، حيال الضحايا". وأضاف أنه بين ١٩٥٠م والعقد الأول من الألفية، "لم يتم تصديق الضحايا، أو الإصغاء إليهم، واعتبروا أنهم ساهموا بطريقة أو بأخرى بما حصل لهم".

من جانبها، أعربت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية عن شعورها بـ(العار، والهول)، بعد صدور التقرير، طالبة (الصفح) من الضحايا. وقال رئيس مجمع أساقفة فرنسا (المنسنيور إريك دو مولان بوفور) قائلاً: "أود في هذا اليوم أن أطلب منكم الصفح، أطلب الصفح من كل واحد، وواحدة". وكان مجلس أساقفةٌ كاثوليك فرنسا قد شكل لجنة التحقيق المذكورة في نهاية عام ٢٠١٨م، لإلقاء الضوء على الانتهاكات، واستعادة ثقة الناس، في وقت يتضاءل فيه الحضور في الكنائس. ونددت اللجنة التي تتألف من ٢٢ عضواً، بظاهرة (نُظمية) منتشرة جداً في الكنيسة، واقترحت (الإقرار بمسؤولية الكنيسة). وأوضح رئيس اللجنة (جان مارك سوفيه) "المبدأ التوجيهي الأول الذي توصي به اللجنة، هو الإقرار بمسؤولية الكنيسة بما حصل منذ البدايات"، وطلب أيضاً (تعويضاً) مالياً لكل الضحايا.

ونقلت صحيفة (لوفيغارو) الفرنسية، عن تقرير اللجنة، أن أكثر من ٢١٦ ألف طفل وقعوا ضحايا لانتهاكات أو اعتداءات جنسية ارتكبها رجال دين كاثوليك في فرنسا حتى ٢٠٢٠م. وأشار رئيسها إلى أن "اللجنة نفسها حدّدَت نحو ٢٧٠٠ ضحية، لكن دراسة واسعة النطاق أجرتها مجموعات بحثية واستطلاعية، قدرت وجود نحو ٢١٦ ألف ضحية". وأردف: "هذا العدد يمكن أن يصل إلى ٣٣٠ ألفاً، إذا ما أضفنا إساءات المعتدين العَلمانيين العاملين في مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية؛ من معلمين في مدارس كاثوليكية، وعاملين في منظمات للشبيبة، وغيرهم". وأضافت صحيفة (لوفيغارو): إن اللجنة كشفت أن نحو ٣٠٠٠ شخص من كهنة ورجال دين شاذين، تورطوا في جرائم جنسية، طالت أطفالاً في الكنيسة الكاثوليكية، مشيرة إلى أن هذه (تقديرات الحد الأدنى)، وأنها تعدّ المتوسط التقديري لأعداد تتراوح بين ٢٩٠٠ كحد أدنى، و٣٩٠٠ كحد أقصى. وقالت الصحيفة: إن معدل الأطفال الذين تعرضوا لانتهاكات جنسية في الكنائس يصل إلى ضعف الانتهاكات

التي تحدث في أوساط أخرى مختلفة، بينها المدارس، ومنتجعات العطل، والمرافق الرياضية، أو الثقافية.

وأشارت صحيفة (لو فيغارو) إلى أن ٥٦% من حالات الاعتداءات الجنسية هذه حدثت بين عامي ١٩٥٠م و١٩٧٠م، و٢٢% منها بين ١٩٧٠م و١٩٩٠م، و٢٢% أيضاً بين عامَي ١٩٩٠م و٢٠٢٠م، , يُعَدّ ثبات النسبة المئوية هذا دليلاً على عدم تحسّن أوضاع حماية الأطفال في الكنائس منذ أكثر من ٣٠ عاماً.

والأرقام السابقة تعبّر عن متوسط الانتهاكات الجنسية التي تَعرّض لها الأطفال خلال ٧٠ عاماً، بين عامَي ١٩٥٠م و٢٠٢٠م، فيما كان ٨٠% من المُعتدَى عليهم أطفالاً ذكوراً، مقابل ٢٠% من الإناث. وقال (جان مارك سوفيه)، رئيس اللجنة التي أعدت التقرير: إن اللجنة جعلت كلام الضحايا (أساس عملها)، فأطلقت - في بادئ الأمر - دعوات لجمع شهادات على مدى ١٧ شهراً. وتلقت اللجنة ٦٥٠٠ اتصالاً، أو تواصلاً، من ضحايا، أو أقرباء ضحايا، ثم عقدت ٢٥٠ جلسة استماع طويلة، أو لقاءات استقصائية، ودقّقَت في كثير من المحفوظات التي تعود إلى الكنيسة، ووزارتَي العدل، والداخلية، وأرشيف صحفي، وغيرها.

وخلص تقرير اللجنة الوطنية الفرنسية أن نحو ٣ آلاف من مرتكبي الجرائم الجنسية بحق الأطفال، شغلوا مناصب داخل الكنيسة الكاثوليكية منذ خمسينيات القرن الماضي.

موقف البابا فرنسيس من فضائح الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية

ومن جانبه، أعرب البابا فرنسيس ، في ٢٠٢١/١٠/٦م، عن شعوره بـ(الخجل) إزاء التقرير، الذي نشر- حول الاعتداءات الجنسية في الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية منذ ١٩٥٠م، معتبراً أنها (لحظة عار). ودعا - في الوقت نفسه - المسؤولين الدينيين إلى :"الاستمرار في بذل كل الجهود لكي لا تتكرر هذه المأساة". وأضاف: "أعرب عن حزني وألمي للضحايا على الصدمات التي عانوا منها، وعن خجلي وخجلنا جميعاً لعدم قدرة الكنيسة لفترة طويلة على وضع هذه المشكلة في محور اهتماماتها".

وكشفت تقارير جديدة عن تورط أرفع رجل دين كاثوليكي في فرنسا، المطران (فيليب باربارين)، في التستر على حوادث اعتداء جنسي- طالت صبية صغاراً في الكشافة. ونفى رئيس أساقفة ليون، الكاردينال (فيليب باربارين)، الاتهامات الأخيرة الموجهة إليه، حول عدم إبلاغه السلطات عن اعتداءات جنسية حدثت في الأبرشية الكاثوليكية التابعة له، في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي. وفي رده على الاتهامات، قال الكاردينال الفرنسي: "لا

أرى فيم أنا مخطئ بالتحديد. لم أحاول إخفاء شيء، ناهيك عن التستر على هـذه الحقـائق الرهيبة".

وتبرز قضية رئـيس الأسـاقفة المطـران (فيليـب باربـارين) وسـط مجموعـة جديـدة مـن الفضائح الجنسية التي أخذت تتكشف، وهزت الكنيسة الكاثوليكية برمتهـا، حيـث اعـترف أحد المقربين من البابا فرانسيس، الكاردينال الألماني (رينهارد ماركس)، بـأن "الملفـات التـي ربما وثقت تلك الأفعال الرهيبة، واحتـوت أسـماء المسـؤولين عنهـا، إمـا أنهـا أتلفـت، أو لم توجد بالأساس".

وكان البابا فرنسيس كتب في شهر حزيران/يونيو عام٢٠٢١م: إن "الكنيسة بأسـرها تشهد أزمة بسبب مسألة الانتهاكـات، ولا يمكـن للكنيسـة المضي قـدماً مـن دون معالجـة هـذه الأزمة". وأضاف: "سياسة النعامة لا تؤدي إلى نتيجة"، مشدداً على أن الكنيسة الكاثوليكيـة لا يمكنها "تحمّل عبء إخفاء الحقائق"، وهـي بحاجـة "للاعـتراف بخطاياهـا". وجـاء كـلام البابا فرنسيس، في معرض ردّه كتابياً على طلب الكاردينال الألماني (راينهارد ماركس)، رئـيس أساقفة ميونيخ، إعفاءه من مهامه، على خلفية سوء إدارة ملف الانتهاكات الجنسية داخـل الكنيسة، والتستر على فضائح، في جرعة دعم قوية لشخصية إصلاحية تندّد بشدة بإخفـاق الكنيسة الألمانية في التصدي لهذه الممارسات.

وكان البابا (فرنسيس) قد عقد مؤتمراً كاثوليكياً دولياً لبحث ظاهرة الاعتداءات الجنسـية التي تجتاح الكنيسة الكاثوليكية بكافة مستوياتها، حيث وصف البابـا المعتـدين بـ"أدوات الشيطان"، وبـ"الذئاب المفترسـة"، متعهـداً بمعالجـة الظـاهرة بجديـة قصـوى. وكـان البابـا فرنسيس قد اجتمع مع كبار الكنيسة في العالم، ومسؤولي جمعيات دينية، في شـهر فبرايـر/ شباط عام٢٠١٩م، وسط أزمة تمر بها الكنيسـة بسـبب فضـائح الاعتـداءات الجنسـية عـلى قاصرين. وطلب البابا من المسؤولين الكاثوليك لقاء ضـحايا هـذه الاعتـداءات في بلـدانهم، ودعا البعض منهم إلى الفاتيكان. وقال البابا فرنسيس، أمام حشد تجمع في ساحة القـديس بطرس للصلاة: "أدعوكم إلى الصلاة من أجل هذا اللقاء الذي أردته عملاً يعبر عن مسؤولية رعوية في مواجهة تحد عاجل في عصرنا". ويلتقي البابا رؤساء نحو مائة مؤتمر أسـقفي مـن كل القارات، مع كبار أساقفة الفاتيكان، ورؤساء الكنـائس الكاثوليكيـة الشرقية، ومسـؤولي جمعيات دينية. وطلب منهم البابا فرنسيس أن يلتقوا ضحايا تجاوزات جنسية في بلدانهم، ودعى بعض الضحايا أيضاً إلى الفاتيكان. وقـام البابـا - في وقـت سـابق- بعـزل الكاردينـال الأمريكي السابق (ثيودور ماكاريك)، البالغ ٨٨ عاماً، والمتهم بتجاوزات جنسـية قبـل حـوالي نصف قرن، في سابقة تاريخية حيال كاردينال في قضية اعتداء جنسي.

وقد شهدت أكبر كنيسة بروتستانتية في الولايات المتحدة، وهي المؤتمر المعمداني الجنوبي، فضيحة جنسية واسعة النطاق، كشف عنها صحافيون، وتورط فيها نحو ٤٠٠ كاهن، ومتطوع، ومرب، على امتداد عقدين.

وبشأن هذه الفضائح التي غطت العديد من رجال الدين الكاثوليك حول العالم، في الآونة الأخيرة، وتحديداً: في فرنسا، وإيرلنده، وبلجيكا، وهولندا، والنمسا، وإسبانيا، وأستراليا، وبعض دول أمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى الولايات المتحدة، وكندا، قال البابا فرانسيس: إن صدقية الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة قد تضررت بشكل كبير بفضيحة الانتهاكات الجنسية بحق لأطفال المتواصلة هناك. وأوضح - في رسالة وجهها إلى الأساقفة الأمريكيين الذين كانوا في لقاء ديني في شيكاغو -: إن جهود التغطية على هذه الجرائم تسببت في ضرر أكبر. ودعا الأساقفة إلى إنهاء الخلافات والتشاحن الداخلي، وإظهار الوحدة في تعاملهم مع الأزمة.

وقد تصاعدت حدة تعليقات البابا على الانتهاكات الجنسية بحق الأطفال بشكل مطرد، وفي رسالة موسعة نشرها الفاتيكان، قال البابا: إن "الأذى الناجم" عن تلك الأزمة تسبب في حالة من "الفرقة والشقاق" في صفوف الأساقفة الأمريكيين.

وحدد تقرير، أصدرته لجنة كبرى في ولاية بنسلفانيا الأمريكية، أكثر من ١٠٠٠ ضحية تعرضوا لانتهاكات اقترفها مئات القساوسة، خلال سبعة عقود، في هذه الولاية وحدها. وفي يوليو/تموز ٢٠١٨م، وافق البابا على استقالة (الكاردينال ثيودور ماكاريك) أحد أبرز الشخصيات في الكنائس الأمريكية، في أعقاب مزاعم ارتكابه انتهاكات جنسية بحق مراهق. وفي أكتوبر/تشرين الأول عام٢٠١٨م تنحى مطران واشنطن العاصمة (الكاردينال دونال ويرل) عن منصبه، بعد انتقادات لتعامله مع حالات الانتهاكات.

ويقول الأب الألماني (هانز تسولنر)، عالم النفس الذي يجوب الكرة الأرضية لتثقيف الأساقفة: إن "الشخص الذي يلتقي بضحية في إحدى المرات، ويسمع صراخه طلباً للمساعدة، ويرى دموعه وجروحه النفسية والجسدية، لا يمكن أن يبقى كما كان من قبل".

وهنا يتبادر سؤال مفاده: لماذا تغلق فرنسا أكثر من ٣٠٠ مسجد، في اتهامات بأنها تبث التطرف الذي لا يتماشى وقوانين الجمهورية الفرنسية! بينما يتم اغتصاب أكثر من ٣٠٠ ألف طفل في فرنسا من قبل رجال الكنيسة الكاثوليك، تم بعضها داخل الكنائس، ولم تغلق فرنسا ولا كنيسة واحدة؟ لماذا لم يغلقوا الكنائس، رغم هذه الفضائح الأخلاقية التي هزّت العالم الحر؟!

وأين الرئيس الفرنسي (ماكرون) من فضائح كنيسته الكاثوليكية، وحقوق الطفولة المهدورة في بلاده، وبقية بلدان العالم الكاثوليكي، وهو الذي يطالب ليل نهار بحقوق المرأة الأفغانية، وتأسيس إسلام خاص على الطراز الفرنسي؟! فضلاً عن القضاء على الإسلام في جنوب الصحراء؟!

كيف يتم ذلك (الاغتصاب) في مؤسسة دينية مثل الكنيسة، التي يجب أن تكون مفيدة، وراعية للجميع؟ وكيف يولد هذا القَدْر من الوحشية داخلها؟! والاعتداء الجنسي على الأطفال هي جرائم قبل أن تكون خطيئة، تلك هي اعترافات أحد ضحايا الاغتصاب في أروقة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية. تلك هي فرنسا مهد الثورات، وبلد الحريّات، ومعشوقة العلمانيين العرب!!

وعلى أي حال، فإن استغراق اليهود في الماديّات، كما يصفهم القرآن الكريم :{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[سورة البقرة:٩٦]. جاءت المسيحية لإخراجهم من هذا التجاوز، فأسرفت هي الأخرى في المجال الروحي، عن طريق الرهبانية، {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[سورة الحديد: ٢٧].

لقد وازنَ الإسلام بين متطلبات الروح وحاجيات الجسد، موازنة دقيقة، بحيث يلتقي عمل الدنيا بعمل الآخرة، وكلٌّ منهما عبادة لله تعالى، وتحقيقٌ لغاية الوجود الإنساني، بينما تأرجحت الأديان الأخرى بين الاهتمام بالنواحي المادية، كما هو الحال في اليهوديّة، وبين الإزراء بالمتاع الدنيوي، كما هو الشأنُ في النصرانيّة الدّاعية إلى الرهبنة، وتعذيب الجسد، من أجل رقي الروح وتهذيبها، بما في ذلك منع الزواج بين الكهنة!❐

التفكير وأثره في تحقيق التغيير

أزمة فكر أم أزمة تفكير؟

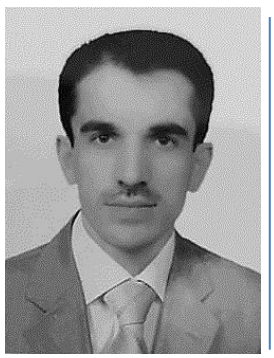

د. سعد صهيب
saadsuhaib@yahoo.com

✍ عمليّة التّفكير هي عمليّةٌ ذهنيّة ترتكِزُ على إثارة المخيلة في تفسيرِ الواقِع وفهمِه؛ ومن ثَمَّ محاولة تغييرِه، وحلِّ مشكلاتِه، على أُسس من التّجرِبة والخِبْرة، وإعمال العقل على ضوءِ الحصيلةِ الفكريّة والثقافيّة الّتي تُكْتَسب عن طريق التّجرِبة العمليّة الثّرة، والخِبْرة المعرفيّة الواعية. والتّفكيرُ هو عمليّةٌ منطقيّة تهدُف إلى تفسيرِ الحقائقِ وتحليلِها وتعليلِها؛ بينما الشّعور هو عمليّةُ إحساسٍ للأشياء وتقييمها. وقد عرّف الدكتور طارق السّويدان التّفكير؛ بأنّه: إعمالُ العقلِ في أمرٍ ما، للوصُولِ إلى رأي جديدٍ فيه. والتّفكيرُ الإبداعيُّ (Creative Thinking)؛ هو النّظر إلى الأشياءِ الّتي حولَنا بطرُقٍ مختلفةٍ جديدة غير مألُوفة، أو القُدْرة على توليدِ أفكارٍ رائِدة مُفيدة غيرِ مطرُوقة من قبل، أو القُدْرة على إيجاد حلُول مُختلِفة للمُشكلاتِ العالِقة، وهو ما يُعْرف بـ(التّفكير خارج الصّندُوق)، فالتّفكيرُ الإبداعيّ هو ما يقودُ إلى نتائِج عمليّة مُبتكَرة.

ولا شكّ أنّ الإنسانَ "يَمُرُّ في حياتِه بمرحلةٍ يشعرُ معها بعدمِ القُدْرة على الإبداعِ والتّفكير "خارج الصندُوق"؛ نتيجة ضغُوطٍ ومُشكلاتٍ يوميّة، ولكنّ خُبراء الصِحّة النفسيّة يُقدِّمون مفاتيحَ التّفكيرِ الإبداعيّ؛ لتحريرِ العقلِ، وتوليدِ الأفكار المُبتكرة. وقد فكّر الفنّان الهولنديّ

الشّهير فينسنت فان غوخ (١٨٥٣ – ١٨٩٠) قديماً خارِج الصّندُوق؛ فقال: "إذا سَمِعْتَ صَوْتاً بداخلِكَ يقولُ: لا، لا يُمكِنُك أنْ تَرْسُم"، ففي تلكَ اللّحظة يجب أنْ تَرْسُم لتُقاوِمَ هذا الصَّوْت. وبمُجرّدِ أنْ تفعلَ عكسَ ما سَمِعْتَه، سيَصْمُت هذا الصَّوْت للأبد". وينطبِقُ هذا القولُ على العديدِ مِنَ الأمُور في حياتِنا اليوميّة"[٢].

وما أحرى بالقائمين على المؤسَّساتِ التّعليميّة تدريب الطّلبة على التّفكير والتّخيُّل والتّأمّل من خلالِ عمليّة العصفِ الذهنيّ. وَوَفْقاً لدراسةِ الإبداع والإدراك (Creativity and Cognition) الّتي تمَّ نشرُها في الموسُوعة الدوليّة للعلُوم الاجتماعيّة والسلوكيّة عام ٢٠٠١م، من تأليف (مارك رونكو)، فإنّ التّفكيرَ الإبداعيَّ يتضمّنُ مجموعةً من العمليّاتِ المعرفيّة الأساسيّة؛ وهي: الإدراك، والانتباه، والذّاكرة، والمعلُومات المخزّنة؛ إذ إنّ بعضَ الإنجازاتِ الإبداعيّةَ تعتمدُ على سنواتِ الخِبْرة؛ تلكَ الخِبْرة الّتي يُمكن أحياناً أنْ تعملَ بشكلٍ عكسيّ؛ بسببِ ما تَنْطوي عليه من روتينٍ وفرضيّات غير مُسلّمة[٣]. والهدفُ من عمليّة التّفكير؛ هو مُحاكمة الواقِع ومحاججتِه من خلال مُحاكاتِه للوصُولِ إلى حلُولٍ جذريّة للمُشكلات.

إنّ التفكير الإبداعي يحتاجُ إلى أدواتٍ فكريّة ناجعة، ومُتابعة جديّة دؤوبة، وحصيلة معرفيّة وثقافيّة كافية، وجدير رصدُه ومُلاحظته أنّ المُفكِّر المُبدع الحصيف إنّما يتّصِفُ بجمُلةِ صفاتٍ ومُواصفات؛ منها: حبُّ الفضُول، والرّغبة في الاستطلاع، والاكتفاء الذاتيّ، والثِّقة بالنّفْس، والجُرْأة والتحرُّر، والمُبادرة والمُبادأة في تنفيذِ العمل، والمرُونة والأَصَالة والتلقائيّة، والاستبطان والتأمُّل الذاتيّ، والسّيطرة على النّفْس ونزواتِها، والشّغف والحماس، والمُغامرة المسؤولة، والمُثابرة في إعمال العقلِ، والتّعامل النقديِّ مع الأفكارِ، والاستقلاليّة في الحُكْم، والاتِّزان الانفعاليّ، وتأكيد الذّات، والميل إلى التّركيب، والتكيُّف والتّوافُق، والجِديّة والتّعاون، والاعتماد على النّفْس وقوّة الإرادة، واحترام المَطالِب الاجتماعيّة، والقُدرة على ضَبْط الانفعالات.

٢- مفاتيح التفكير الإبداعي - كيف تفكّر "خارج الصندوق"؟
https://www.dw.com/ar/%D9%85%D9%81%D8%A7%D8%AA
٣- أهمية التفكير الإبداعي، إسلام سمور، سطور.
https://sotor.com/%D8%A3%D9%87%D9%85%D9%8A%D8%A9

والعملُ الفكريُّ الرّشيدُ إنّما يعتمدُ على قُوّة التخيُّل، والاستبطان الواعِي؛ وتنشيط الذّاكرة وتفعيلها واستثارتِها، وتحريكِ العقل وتثويرِه، والعمل على طريقةِ (العَصْف الذهنيّ)، و(تداعِي الأفكار)، وإثارة الفضُول، والكَشْف عن الظّواهر المجهُولة، وطرح الأسئلة حول ما يعنّ لنا من أشياء غير مألُوفة؛ وتنشيط حاسّة التّساؤل، وإثارة إمكانات التعقّل، ويمكن الاستفادة من طاقاتِ التّفكيرِ الهائِلة، إذا استُثْمرت على الوَجْه المطلُوب، فكثيرٌ من النّاس لا يُقَدِّرون مُهمّة التّفكير والاستنتاج عند مُواجهة المُشكلاتِ الحياتيّة. وللحؤولِ دون الوقُوع في مَطبِّ المُعالجات الآنيّة السّريعة الّتي تجهلُ إمكاناتِ الطّاقة الفكريّة، ينبغي التثبّت والتريّث والتروّي قبلَ الإقدام على شيءٍ مجهولٌ عاقبتُه، فإذا لم نقرأ المسألةَ من كُلِّ وجوُهِها، ونقلّبها على محكِّ النّقدِ والتّفكيرِ والبحثِ والمُساءلة، فقد نقع فيما لا يُحمد عقباه، والّذي يُمارِس حياتِه اليوميّة بناءً على تفكيرٍ واعٍ، وتخيّل عقلانيّ، بمنأى عن المثاليّاتِ والأفكارِ الجاهِزة، وردود الأفعال، والاستعجالِ والارتجالِ، فإنّه سيُحقّق أهدافَهُ بأقلِّ التّكاليف؛ نظراً لأنّ المُشكلاتِ مهما كانتْ مُعقّدة؛ يمكن حلّها من خلال عمليّاتٍ فكريّةٍ واعية، وإجراءاتٍ ذهنيّةٍ سليمة، أمّا الّذي لا يُقدِّر مهمّة الفكرِ البتّة في التّحليل والتّعليل والمُعالجة، فإنّه سيدفعُ ضريبة فعلِه عاجِلاً أو آجِلاً. فما أحرى بمَنْ يُواجِه مُشكِلةً حياتيّة أنْ يستخيرَ ويستشيرَ، ويستثيرَ من إمكاناتِ تفكيرِه الكامِنة، لأنّ الفكرَ إذا بقيَ على حالِه دون تغيير وإضافة، فإنه لا يمكن الاستفادة منه، بله العقل الجامِد يُفْسد أكثر مما يُصلح، كالماءِ الرّاكِد لا يمكن الاستفادة منه، حتّى في تحريكِه، لأنّه يجعله أكثرَ كَدَراً، وإنْ تخيّل للبعض أنّه يلمعُ كالقمرِ في كَبَد السّماء. وقبلَ أنْ ينجرفَ الفكرُ إلى هذه المرحلة (مرحلة الرّكُود والجمود) على الإنسان أنْ يُحرِّك فكرَه، ويستفيدَ من قُوّة تخيلاتِه؛ وما أبدع ما صوّره الشافعيّ بقولِه توصيفاً لهذا المنزع:

وإنِّي رَأَيْتُ وقُوفَ الْمَاءِ يُفْسِدُه إنْ سَاحَ طَابَ وإنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

هذا، وقد أشارُوا إلى الجوانِب الرّئيسة للتّفكير الّتي يُمكن اختزالُها في: الشكّ المنطقيّ، والتحرِّي الدّقيق، وسَعة النّظر، وعُمْق التّفكير، وسَعة الصَّدْر، وأصالة الفكر. والعملُ الفكريُّ في حقيقتِه يُسهم في تغيير الواقع الفرديّ، ومِنْ ثَمَّ الواقِع الاجتماعيّ كُكلّ إذا أسهمت الشرائِحُ الفكريّةُ كُلُّها في عمليّة التّغيير المنشُودة. ولذا على الإنسان الفرد أنْ يُوظّف فكرَه في عمليّات المحاكاةِ والتخيّل، والإنسان إذا لم يستثمر طاقاتِه؛ فإنّه يظلّ يجترّ الأفكارَ التقليديّة، ويُحاكِي

السلوكيّات الشّائعة، أمّا المُفكّر الّذي يعملُ على توظيف قُدراته الفكريّة الكامِنة في عمليّة التغيير والتّحويل، فإنّه يتعدّى المُحاكاةَ والتّقليد إلى محاكمةِ التّقاليد ومحاججتها بمنظور نقديّ عقلانيّ، وعمليّةُ التّفكير بحدِّ ذاتها تقومُ على (النّقد والإبداع).

إنّ (التّفكيرَ المنطقيّ) أو (الاستدلاليّ) – الّذي يُسمّى اليوم بـ(التّفكير النقديّ) – يقومُ على تفكيرٍ استقرائيّ، وأساليب تحليليّة. هذا، "وعمليّةُ التّفكير المُبدع تقومُ على: الابتكار، والتحدِّي، وتجاوز الواقِع المطرُوح، وطلب أمر مجهُول. والتّفكيرُ المنطقيُّ يمكنُه أنْ يسهّل تطوّر سير المفاهيم، من خلال التّرابُط بين الحقائِق والمعاني، والسّعي في استخدام قُوّة الخيال في تفحّص الحقائق، ومُلاحظة نتائِج الآراء قبلَ إبرازِها"[٤]. فالتّفكيرُ النقديُّ هو تفكيرٌ منطقيّ مقبُول يُركِّز على ما يحصُل به اليقين، أو على ما يَجْري من عمليّاتٍ واقعيّة. وتقومُ (عمليّة التّفكير) على عمليّاتٍ عِدّة؛ منها: "تكوينُ المفهُوم، طَرْح المبدأ، الفَهْم، حلّ المَسْألة، اتِّخاذ القرار، البَحْث والتقصِّي، الصِّياغة، المُباحثة". والفكرُ المُبدِع عند (نلر) في كتابه (فنٌّ وعِلْمُ الإبداع)؛ هو: فكرٌ تستهويهِ المَجْهُولات، طلِيقًا من قيُودِ التّقاليد والأعراف، فكرٌ يستثيرُه ركُوب الأخطار. وتحضرُني هنا مقولةٌ رائِعة للشّاعِر والروائي الإيرلندي أوسكار وايلد (١٨٥٤ – ١٩٠٠)؛ وهي إنّ: "الفكرة الّتي لا تَنْطوي على خطُورةٍ لا تستحِقُّ أن تُسمّى فكرةً مُطلَقًا".

أمّا التّفكيرُ العقيم الّذي يقومُ على إنتاج أسئلةٍ تعجيزيّة؛ هو تفكيرٌ لا طائِلَ من ورائه. فالدُّول الّتي تُعاني من التخلّف المُركّب، لديها فائضٌ في الكلام، وعجزٌ وانحسارٌ في العمل. فما أحرى بمَنْ يحمِلُ اهتماماتٍ فكريّةً أنْ يُوجِّه فكرَه وخيالَه نحو مسائِلَ فكريّة عمليّة مُنتجة؛ وليسَ فقط ممارسة التّفكير من أجل التّفكير، فضلاً عن تنظيمِ طاقاتِه الفكريّة، فلا يُطلقها جزافًا، ولا يُرْسلها اعتباطًا. وعندما يصلُ المرءُ إلى درجة التّفكير العقلاني المُنضبط؛ فإنّ كلامَهُ سيكون دقيقًا، وأفكاره ستكونُ أكثرَ ثباتًا. وعليه، فما ينبغي أنْ يُعرَف ها هنا؛ هو أنّ نتائجَ الأفكارِ عادةً ما بطيئة المفعول، ولكنها أكيدة وفعّالة، وكُلُّ الثّوراتِ والحركاتِ الّتي كانت لها شأنٌ في التّاريخ ابتدأت من بذرةٍ فكريّة ضئيلة زرعها مُفكِّر بسيطٌ في قلبِ المجتمع النّابض، ولكنّه لم يهملها، بل تعهّد لها بالرّعاية والسّقاية، وكافح وصابر وصبر إلى أنْ أثمرتْ وأينعتْ وحانَ قطافها. فما أحرى بالمُفكِّر أنْ يتمهّل ويَصْبِر على الوقتِ الّذي يستغرقُه إنضاج

٤- التفكير بين النقد والإبداع - الفوارق والمحددات، علي الشريعتمداري، مجلة (التوحيد) العدد (٩١) السنة (١٦)، ١٩٩٧م، ص١٥٢-١٥٣.

الثّمرة، ويتحلّى بسياسةِ النّفَس الطّويل، ويزرع بذُورَ الفكرِ الرّشيد في العقُولِ النّابضة بالحركةِ والتّأثير والفاعليّة. وكلُّ مُفكّر اليوم مُدعوّ إلى تكثيف نشاطِه الفكريّ العمليّ في تشكيلِ العقلِ الجمعيّ وترشيدِه، لأنّنا جزءٌ من هذا المجتمع الّذي نعيش فيه، وإذا أسهمنا في توعيةِ المجتمع وترشيدِه، استطعنا أنْ نضمنَ مُستقبلاً مُشرِقًا زاهِراً، أمّا إذا رضينا بالوَضْع الحالي وتكيّفنا فيه، ووضعنا أكفّنا على رؤوسنا، ومارسنا حياتنا بتواكُل دون توكّل، وبمنأى عن رُوح جهاديّة تحترمُ الوقتَ، وتُقدِّس الواجبات الّتي تعملُ على ترقيةِ السّقف المعرفيّ للجيل الصّاعِد؛ أصبحنا جُزْءاً من هذا التخلّف العقيم، ونحنُ في الواقِع جُزْء من هذا التخلّف الّذي نكتوي بنارِه منذ عقُودٍ طويلة، وأصبحنا وكأنّنا وصلنا إلى طريق مسدودٍ لا مخرجَ منه. وأصبح كلُّ مشروع فكريّ طموح يُقابَل بالتهكّم والتّعجيز عن تغييرِ الواقِع، وأصبح شعارُنا اليوم ليس بالإمكان أفضل مِمّا كان. وما أروع ما صاغه ألبرت انشتاين (١٨٧٩ – ١٩٥٥)؛ بقولِه: "لا نستطيعُ حلَّ المُشكلاتِ المُستعصيةِ بالعقليّة نفسِها الّتي أوجدَتْها. فالجنونُ هو أنْ تفعلَ الشّيءَ نفسَه مرّةً بعدَ أُخرى، وتتوقّع نتائِج مُختلِفة". فقد أصبحنا – مع كثيرٍ من الأسى والأسف – نعملُ الشّيءَ نفسَه مرّتين بل مرّاتٍ ومرّات بالأسلُوبِ نفسِه، وبالخطواتِ نفسِها، ومع ذلِك ننتظِرُ المُعجزات، فمن الحماقةِ حقّاً أنْ نعتقدَ أنّنا سنحصلُ على نتائِج مُغايرة، ونحنُ نُكرِّر الشيءَ نفسَه بالأسلُوب عينِه. وقد أومأ الدكتور مصطفى محمود إلى هذِه الفكرة؛ بقولِه: إنّ مشكلتَنا ليستْ سنواتنا الّتي ضاعَتْ، ولكن سنواتنا القادِمة الّتي ستضيعُ حَتْماً إذا واجهنا الدُّنيا بالعقليّةِ نفسِها. فكم من المُشكلاتِ العالِقات الّتي لم نجد لها حلاً عمليّاً معقُولاً مقبُولاً حتّى هذِه اللّحظة، لأنّنا نتوسّل في استعمالِ الطّرُق نفسِها الّتي ثبتَ فشلُها سابقاً، وأقربُ شاهِدٍ على ما نقولُ الفيضاناتِ الّتي اجتاحتْ مدينتَنا مُؤخّراً على الرّغم من حدُوثِها مرّاتٍ ومرّات، ومع ذلِك لم نستفِد من خبراتِنا وتجارِبنا ولم نتّعظْ من الكوارِث الّتي ألّمت بالعديدِ من أبنائِنا الأبرياء الّذين وقعُوا ضحايا إهمالِ القائمين على هذِه المشاريعِ الّتي وُضعت لها ميزانيّة جبّارة، بيد أنّها ذهبتْ أدراجَ الرِّياح. والآن وبعد الإعلانِ عن مصرع (١٢) شخصاً – جرّاء سيُولٍ نجمتْ عن هطُولِ أمطارٍ غزيرة ضَرَبتِ الأحياء السّكنية في ضواحِي جنُوبِ شرقِ أربيل، وتسبّبت في أضرارٍ ماديّة جسيمة – ماذا سيكون التّخطيط للمرحلة القادِمة، وهل سيكتفي المسؤولون والمثقّفون بإطلاقِ تصريحاتٍ دون تنفيذِ خطواتٍ عمليّة ملمُوسة، وهل يصدقُ علينا ما قاله انشتاين يوماً:

"المثقّفُون يأتون لحلِّ المُشكلاتِ بعدَ وقُوعِها، والعباقِرة يَسْعون لمنعِها قبلَ أنْ تبدأ". وكلُّ ذلك عن طريقِ النّظرِ إلى الأشياءِ بطرُقٍ جديدة غير تقليديّة، فعندنا – بلا شكّ – كمّ هائِل من الأفكارِ التقليديّة الّتي لا تَبْني أمّة ولا تُؤسِّس حضارةً، وعندنا أيضاً فائِضٌ في الكلامِ وعجزٌ في العملِ، وزيادةٌ في الفكر ونقصٌ في التفكّر. وأزمتنا الفكريّة "تتمثّلُ في عدمِ المَقْدِرة على طَرْح أفكارٍ ريادِيّة مُبدِعة، ثمّ ترجمة تلكَ الأفكارِ إلى سياساتٍ وقراراتٍ عمليّة ناجِعة ناجِحة، بل على العكس هناك ضَعْفٌ كبير في عدمِ المَقْدرة على تطبيقِ القوانين واللّوائِح المُلزمة في كثيرٍ من القضايا المصيريّة الفاعِلة"[٥].

وقد وضع الدكتور السويدان بصمتَهُ على مشكلتِنا الفكريّة الرّاهِنة، بقولِه: "أزمة الفكر السّليم – عندنا – هي أمُّ الأزمات، والمشكِلةُ في عالمنا العربيّ والإسلاميّ ليستْ في العقُول، وإنّما في استثمارِ تلك العقُول، فالعقُول في أُمّتنا موجُودة وافِرة، خاصّة العقُول المُبدِعة، لكنّها لم تجدِ الفُرصةَ سانِحةً للتّفكير بحُريّة، ومُمارسة إبداعِها بأريحيّة وانفتاح"[٦]. ولا جرمَ أنّ التّفكير الحُرّ السّليم يُؤدّي غالِباً إلى تقديمِ أعمالٍ إنسانيّة رائِدة، ومشاريع عمرانيّة فريدة تسهمُ في تعزيز التطوّر الإنسانيّ، وتحقيق الازدهارِ الحضاريّ. ولتحقيق الإقلاع الحضاريّ من جديد لا بُدّ من الإقرار بوجودِ أزمةٍ فكريّة منهجيّة تَعْصِفُ بالمجتمع العربيّ الإسلاميّ، وجعلته يتراوح في أنساقٍ فكريّة مُغلقة، ونماذِج جاهِزة، وأدبيّات تجاوزها الزّمن.

ولا بُدّ من الإشارةُ هنا إلى أنّ حلَّ المشكلاتِ يبدأُ من الاعترافِ بوجُودِها، وعدم التنصّل عنها، فهناك – بلا شكّ – أزمةٌ في الفكرِ العمليّ، وانحسارٌ في التّفكير المنهجيّ. وقد أكّد العديد من المُفكّرين هذِه الأزمة، ومن بينهم الدكتور محمّد عمارة الّذي قال بصريح العِبارة: "واليوم، لا نُغالي إذا قُلْنا إنّ إجماعاً يكادُ أنْ ينعقِدَ على أنّ الفكرَ الإسلاميَّ يعيشُ في أزمة، وعلى أنّ هذِه الأزمةَ الفكريّةَ قد أوقعتْ أُمّةَ هذا الفكرِ في مأْزِقٍ حضاريّ. فأهلُ الفكرِ – بتيّاراتِهم المختلِفة – يُسلمون بذلِك، مع اختلافِهم في تحديدِ أسبابِ هذِه الأزمة، وفي تعيينِ سُبُل الخرُوجِ منها، وواقِع الأُمّة يشهدُ على ذلِك، حتّى لدى الّذينَ لا يتّخِذُون من الفكرِ صناعةً

٥- أزمة شارع أم أزمة فكر؟! رامي مهداوي، مدار نيوز، ٢٠١٩م.
https://madar.news/%D8%A3%D8%B2%D9%85
٦- أزمة الفكر أمّ الأزمات، د. طارق السويدان، الشرق، ٢٠٢١م.
https://al-sharq.com/opinion/05/01/2012

يتخصّصُون بها ويبرعون فيها"[٧]. فالأزمةُ الّتي يُعاني منها الفكرُ الإسلاميّ هي حقيقةٌ لا يُمكن إنكارُها والتّغاضِي عنها، ولا بُدّ من الإقرارِ بها والاعتراف بوجُودها، إذا أردنا حقّاً مُواجهة الأزمةِ، ومراجعة الأدبيّات الّتي أسهمت في صناعتِها وتضخيمها، ومن ثَمَّ تصديرِها وتدويلِها.

فهناك ما يُشبه الإجماع على أنّ الفكرَ العربيَّ المُعاصِرَ يعيشُ في أزمة وجوديّة خانِقة تُهدّد انهيار منظومتِه في حال لم يُرفد بعناصِرَ جديدة تُنقذ هياكِله من التفكّك والانهيار. وقد تناول العديدُ من المُفكّرين أزمةَ الفكر هذِه، وأرجعُوها إلى عوامِلَ كثيرة، فهناك من ربطها بوجُود تناقُضٍ في جوهرِ الفكر العربيّ، الّذي مالَ إلى التّوفيق أو الجَمْع بينَ الأضداد، وهناك من يربطُها بقِلّة الإبداع، والمَيْل نحو التّقليد والنّسْخ والمُحاكاة، والاعتماد على التّرجمة السّطحيّة[٨]، والاستبداد السياسيّ، وطُغيان النّقل على العقل، والتّعامل مع الأفكارِ والأيديولوجيّات مثلما نتعامل مع البضائِع والمقتنيات.

فلا غَرْوَ أنّ العالَم العربيّ والإسلاميّ "يعيشُ أزمةَ فكرٍ تُهدِّد وجودَهُ؛ لأنّه لا يستطيعُ أنْ يتقدّمَ للأمام، أزمةٌ جعلته عاجِزاً أنْ يُعمِّر ويَبْني ما تهدّم، وكُلّما تقدّم خَطْوةً عاد مُهَرْولاً للخلفِ خطواتٍ يَبْكي على ماضٍ جميل وأطلال رائِعة، ويشتكي من ظُلم النّاس، ويتحسّر من تكالب الأعداء عليه. أزمةٌ تجعلُ من المُخالِف ولو كان من بني جِلْدته عدوّاً، وتُسْهم في تدمير الذّات والإبداع والفنُون، وعدم إعمالِ العقل والفِكْر، وعدم الاستفادة من تجارِب الآخرين"[٩]، مهما كانت قُوّتها وروعتُها ورصانتُها، انطلاقًا من قاعدةِ: (الحكمةُ ضالّةُ المُؤمِن فحيثُ وجدَها فهو أحقُّ بها).

فقد اتّضح لنا أنّ أزمةَ الأُمّة المعنويّة ليستْ أزمةَ عقيدةٍ وقِيَم ومبادئ، وإنّما هي أزمةُ فكرٍ ومنهج، وأنّ هذِه الأزمة قد بدأتْ منذُ أمدٍ بعيد تعودُ جذورُها إلى تغيّر القاعِدة السياسيّة، وما تبعِها من عُزْلة القيادة الفكريّة، وكفِّها عن المسؤوليّة الاجتماعيّة، وما ترتّب على ذلِك من توقّف نموّ الحركةِ الفكريّة والعِلميّة والمنهجيّة والاجتماعيّة الّتي أدّت بالأُمّة إلى العجزِ عن

٧- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمّد عمارة، دار الشّرق الأوسط للنشر، ١٩٩٠م، ص٦- ٧.

٨- أزمة فكر أم أزمة تفكير؟ وليد نويهض - كاتب ومفكر عربي لبناني، الوسط العدد (٥٧٤) الخميس ٠١ أبريل ٢٠٠٤م الموافق ١٠ صفر ١٤٢٥هـ
http://www.alwasatnews.com/news/383584.html.

٩- أزمة فكر أم أزمة وجود، أسامة يماني، مركز مكّة الإبداعي، ٢٠١٧م.
https://makkahnewspaper.com/article/598538.

مُواكبةِ التغيُّراتِ والتطوُّراتِ والتحديَّات المُتعاظِمة المُتلاحِقة[١٠]. فنحنُ عندنا كمٌّ هائِل من القِيَم والمبادئ السّامية الّتي تجعلُنا في مقدّمة دُول العالَم دون مُنافِس، ولكن ما ينقصُنا ويُشوِّه أنساقَنا المعرفيّة؛ هو أزمةٌ في الفكرِ والمنهج، وضعفٌ في المنهجيّة الّتي يُمكن استخدامُها للمُلاحظة والكَشْف والتّحقيق في اكتسابِ المعارِف، والوصُول إلى الحقائِق.

وبهذا أصبحَ مِنَ الواضِح أنّ الأزمةَ – أزمة القُدْرة على مُواكبةِ التغيُّراتِ والتحديّات الحضاريّة – لن تحِلّ إلّا بتصحيحِ مسارِ العقلِ، وتعديل منطلقاته الفكريّة، وبناء منهجيّتِه العلميّة والاجتماعيّة لتُؤهِّله للتّعامُل المُنضبِط مع الحياةِ الاجتماعيّة مع كُلِّ ما يتعلّق بها من وقائِع وأحداثٍ وتحديّات وعَلاقات، لأنّه إذا صحّ المنهجُ صحّ الفكر، وأمكنَهُ أنْ يمدّ الأُمّة بالطّاقة اللّازِمة لنَشاطاتِها وحاجاتِها كافّة على الوَجْه الّذي ترى الإفادةِ منه في جهُودِ البناء والإصلاحِ والإعمار، ومُواجهة التحديّات[١١]. فلا يمكن لأمّة – مهما بلغ شأنُها – أنْ تُواكِب التغيُّرات والتطوُّراتِ والتّحديّات الحضاريّة دون أنْ يقودها منهجٌ سليم، ومنهاجيّة صحيحة، تُؤهِّلها للتّعامُل الإيجابيّ المُنضبط مع الوقائِع والطّبائِع والتحديّات والماجريات. وهناك قاعِدة كُليّة؛ مفادُها: إذا صحَّ المنهجُ صحَّ الفكرُ، فصِحّة الفكر رهنٌ بوجود منهجٍ علميّ سليم.

والمنهج الّذي انتهى إليه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠م) في كتابه (مقالٌ في المنهج: قواعِد لتوجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم)، هو البدءُ بالشكِّ في صِحّة ما يعتقِدُه النّاسُ، بحُكْم ما اعتادُوا عليه دُون تأمّل، وبحُكْمِ تقليدِهم لغيرِهم دُون بُرهان. ومِمّا ذكرَه في هذا الشّأن: "لقد تعلّمْتُ ألّا أعتقِدَ جازِمًا بأيِّ شيءٍ سبقَ أنْ تعلّمْتُه بالعادةِ ومثالِ الآخرين، وأخذتُ أُحرِّر نفسِي شيئًا فشيئًا مِنَ الأخطاءِ الّتي تُطْفِئ (النُّورَ الفطريَّ)، وتحُدُّ من قُدْرتِنا على الإصغاءِ إلى العقل"[١٢].

ويقومُ هذا المنهجُ على أربع قواعِد؛ **أوّلُها**: عدم القَبُول بصِحّة أيِّ شيءٍ قبلَ التحقُّق من صِحّتِه، وتجنُّب الحُكْم السّريع والتّحيُّز، والتحقُّق من عدمِ وجُودِ أيّ سببٍ للشكِّ في صِحّتِه.

١٠- أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان، ص٧٩.
١١- المرجع نفسه، ص٧٩.
١٢- منهجية التكامل المعرفي - مقدّمات في المنهجيّة الإسلاميّة، فتحي حسن ملكاوي، ط (٢)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن - فرجينيا - الولايات المتّحدة الأمريكية، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص١٦٤.

والقاعِدة الثّانية: تتطلّبُ تقسيمَ المُشكِلة المُراد بحثُها إلى أكبر عددٍ مُمكِن مِنَ الأجزاءِ لتسهيلِ التّعامُل معها. **والقاعِدة الثّالِثة**: تتطلّبُ مُمارسةَ التّفكير بطريقةٍ مُنظّمة بالأجزاءِ البسيطةِ الّتي يسهُل معرِفتُها، والتدرُّج في معرفةِ الأشياءِ الأكثرِ صعُوبةً. أمّا **القاعِدة الرّابعة**: فإنّها تتطلّبُ التحقّق من أنّ الباحِثَ لم يترُك أيَّ جُزْءٍ من المُشكِلة لم يَتِمّ تناولُه وبحثُه[١٣]. وقد تبيّن – فيما بعد – أنّ ديكارت قد قرأ ترجمةَ كتاب (المُنقذ من الضّلال) لحُجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، الّذي يتّخذ الشكَّ طريقًا إلى اليقين.

والسُّؤال الّذي يطرحُ نفسَه هنا: تُرى هَلْ هناك أزمةٍ في الفكرِ أم أزمةٌ في التّفكير، هل هناك ضَعْفٌ في الفكرِ أم في التّفكير؟ هل هناك ضعفٌ فكريّ أم ضعفٌ تفكيريّ؟ وللإجابةِ عن هذا السُّؤال؛ نقول: إنّ التّفكير هو خاصيّةٌ إنسانيّةٌ تنبعُ من عقلِ الإنسانِ، وقد زوّد الله – سبحانه وتعالى – الإنسان بقُدْرة على التّفكير، ولِهذا فمُشكلة المجتمع ليست مشكلةَ تفكير فقط، فالعقليّة الّتي ولدت الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، وسيبويه (ت١٨٠هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، والطّبري (ت٣١٠هـ)، والحسن البصري (ت١١٠هـ)، وأبو حنيفة الدِّينَوَرِي (ت٢٨٢هـ)، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، وجابر بن حيّان (ت١٩٩هـ)، وابن النّفيس (ت٦٨٧هـ)، وابن الهيثم (ت٤٣٠هـ)، وأبو الرَّيْحان البِيرُونِيّ (ت٤٤٠هـ) ، والخوارزمي (ت٢٣٢هـ)، وأبي نصر الفارابي (ت٣٣٩هـ)، وابن سينا (ت٤٢٧هـ)، وابن البيطار (ت٦٤٦هـ)، وابن إسْحَاق الْكِنِديّ (ت٢٥٦هـ)، والإدْرِيسي (ت٥٥٩هـ)، وأبو الحسن المسعودي (ت٣٤٦هـ)، وأبو حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ)، والشافعي (ت٢٠٤هـ)، وابن رُشْد (ت٥٩٥هـ)، وأبو حامد الغزاليّ (ت٥٠٥هـ)، وابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ)، قادرة على إنجاب أمثالهم، لكن مشكلة مجتمعنا هي مشكلة فكر[١٤]. وبعيداً عن نظريّة المُؤامرة فقد كان لأعداءِ الأُمّة دور بارز في نشر الاستبداد السياسيّ، ومن ثَمّ الاستتباع المعرفيّ والاستلحاق الحضاري، وكلُّ هذا كان سببًا في عُقمِ الأُمّة من إعادةِ مثلِ هذِه العقُول الفذّة المبدِعة المُبتكرة، ومن ثمّ إنتاج أجيالٍ مُتخلّفة أصبحت عالةً على سائِر المُجتمعاتِ الإنسانيّة. وبناءً على ذلِك، فإنّ أزمتنا الحضاريّة سببها ضَعْفٌ في الفكر الإبداعيّ، وليس ضَعْفًا في التّفكير فقط.

١٣- المرجع نفسه، ص١٦٥.
١٤- أزمة فكر أم تفكير؟! نورا الهاشمي، المسار، ٢٠٢١م.
https://almasar.om/%D9%86%D9%88%D8%B1%D8%A7

وفي فصلِ (التّناقُض بين الفكرِ والسّلُوك) ذهبَ أحدُ الباحثينَ إلى: أنّ العقلَ العربيَّ يعيشُ أزمة تفكيرٍ، والتّفكيرُ في العقلِ العربيّ، هو مِنَ النّوعِ المُتقبّل الّذي يُؤدِّي بالضّرُورةِ إلى مُقاومةِ التّغيير، في حين أنّ العقلَ العالميَّ المُعاصِر يُمارِس مستوًى مُتقدِّمًا مِنَ التّفكيرِ، يُطْلَق عليه (التّفكير النّاقِد) بما يتّسِمُ به من خصائِص؛ مثل: الدقّة، والاستدلال، وتقويم الحُجج، والتّفريق بين الرّأي والحقيقة، ورُؤية الوجه الآخر للأحداث، والاتِّجاه نحو الجديد مِنَ الأفكارِ، واستخدام قواعِد الاستدلالِ المنطقيّ في التّعامُل مع المُتغيّرات والأحداث"[١٥].

وانطلاقًا من هذِا التّوصيف، فإنّ "الفكرَ الإسلاميَّ بحاجةٍ إلى وصفات علاجيّة يتعافى بها من أزمتِه، وتُرشده إلى معالم التّفكير المنهجيّ الّتي دعا إليها الإسلام والتزم به علماؤُه الأوائِل في مختلف الحقُول الفكريّة المعرفيّة، فشيّدوا حضارةً امتزجتْ فيها الرُّوح بالمادّة وَفْق رُؤية شمُوليّة مُتوازنة كانت سِمةً مميّزة للفكرِ الإسلاميّ الرّشيد في العصُور الإسلاميّة الزّاهية. ومن أبرز مظاهر الأزمة: وجُود خللٍ في التّعامل مع مصادر الفكر الإسلاميّ وأدواتِه، إذ يُلحظ انفصال في عناصر البنية المعرفيّة الإسلاميّة، مِمّا أدّى إلى الجمُود والتّقليد، وعدم تجديد أدواتِ العمل، والتقيّد بالحرفيّة في التّعامُل مع النصّ، وعدم مساءلة المعرفة الإسلاميّة، والتّعامُل معها بنَوْع من التّقديس والتّسليم، وغياب التّكامُل المعرفيّ والتّجزئة المُستمِرّة للعلُوم، وهو ما أفرز أزمةً في التّعامُل مع الأصُول والتُّراث والواقِع، وتتجلّى بعض مظاهرها في القرآن والسُنّة، بتغليب النّظرة التجزيئيّة، وتغييب النّظرة الكُليّة[١٦]. ومن سِماتِ الأزمة الفكريّة وقَسماتِها؛ وجودُ تيارٌ واسِع عريض لا يُميّز – عمليًا – بينَ المصادِر الأصليّة والفرعيّة، أو بين الأصُول والفرُوع، والثّوابت والمُتغيّرات، بل بقيَ حتّى هذِه اللّحظة مأسُوراً في أقبية تاريخٍ يحملُ بين دفتيه الثّابت والمُتحوّل، والمُشرق والمُظلم، والإبداع والاتّباع، والصّالح والطّالح، وهذا خللٌ منهجيّ لا بُدّ من تجاوزه، فتاريخنا – مع جلالِه وجمالِه – ليسَ نصًا مُقدّسًا لا يُمكن الخرُوج منه، بل لا بُدّ من مُراجعة أدبيّاتِه ونقدِها وغربلتها، وتمييز ما فيها من قُوّة وضَعْف، وجمال وقُبح، وجيّد ورديء، وهنا كان لا بُدّ لنا أنْ نعيدَ صِلتَنا بما يعيد تفرّدنا وتميّزنا في ميادين الفكر والعلم والمعرفةِ والإبداع. فالمراوحةُ في النّسقِ التاريخيّ المُغلّق تجعلُنا

١٥- أزمة العقل العربي المعاصر، قاسم حسين صالح، ط (١)، دار العربية للعلوم، بيروت - لبنان، ٢٠١٤م.
١٦- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، يونس الحزولي، حراء، ٢٠٢٠م.
./https://hiragate.com/9735

نستنسِخُ الأدبيّات الفكريّة الّتي تجاوزها الزّمن دون تفعيل أو تثويرٍ أو إضافة، ونسترجعُ الخِلافاتِ التاريخيّة، ونبتعد رُوَيداً رُوَيداً عن فقهِ الواقِع، وكلّ هذا يُؤدّي بنا إلى ضَرْبٍ مِنَ الكَسْل المعرفيّ، والخمُول الفكريّ.

هذا، "وعندما يفقدُ الفكرُ مبرّراتِه التطوريّة والتقدُّميّة يُصْبح خارِج دائِرة الزّمن، حيثُ يتحصّنُ في داخلِه رافِضاً الخرُوج من دائرة الآبائيّة الّتي استنكرَها القرآن الكريم، والانسجام مع حلقاتِ الحاضِر والمُستقبل المُتسلسِلة. حينئذٍ يُصْبح التحجُّر والجمُود هو من أساساتِ بنائِه ووجُودِه، والفكرُ عندما يفقد مبرّراته التطوريّة، يفقد غاياتِه أساساً. إنّه ساكِنٌ في اجتهاداتِه، قامِع لها، ورافِض لمُتغيّراته، يُحارِب كُلّ مُتغيّر يَسْري في داخلِه... إنّ مفاهيمَ الدِّين الإسلاميّ تحضُّ على الاستجابة الفعّالة مع العالَم الخارجيّ، وتطوير الفكرِ الإنسانيّ باستمرار لتحقيقِ الحُريّة والإقناع والإبداع والتطوّر، الّتي هي من أساساتِ تحرُّك الإنسان، وتصاعُدِه نحو الكمال. وقمينٌ لحظه أنّ الكثيرَ من تصريفاتِ الأفعالِ المُستخدمة في القرآنِ تَدُلُّ على حركةِ الفِكْر، وعدم جمُوده؛ مثل: (التدبّر، التفكّر)"[١٧]. فالتّجديد إذاً؛ هو حاجةٌ حضاريّة لا غِنى عنها، والعُلماء العامِلُون المُجدِّدون هم ورثةُ الأنبياء، الّذين ينفونَ عنِ الدّين تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المُبطلينَ، وتأويلَ الجاهلينَ.

"وإذا كان تَوالي السِّنين، ومعها طوارِئُ الأمراضِ والعوارِض، هو مِمّا يُصيب الصِحّة الجسديّةِ بالوَهْنِ والضّعْفِ والعِلَل، فإنّ هذِه السُنّةَ تنسحِبُ أيضاً على الأنساقِ الفكريّة، يُصيبُها تَوالِي السِّنين والقرُون، والعِلَل الذّاتيّة والوافِدة، بالغَبَشِ الّذي يحجُبُ صفاءَها، ويَفُلّ من عَزْمِها، ويُقلِّل من فاعليّتها، فإذا لم يتداركَها المُجدِّدون بالتّجديد، والمجتهِدون بالاجتهاد، الّذي يُجسِّدها أنموذجاً حيّاً شاخِصاً، طويت صفحتها الحيّة، وتحوّلت إلى مُتْحَف التّاريخ!"[١٨]. فالحركةُ تعني الحياة والدّيمومة، والسّكون يعني الموتُ والخمود، وما أروع ما ذكرُه الفيلسوف اليوناني (هِرَقْليطُس) في هذا المعنى: "إنّك لا تضعُ قدمَك في النّهرَ الواحِد مرّتين"، وقد أضافَ إليه (فلوطرخس) قولَهُ مُفسِّراً: "لأنّ مياهاً جديدةً تتدفّق فيه". فحركةُ

١٧- أزمات الفكر والذات المشوّشة، مرتضى معاش، شبكة النبأ المعلوماتية، ٢٠١٨م.
https://annabaa.org/arabic/annabaaarticles/16851.

١٨- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمّد عمارة، دار الشّرق الأوسط للنشر، ١٩٩٠م، ص٥.

الماءِ في النّهرِ كحركةِ الزّمن تتّسمُ بالديمومة، والإنسانُ في حالةِ تغييرٍ دائِمة، ولهذا فهو لن يكون في المرّة الثّانية كما كان عليهِ في المرّة الأُولى.

ومن أُولى أزماتِ الفكرِ الإسلاميّ المعاصِر؛ هي قضيّة العقل، والموقِف منه كأداةٍ للنّظْرِ والبرهنةِ والاستدلال، والموقِف من الشِّعاراتِ المطرُوحة حولَ ضرُورةِ تحريرِ العقلِ المُسلِم من القيُودِ الّتي تُكبّله.. إنّ العقلَ والعقلانيّة، والنّزعة العقليّة، في المنظُورِ الإسلاميّ، ليسَ جوهراً مُستقِلًّا، ومُناقِضاً لغيرِه من سُبُل النّظر، وتحصيلِ المعارِف، وأدواتِ الإدراكِ. فإذا كان المنهجُ العقليّ، والمُفكّر ذو النّزعةِ العقليّة العَمَليّة، في المُصْطلحاتِ السّائِدة في الفكرِ الغربيّ؛ يعني التميُّز والاستقلال، بل والتّناقُض مع المناهِج والنّزعاتِ الوجدانيّة والحَدْسيّة والنقليّة، فليسَ الحالُ في منظُورِ الرّؤيةِ الإسلاميّة، لعَلاقةِ العقلِ والعقلانيّة بمناهِج النّظْر والإدراكِ الأُخرى[١٩].

ومن هُنا، فإنّ (تحريرَ العقل) المُسلِم - بوصفه قضيّة من قضايا أزمةِ الفكرِ الإسلاميّ المُعاصِر - يجب أنْ تُفْهَم على أنّها تحريرُه من الجمُودِ والتّقليد الأعمى، وتحريره من الغرُور، وتحريره من الهوى، تحريره من الجمُودِ والتّقليد الأعمى للسّلف، سواء أكان هذا السّلفُ هو سلفُنا نحنُ، أمْ سلفُ الحضارةِ الغربيّة، فالجمُود على النّصُوصِ آفةٌ، سواء أكانت هذِه النّصُوص من موروثِنا نحنُ، أم مُستورَدة عنِ (الآخر الحضاريّ)![٢٠].

ورَحِمَ اللّه الأُستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، عندما تحدّث عن مهّمة تحريرِ العقلِ من الجمُودِ والتّقليد الأعمى، باعتبارِها أُولى المهام الّتي جاهدَ في سبيلِ إنجازِها؛ فقال: "لقدِ ارتفعَ صوتي بالدّعوةِ إلى: تحريرِ الفكرِ من قيدِ التّقليد، وفهمِ الدّين على طريقةِ سلفِ الأُمّة، قبلَ ظهُورِ الخِلاف، والرّجُوع في كسبِ معارفِه إلى ينابيعِها الأُولى، واعتبارِه من ضمنِ موازِين العقل البشريّ الّتي وضعَها الله لتردّ من شَطَطِه، وتقلّ من خَلْطِه وخَبْطِه، لتُتِمّ حكمة الله في حفظِ نظامِ العالَم الإنسانيّ، وإنّه على هذا الوَجْه يُعَدُّ صديقاً للعِلْم، باعِثاً على البحثِ في أسرارِ الكون، داعِياً إلى احترامِ الحقائِق الثّابتة، مُطالِباً بالتّعويلِ عليها في أدبِ النّفسِ وإصلاحِ العمل"[٢١]. فالحضارةُ تبدأُ عندما تتحرّر الأفكارُ من أسرِ التّقاليد، وترجعُ الأُمّة في

١٩- المرجع نفسه، ص١٢.
٢٠- المرجع نفسه، ص١٤.
٢١- الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبده، دراسة وتحقيق: د. محمّد عمارة، بيروت - لبنان، ١٩٧٢م، ج٢، ص٣١٨.

كسبِ معارفِها إلى ينابيعها الأُولى، ويكونُ فهمها للدِّين بناءً على طريقةِ سلفِ الأُمّة الأوائِل، وبذلِك يُحْفظ العقلُ البشريُّ من خَلْطِه وخَبْطِه، وغروره وكبريائِه.

فإذا لم يتغيَّر منهجُ التّفكير، وتُصحَّح منطلقاتُه، فسوفَ يبقى العقلُ المُسلِم عاجِزاً عنِ النّظْرِ النّاقِد والرُّؤيةِ النّافِذة، وسوفَ يظلُّ يُراوِحُ في حلُولِه ومُحاولاتِه المُتكرِّرة الفاشِلة، على مرِّ القرُون والأجيال والدُّول، بَلْ لعلّ هذِه المُحاولات الخاطِئة لن تزيدَه إلّا استنزافاً وتدهوراً وإنهاكاً. ومِمّا يزيدُ من أعباءِ هذا العقل المُسلِم البائِس أنّ الفِئات القياديّة السياسيّة في الأُمّة قد انتهتْ بعدَ يأسِها من الغلبةِ في صراعاتِها للاستئثار بالقيادةِ والتّوجيه إلى إخضاعِ الأُمّة وعقلِها إلى إرهابٍ مادّي ونفسيّ[٢٢]. فالعقلُ المسلِمُ اليوم مدعُوٌّ إلى تأسيسِ منهجيّةٍ تكامُليّة استناداً إلى الأصُول والثّوابت الإسلاميّة، واستنارةً بالمنهجيّاتِ العلميّة الغربيّة، الّتي ثبتَ صِحّتُها ونجاحُها في المجالِ العمليّ التطبيقيّ. هذا، وإنّ الاشتغالَ الفكريَّ الرّشيد لا يكونُ عبر انتحالِ الأفكارِ الوافِدة المنقُولة إلينا عن طريقِ التّرجمة المُرتجَلة الكاسِدة؛ لأنّ هذا الضَّرْبَ من الإعْمالِ الفكريّ لا يُلبِّي حاجةً، ولا يبني أُمّةً، ولا يُؤسِّسُ حضارةً. والدّليلُ على ذِلك أنّ فكرَ الاستنارةِ العربيّ – الّذي تبلور في أحضانِ النّهضة الغربيّة الأوروبيّة – لم يكن له دورٌ ملحوظ في تحقيقِ التقدُّم العلميّ، وتجسيدِ التطوّر العمرانيّ، وتوفير الرّفاه الاقتصاديّ، بل كان عامِلاً مُساعِداً في تطبيعِ الاستبداد السياسيّ، وتعزيز التخلّف العلميّ، وتكريس الاستتباع الاقتصاديّ.

حتّى النِّتاج الفكريّ الّذي وُصِف بـ (فكر النهضة)، تبيّن لاحِقاً أنّه – في مجمُوعِه العامّ – مُجرّد أفكارٍ مُترجَمة منقُولة عن كُتُب ودراساتٍ صدرتْ في إطارِ السِّياق الغربيّ – الأوروبي، وعُرِّبت ونُقّحت وأُعيد إصدارها، وكأنّها من تأليفِ الكُتّاب العربِ من المسلمين وغيرهم، وهي في الحقيقة مُجرّد أفكار تُرْجِمت بتصرّف[٢٣]. فطه حسين، في كتابه (على هامش السِّيرة)، كان مُتأثِّراً بأقوالِ، أو (مُترجِماً لأقوالِ). وجيل لوميتر، في كتابه (على هامش الكتُب القديمة)، وإميل درمنجم في كتابه (حياة محمّد)، وألفريد أورشيم في كتابه (على هامش سيرة المسيح). فكتابُ طه حسين (على هامش السِّيرة) كان مجاراةً للكُتّاب الغربيِّين، لتكُون نتيجة المعادلة أنّ السّيرةَ من الكتُبِ القديمة المُشار إليها. وما يُمكن أن نستدلّ به على ذلِك، ما ذكرَهُ المُستشرق ماسينون؛ بقولِه: "إنّنا حين نقرأُ طه حسين؛ نقولُ: هذِه بِضَاعتُنا رُدَّت إلينا". وما يُعزّز هذا

٢٢- أزمة العقل المسلم، ص٥١- ٥٢.
٢٣- أزمة فكر أم أزمة تفكير؟ وليد نويهض.

الاستدلال قُوّة ومصداقيّة ما ذكره طه حسين صراحةً في كتابه (الإسلام والغرب): "ويتحتَّم أنْ نعترفَ بأنّ كِتَابين فرنسيِّين كانا بمثابة الشرارتَيْنِ اللّتين أشعلتا مَوْقدين مختلفين. أحدُ الكتابين لـ(جيل لومتير)، وعنوانُه (على هامش الكتُب القديمة)، والثاني (حياة محمّد) لـ(إميل درمنجم). أمّا كتاب جيل لومتير: فإنّي بعدَ أنْ شُغِفت به كثيراً كثيراً، وضعتُ في نفسِي الأسئلةَ الآتية: هَلْ يُمكن إعادة كتابة مآثِر الفترة البطوليّة في تاريخ الإسلام في أسلُوبٍ جديد، أم أنّه يتعذّر ذلك؟ وهل تصلُح اللّغة العربيّة لإحياء هذه المآثر؟ لقد حاولتُ أنْ أقُصَّ (بعضَ الأساطير) المُتّصِلة بالفترة الّتي سبقتْ ظهُور النبيّ، ثُمّ قِصّة مولده وطفولته، ونشرتُ هذه السِّلسلة تحت عنوان مقتبس من (جيل لومتير)، وهو (على هامش السِّيرة). اعتمدتُ فيه على جوهرِ بعضِ الأساطير، ثمّ أعطيت نفسِي حُريّةً كبيرةً في أنْ أشرحَ الأحداثَ، وأخترعَ الإطارَ الّذي يتحدَّثُ عن قُرْب إلى العقُول الحديثة".

أمّا كتابه (في الشعر الجاهلي)، الّذي نشرَهُ في سنة ١٩٢٦م، وتمّ تعديلُه لاحِقاً إلى (في الأدب الجاهلي)، فقد كان مُتأثِّراً - في أغلبِ طرُوحاتِه الرّئيسة الّتي بثّها فيه - بالمُستشرق الإنكليزي ديفيد صمويل مرجليوث - David Samuel Margoliouth (١٨٥٨ - ١٩٤٠)، في بحثه الموسُوم (أصول الشعر العربيّ)[٢٤].

وبناءً على هذهِ الحقيقة، فإنّ كتابَ (طه حسين) لا يزيدُ عن كونِه حاشيةً وتعليقاً على هذا الكتاب، الّذي كان في أصلِه بحثاً، حتّى وُسِمَ تهكّماً بأنّه "حاشية طه حسين على متنِ مرجليوث". وبناءً على هذا؛ فإنّ أفكارَ طه حسين وأمثالِه المُتعلِّقة بالشِّعر الجاهليّ ليستْ إلّا مُجرّد سَطْوٍ على أفكارِ المُستشرقين الّذين جاءوا قبلَهم.

وهذا يعني أنّ من أُطلِق عليهم رُوّاد النّهضة العربيّة كانوا مُجرّد مُترجمين لأفكارٍ وافدة نحلُوها لأنفسِهم، فكانوا بمثابةِ جسرٍ عريض لنقلِ الفكر الغربيّ بمحاسنِه ومثالبِه، وكان احتفاؤُهم واحتفالُهم بالمورُوث الوافِد أعظم وأكبر من اعتزازِهم بميراثِهم الّذي يمتّون إليه بصلاتٍ تاريخيّة جغرافيّة لا يُمكن إنكارُها أو التّغاضِي عنها، وكان مثلهم في ذلك كمثلِ الّذي يُنكر فضل أبيه، ومن ثَمّ يتطاول عليه.

٢٤- The Origins of Arabic Poetry: Journal of the Royal Asiatic Society. July1925 pp.417/449.

والطّريف أنّ الدكتور طه حسين تُوِّجَ عميداً للأدبِ العربيِّ على الرّغم من وجودِ مَنْ كان أجود منهُ أدبًا، وأغزر منه عِلْمًا، وأبحر منه ثقافةً، ولكن ما ميَّزَهُ عن غيره أنه تخلّى عن هُويَّتِهِ الإسلاميَّة، وتمرّد على مشرُوعِ الأُمَّة ومنظومتها، فاحتضنته مؤسساتٌ غربيَّةٌ هنا وهناك، دافعتْ عن أدبه، ورفعتْهُ إلى مَصافِ العُظماء، وعندما نشرَ كتابه (في الشعر الجاهليِّ) سنة ١٩٢٦م، تظاهرَ النّاسُ احتجاجًا على ما جاءَ فيه من تطاوُلٍ صريحٍ على ما يُعرف مِنَ الدِّين بالضّرورة، فخطبَ (سعد زغلول) - رئيس مجلس النوّاب في حينه - في المتظاهرين؛ قائلاً: "إنّ مسألةً كهذِه لا يُمكن أن تُؤثِّرَ في هذهِ الأُمَّةِ المُتمسِّكةِ بدينها، هبوا أن رَجُلاً مجنونًا يَهْذِي في الطّريق، فهل يضيرُ العقلاءَ شيءٌ مِنْ ذلكَ. إنّ هذا الدِّينَ متينٌ، وليسَ الّذي شَكّ فيهِ: زعيمًا، ولا إمامًا، حتَّى نخشى مِنْ شكِّهِ على العامَّة، فليشكّ ما شاء، ماذا علينا إذا لم تَفْهَمِ البقر"[٢٥].

وأشهر مثال يُضْرب على محاكاةِ أفكارِ المستشرقين من لدن العديد من الكُتّاب العرَب؛ هو موضُوع (العبقريّات)، وهي فكرةٌ ألمانيّة، إذ يعتقد الألمان أنّ العباقرةَ هُم الّذين يصنعُون التّاريخ. تلقّف هذه الفكرةَ العقّادُ، وراح في صَمْتٍ وجِدّ عجيبٍ يقرأُ التّاريخَ بعينِ الألمان، وخرج علينا بسلسلتِهِ الشّهيرة (العبقريّات)، وردّد التبع المُنهزِمون، أصحابَ العقُول الخاوية والمنابر العالية، مَنْ يبحثون عن أيِّ جديد يُكلِّمون به النّاس في زواياهم الصحفيّة، أو خُطَبهم الدوريّة. فكانت أشبه ما تكون (بالمُوضة)، أو (التّقليعة) بلهجة أهلِ مصر، كما كتبَ العديدُ من الكُتّاب عن خالد بن الوليد، وعن غيرِه من الجيل الأوّل بمنظور (العبقريّة)[٢٦].

ومن الّذين تأثّروا بفكر المُستشرقين المُغرضين (زكريا بطرس)، ومن أهمِّ المصادر التّي اعتمدَ عليها (بطرس) في إثبات ما يتكلّم به، بل يفتريه على الإسلام، دائرة المعارِف الإسلاميّة Encyclopedia of Islam. والسّؤال المطرُوح هنا: تُرى ما حقيقة هذه الموسُوعة الّتي يعتمدُ عليها (بطرس) بشَكْل كبير؟ ولماذا يرفضُ المُسلِمون دائرة المعارِف الإسلاميّة، كمصدر يُستدَلّ به على الإسلام؟ وقبل الإجابة عن هذا السّؤال، لا بُدّ من الإشارةِ إلى أن هناك كتُبًا ودراساتٍ وأطروحاتٍ جامعيّة عن هذِه الموسُوعة، يُمكن الرّجوع إليها؛ ومنها: أطروحة دكتوراه بعنوان (دائرة المعارف الإسلاميّة - أضاليل وأكاذيب)، للدكتور إبراهيم عوض، وأطروحة دكتوراه

٢٥- الإسلاميون والعلمانيّون من الحوار إلى الحرب، ممدوح الشيخ، ص٤٣.
٢٦- دراسة بحثية تحليلية مختصرة لمصادر زكريا بطرس التي يعتمد عليها، محمد جلال القصاص، صيد الفوائد:http://www.saaid.net/Doat/alkassas/z/3.htm

أُخرى عنوانها (العقيدة الإسلاميّة في دائرة المعارف الإسلاميّة)، للدكتور خالد بن عبد الله القاسم، وصدر عن غيرهما دراساتٌ أُخرى في الموضوع ذاتِه[٢٧].

إنّ دائرة المعارف الإسلامية (Encyclopedia of Islam) هذه، صدرتْ عن دارِ نشرٍ هولنديّة تسمّى بريل BRILL، وهي ليستْ دارُ نشرٍ إسلاميّة. ظهرتْ أوّلُ طبعةٍ منها بين عامَيْ (١٩١٣ و١٩٣٨) بعِدّة لُغات، ثمّ ظهرتْ نُسَخ مُختصَرة منها عام (١٩٥٣)، ثمّ بدأ العمل في الطّبعة الثانية عام (١٩٥٤)، واكتملت عام (٢٠٠٥).

وقد ذكر ستيفن همفري (Humphreys Stephen) أُستاذ التاريخ الإسلاميّ بجامعة (كاليفورنيا – سانتا باربارا)، في كتابه (التّاريخ الإسلامي: إطار البحث) Islamic History: A Framework for Inquiry ما نصّه:

"دائرة المعارِف الإسلاميّة مُؤلَّفة بالكامِل من قِبَل باحِثين أوروبيِّين، وهي لا تُعبِّر إلّا عن النّظْرة والمفهُوم الأوروبيّ للحضارةِ الإسلاميّة. وتناقِضُ هذه المفاهِيم وتختلفُ اختلافًا كبيراً عن المفاهِيم الّتي يُؤمن بها ويتبعها المُسلِمون أنفسهم. وما ذُكر في هذِه الموسُوعة لا يتوافَقُ مع التّعاليم والمبادئ الإسلاميّة للمراجع الإسلاميّة؛ كالأزهر، بل يتناقضُ معها"[٢٨].

أمّا القائِمُون على هذِه الدّائِرة؛ فهُمْ مجموعةٌ من المُستشرقين النَّصارى واليهود المعرُوفين بحِقْدهم على الإسلام والمسلمين؛ من أمثالِ: المُستشرق الهولندي أرند جان فنسنك A. J. Wensinck، وهو من أشدِّ المتعصِّبين على الإسلام، وقد كان عضواً بمجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، وفُصل منه نتيجة مُؤلّفاته الّتي هاجمت الإسلام والقرآن والرّسول، وهذا المُستشرق المُتعصّب؛ هو المُشرِف على الطّبعة الأُولى[٢٩].

وقد شارك في إعداد هذه الموسُوعة أيضًا المُستشرق الفرنسيّ لويس ماسينيون Louis Massignon، وهو رائدُ الحركةِ التبشيريّة في مصر. وقد اشتهر بالعمل على تنصير الأمُيِّين من خلال خِداعهم بتحوير آيات القُرآن الكريم لإيهامهم بمُوافقتِها النَّصرانية. والمُستشرق ديفيد صموئيل مرجليوث David Samuel Margoliouth ، وكان قِسّاً بالكنيسة الإنكليزيّة، وعرف عنه

٢٧- دراسة بحثية تحليلية مختصرة لمصادر زكريا بطرس التي يعتمد عليها.
٢٨- المرجع نفسه.
٢٩- المرجع نفسه.

التعصّب ضدِّ الإسلام. وأدوين كالفرلي Edwin Calverley، وهو مُنصّر أمريكي مُتعصّب، رأس تحرير مجلة (العالَم الإسلاميّ) التنصيريّة[٣٠].

وقد اشترك أيضاً كثيرٌ من اليهود في تحريرها؛ مثل: المستشرق الهولندي جوزيف شخت Joseph Schacht، والمستشرق المجري اجْنَتْس جُولْدْتْسِيْهر Ignaz Goldziher، والمستشرق الإيطاليّ جورجيو ليفي دلا فيدا Giorgio Levi Della Vida، والمُستشرق الأمريكي برنارد لويس Bernard Lewis. و(لويس) هذا من أشدِّ المُناصرين لإسرائيل، وهو أستاذ صموئيل هنتنغتون صاحب مُصطلح (صِراع الحضارات) الّذي أعلنه عام ١٩٩٠م، وقصدَ به حتميّة الصِّراع بين الغرب والإسلام كعدوٍّ قادِم بعد انهيار الاتِّحاد السوفيتي، وجُلّ كتُبِه عن الإسلام تدعُو إلى مُحاربتِه بطُرُق شتّى. هذه مجرّد أمثلةٍ للقائمين على (دائرة المعارف الإسلاميّة) الّتي يستدلّ بها (زكريا بطرس)، وكلُّ مَنْ أراد أنْ يُهاجِم الإسلام في الشّرق والغرب[٣١].

ومن الكُتّاب الّذين سقطُوا في أسرِ المقُولاتِ الجاهِزة للفكرِ الاستشراقي المُغرض: محمّد شحرور، وذلِك في كتابِه (السُنّة الرسُوليّة والسُنّة النبويّة – رؤية جديدة)، إذ حكمَ فيه على الأحاديثِ بتعميمٍ وانتقائيّة، بَلْ وبأحكامٍ إسقاطيّة جائِرة، وهذا الكتابُ ما هو إلّا تفصيلٌ لِمَا ذُكِرَ (مُختصراً) في (الكتاب والقرآن) حول السُنّة. هذا وقد "عمد شحرور إلى إيراد كثير من الأحاديث، بغضِّ الطرف عن أسانيدِها أو متونِها، مدّعيّاً وجُود تناقضُاتٍ فيها مع التّنزيل الحكيم؛ فالكثيرُ من الأحاديثِ – بزعمه – وُجدت لتبرير دوافِعَ سياسيّة أو أيديولوجيّة"[٣٢]. فقد زعمَ أنّ الأطرافَ السياسيّةَ مدى القرُون الخمسة عشر الماضية، قد استخدمتِ الحديثَ لأغراضٍ سياسيّة بحتة لإثباتِ شرعيّتِها وتثبيتِ حُكْمِها، وذلك من خلالِ "التّوظيف الانتقائيّ للحديثِ النبويّ كسلاحٍ يَحسِمُ النِّزاعاتِ مِنْ خلال إثباتِ مزاعِم أحدِ الطّرفين، وإسباغ غطاء الشرعيّة عليها"[٣٣]. وفي هذا تعميمٌ وحكمٌ إسقاطيّ جائِر بحقِّ الصحابة الّذين كانُوا يتورّعون ويحتاطون كثيراً في نقلِ الحديث، بل كانوا يتشدَّدُون في تعظيمِه وتوقيرِه، والإقلال من الرِّواية والتحرّز فيها احتياطاً، فكيف بتوظيفها واستثمارِها وتحميلها ما لا يحتمل. و(شحرور)، في

٣٠- المرجع نفسه.
٣١- المرجع نفسه.
٣٢- الرؤية الشحرورية للسنة النبوية، معاذ بني عامر، http://www.mominoun.com/articles مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
٣٣- السُنّة الرسُوليّة والسُنّة النبويّة رؤية جديدة، د. محمد شحرور، ط (١)، دار الساقي، بيروت - لبنان، ٢٠١٢م: ص١٥.

شُبهته هذهِ، يعتمدُ على أدلة المُستشرقين الّذين زعمُوا أنّ الحديث بقيَ مائتي سنة غير مكتُوب، ثمّ بعد هذه المُدّة الطّويلة قرّر المُحدِّثون جمعَ الحديث، وقد ردّد عددٌ من المُستشرقين هذه الشُّبهة؛ منهم المستشرق المجري اجْنَتْس جُولْدْتْسِيْهر (١٨٥٠ - ١٩٢١)، والنّمساوي لويس شبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣م)، والهولندي رَينْهَارْت دُوزِي (١٨٢٠- ١٨٨٣م). فقد عقد "جولدتسيهر" فَصْلاً خاصّـًا حولَ تدوين الحديثِ في كتابه (دراسات إسلاميّة)، وشكّك في صِحّة وجُودِ صُحفٍ كثيرة في عهد الرّسُول - صلّى الله عليه وسلّم -، ورأى (شبرنجر) في كتابه (الحديث عند العرب)، أنّ الشرُوع في التّدوين وقع في القرنِ الهجريّ الثّاني، وأنّ السُنّة انتقلتْ بطريقِ المُشافهة فقط. أمّا (دوزي)، فهو يُنكر نسبة هذه "التّركة المجهُولة" - بزعمه - من الأحاديثِ إلى الرّسُول - صلّى الله عليه وسلّم -.

وقمين ذكرُه هنا أنّ المشكلة هذه طالتْ حتّى الكُتُب الّتي تناولتْ قضايا الإسلام في التّاريخ. فمُعظم الباحثين في الفكر الإسلاميّ استندُوا على كتاباتِ المُستشرقين، ومُعظم الكُتّاب الّذين تناولوا الفلسفةَ الإسلاميّةَ، أو التّاريخَ السياسيَّ للدّوُل، عادُوا إلى كُتُب المُستعربين، وأخذُوا منها ما أخذُوه، وأعادُوا إنتاجَه، وكأنّ الباحِثَ العربيَّ لا يعرِفُ العربيّة، ويحتاجُ إلى (مُستشرق)، أو (مُستعرب)، ليَدُلّه على تاريخه وتُراثه وفلسفته[٣٤]. فالحداثيُّون العرب كانوا ينظرُون إلى المُستشرقين نظرةً ملؤُها الاعتزازُ والافتخار، فكانوا يُردِّدون - دون تدقيقٍ وتحقيق - أفكارَهم، وينتحلون آراءهم، ويعيدونها وكأنّها الحقّ المُبين، وكلّ ما دُونه باطِل وضلال، وهذا كان سببـًا في نشرِ صُورةٍ منقوصة مُشوّهة عن التُّراث والتّاريخ الإسلاميِّين، من خلال تقديمِ نماذجَ تاريخيّة تَخْدِم توجّهاتهم، وتُرْضي ميولهم، وتُعزِّز قناعاتِهم.

ويُسْتثنى من هذه القاعِدة الكثير من الباحِثين الّذين اشتغلوا في حقُول اللّغة والتاريخ والتُّراث والفلسفة دُون (واسطة) أجنبيّة، أو توسّط تلك الكتابات الّتي تناولتْ تاريخَ الإسلام والمسلمين. وهذا الاستثناءُ يُؤكّد القاعِدة ولا يُلغيها. ومن الطّريف أنْ نشير هنا إلى جانِب من هذا الفكرِ المأزوم، إذ صدرت في بيروت في سبعينيّات القرن الماضِي ترجمة كتاب (ايف لاكوست) عن ابن خلدون. وقام المُترجم بتعريب نصُوص (فقرات الاستشهاد) الّتي اعتمدها المفكّر الأجنبي من المقدّمة، دُون العودة إلى كتاب ابن خلدون نفسِه في نصِّه العربيّ. وكانت

٣٤- أزمة فكر أم أزمة تفكير؟ نويهض.

النتيجة: أنّ (لاكوست) لا يقرأُ العربيّة، بل اعتمدَ على التّرجمةِ الفرنسيّةِ لمقدّمة ابن خلدون. وتبيّن لاحِقًا أنّ التّرجمة الفرنسيّة اعتمدتْ هي الأُخرى على ترجمةٍ إنكليزيّة للمُقدّمة. أي إنّ (لاكوست) اعتمدَ على نصٍّ مُترجَم عن النصِّ العربيّ الأصليّ. وبعدها جاءَ المُترجم (العربيّ بامتياز) بنقل النصِّ الفرنسيّ إلى العربيّة، بما فيها تلك النّصُوص (مقاطِع ابن خلدون) المُختارة بعناية من المُقدّمة. وهكذا خرجتْ أفكارُ ابن خلدون عن سياقِها وزمانِها، وعادت إلينا المُقدّمة مُترجَمةً عن نصٍّ فرنسيّ مُترجم بدوره عن نصٍّ إنكليزي، فجاءت الكلماتُ مُختلِفة، والصِّياغة مُغايرة، والمُفردات لا عَلاقة لها بالمُصطلحات الّتي اشتهرَ بها ابنُ خلدون. باختصار كانتِ النّتيجة صدُور مقاطِعَ من مقدّمة ابن خلدون تُقارب أفكارَه، وليست لها عَلاقة بالنصِّ الأصليّ[٣٥].

والفضيحة الكُبْرى أنّ هناك الكثيرَ من رُوّاد تيار "الحداثة" يستشهِدُون بأفكارِ "ابن خلدون" بالعودة إلى كتاب (لاكوست) المُترجَم عن الفرنسيّة دُون أنْ يُكلِّفوا أنفسَهُم عناءَ البَحْث عن تلكَ الأفكار النيِّرة في مقدّمة ابن خلدون المُتوافرة في مُعظم المكتباتِ العربيّة. هذا النّوع مِنَ "الكسل المعرفيّ" يدلُّ على مدى استخفافِ المثقّفِ العربيِّ في التّعاطِي مع شؤُون الفكر، وتحديداً في الحقُولِ الّتي تتناولُ الكثيرَ مِنَ المفاهِيم الخطيرة ذاتِ الصِّلة بالإسلام والتّاريخ والفِقْه[٣٦]. فهناك إذاً؛ العديد من الدِّراسات المُترجمة إلى العربيّة كانت سبباً في تشويه الكثير من نصُوصِ التُّراث العربيّ الإسلاميّ وفهمها على غير وجهها، وتلقّفها الكثيرُ من المثقّفين؛ فوجدُوها مُنبتّة الصِّلةِ عن أصلِها، وكأنّها سرديّات ونصُوصٌ مُغايرة لا وشيجة بينها وبين النصِّ الأصليّ المكتُوبِ بالعربيّة.

وهذا الأمر نفسه يمكن تطبيقه على مسألة التّصنيف الغربيّ لموقِع الإسلام ودوره الحضاري. فهناك مقولةٌ أطلقها هيغل عن العرب (والمسلمين)، وهِيَ أنّ الحضارةَ العربيّةَ (الإسلاميّة) هي حضارةٌ جامِعةٌ وغيرُ مُبدعةٍ. فهذِه الحضارةُ برأيه قامتْ بنقلِ الإبداع من غيرِها، وقامتْ بترجمتِه وحِفظه. فالعربُ برأي هيغل شعبٌ غيرُ مُبدِع ولا مُبتكِر، وإنّما ينحصرُ دورهُ في النّقل والجمعِ والحِفْظ، دون أنْ يُضيفَ إلى الموجُود جديداً مُبتكراً. وابتكر هيغل لتبرير مقُولتِه هذِه فكرة "الجِسْر". فالعربُ برأيه هُمّ مُجرّد جِسْر لنقلِ إبداعاتِ غيرِهم من

٣٥- المرجع نفسه.
٣٦- المرجع نفسه.

ضِفّة إلى أُخرى. ومن ثَـمّ فهـو يريـدُ أنْ يقـول: إنّ الحضـارةَ العربيّـةَ الإسـلاميّةَ ليسـتْ عربيّـة أو إسلاميّة، وإنّما هي منقُولة (مُترجَمة)، ومن ثَمّ أخـذت أوروبـا عـن العـربِ مـا هـو أصـلاً منقـولٌ عنهـا[٣٧]. وبنـاءً علـى هـذِه الفكـرة المُتحاملـة – غيـر العلميّـة – فـإنّ دورَ المُترجمـينَ مـن العـربِ والمسلمين، إنّما ينحصِرُ في نقلِ مفاهيم الغرب العلميّة واللغويّة إلى اللِّسان العربيّ، فهم مُجرّد أدواتٌ ناقلِة لا أثر لها في بناءِ المعرفةِ الإنسانيّة الفاعِلة.

وفكرةُ "الجِسْر" هذِه الّتي ابتدعها هيغل نجدها مُكرّرة عند فلاسفة أوروبـا كُلِّهـم مِـنَ القـرنِ التّاسع عشر إلى أيّامِنا هذِه. ومِنْ كَثْرة تَكْرارِهـا فُقِـد أصـلُها، وأصـبحت تُتَـداوَل بـين المُفكِّـرين الأوروبيِّين، وكأنّها حقيقةٌ نهائيّةٌ لا نِقاش حولَها. والفضيحةُ أنّ عشـراتِ المُفكِّـرينَ مـن العـربِ والمُسلمين "الحداثيِّين" قد أخذُوا هذِه الفِكْرة (الجِسْر)، وكأنّها مُسَلَّمة تاريخيّـة، وتبنّوهـا دُون نِقاش، ونسجُوا حولَها الكثيرَ مِـنَ الأفكـار المُبْهمـة عـن الفكـرِ العربـيّ (الإسـلاميّ)، وضَـحالة إبداعاتِـه. والنتيجـة أنّ المستشـرقين (والمسـتعربين) قـد أسـهمُوا لـيسَ فقـط في صـياغةِ ثقافتنـا المعاصرة وتشكيلِها، بَلْ شاركوا في ترسيم حدُود تفكيرِنا عن الماضي أيضـاً. فهـل الأزمـة فعـلاً هي أزمةُ فِكْر أم أزمةُ تفكير لها صلةٌ بمنهجيّة التّفكير في حاضِرنا وماضِينا ومُستقبلنا؟[٣٨].

هذا، وقد أخذ المفكِّرون الحداثيُّون العرب؛ الأفكار المُتعلِّقة بتصنيف المُفكِّرين المُسلمين، وترتيبهم بين عقلانيّ وغير عقلاني – وإعادة إدراج الفلاسفة المُسلِمين وَفْق نسقٍ تاريخي تتابُعي بين مُفكّر (مُبْدع) ومُفكّر سلفي – عن كتابات المُستشرقين والمُستعربين دُون تدقيقٍ أو اجتهادٍ في المسألة. فإذا قال المستشرقون مثلاً: إنّ الإمام الأشعري كان بداية نهاية الفكر العقلانيّ في العصر العبّاسي؛ لأنّه انشقّ عن المعتزِلة، وردَّ على مقالاتِهم، وجدْنا المثقّفين الحداثيِّين العرب يُردِّدون المقولةَ نفسَها، مع أنّ الوقائِع تُؤكِّد أنّ الأشعريّ أسّسَ منهجيّةً مُستقِلّة في التّفكير كان لها أثرُها الفاعِل في إطلاقِ ثورةٍ ثقافيّة في أدواتِ الفِقْه الإسلاميّ. وإذا قال المُستشرِقون: إنّ الإمامَ الغزاليَّ سدّد ضَرْبةً إلى الفلاسفة المُسلمين، من خلال الردِّ على مقالاتِهم بمقالاتٍ مُضادّة، كرّر المُثقّفون العرب (الحداثيُّون) المقُولةَ نفسَها، فهاجموا الغزاليّ دُون العودةِ إلى الابتكاراتِ الفلسفيّةِ الّتي وضع أُسسها المستقِلّة عن التّفكير الإغريقيّ

٣٧- المرجع نفسه.
٣٨- المرجع نفسه.

(اليونانيّ)[٣٩]. فالمادّة العلميّة الّتي تُقدّم في النّصوصِ الحداثيّة؛ هي مجرّد صدى لما نُشِر ويُنْشَر من كُتبٍ ودراساتٍ في النّسق الغربيّ الأوروبيّ، دُون مراجعةٍ نقديّة عقلانيّة، أو تحقيقٍ علميّ منهجيّ سليم.

ولا شكّ أنّ "هذه مشكلةٌ لا يُمكن تفسيرُها إلّا بالكسلِ العقليّ، أو بتغليب عناء التّرجمة والنّقل على عناءِ البَحْث المستقل في كتُب موجُودة في المكتبات والجامعات. والمُضحك في المسألة أنّ الأجنبيَّ يأتي إلى المنطقة العربيّة الإسلاميّة من آخِر الدُّنيا، ويمكُث فيها أربع أو خمس أو ست سنوات يتعلّمُ خلالَها العربيّةَ، ويطّلِع على النّصُوصِ القديمة، ويُراجِع تلك الكتُب الّتي يأنف الحداثيُّون الاطِّلاع عليها، ويعودُ إلى بِلاده ويُؤلِّف كِتاباً عن الفِقْه أو الفلسفة أو التّاريخ الإسلاميّ، ويُعاد تصديرُه إلى دُولِنا باللّغة العربيّة منقُولاً عن الإنكليزيّة أو الفرنسيّة أو الألمانيّة أو غيرها من لغاتٍ أجنبيّة"[٤٠]. فيتهافتُ المثقّفون عليها، وكأنّها فتحٌ جديد في الفكرِ والثّقافةِ والمعرِفة، دون أنْ يعرِفُوا أنّهم يُسهمون في تسويقِ فكرِ الآخر وترويجِه بقضّه وقضيضه، دون مُراجعةً أو مُحاججة، وهذا الذّوبان في فكرِ الآخرِ "يُشكِّل نمطاً آخرَ من التّفكير الّذي يفقد مُبرّراته الحقيقيّة حينما يفقد تفاعُلَه الحيويّ مع العالَم الخارجيّ، ويتمرّد بشَكْلٍ مُطلَق على تجاربه السّابقة، ويضع اللّوْم كُلّ اللّوْم على تُراثِه وأصُولِه، ليقعَ في مُعْضِلة فُقدانَ الهُويّة، ومن ثَمَّ لا يجدُ إلّا أفكار الغالبين، ليذُوبَ بكاملِه في الآخرين، مُتنصّلاً من تاريخه وماضيه، ومُنْصهِراً في حاضِرٍ مُنْقَطع لا أُسس له"[٤١].

والغرُور العقلانيّ الّذي يَزعُمُ أهلُه قُدرةَ العقلِ على الاستقلالِ بإدراكِ أيِّ شيءٍ، إلى الحدِّ الّذي يحكُمون فيهِ بـ(الاستحالة) على كُلِّ ما لا تدركُه عقولُهم، هو موقِفٌ أشبه ما يكونُ بعبثِ الطّفُولة، مع افتقارِه إلى براءةِ الأطفال![٤٢].

إنّ الّذي لا يُصدّق بما هو أبعدُ مِمّا تُدْرِكه التّجربة الحِسيّة والعقل المحدُود القُدرات، فينفي العلميّة عن كُلِّ ما لا يخضع للتّجريب والاختبار الحي، هو أشبهُ ما يكونُ بمن يُكذّب بوجُودِ ما لا تُدْرِكه عينُه المُجرّدة، قبلَ اختراعِ العقل (للميكرسكوب)، و(التيلسكوب)

٣٩- المرجع نفسه.
٤٠- المرجع نفسه.
٤١- أزمات الفكر والذات المشوّشة.
٤٢- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمّد عمارة، ص١٥.

وأمثالهما من وسائِل (التّكبير)، و(التّقريب)! هو أشبهُ ما يكونُ بمن يكذب بما لا يُحيطه عقلُه، حتّى ولو أحاطت به عقُول الآخرين! هو أشبه بمن يختزِل الحقيقةَ إلى الحَجْمِ الّذي يستوعِبُه ويتّسِع له إدراكُه المحدُود[٤٣].

وبناءً على ذلِك، فإنّ (نصوصَ) (الثّابِت) الإسلاميّ - الّذي اكتملَ بتمامِ الوحي - هي نصُوصٌ مُتناهية، بينما وقائِع الحياة وواقعها هي رحمٌ وَلُود بالجديدِ الّذي لا يعرِفُ التّناهِي والحدُود. وهُنا يتمثّل التّجديد في صُورةِ (الفرُوع) الّتي تحمِلُ رُوحَ (الثّابِت) وأصُوله، ومزاجه العقديّ والحضاريّ، كي يستظلّ بها هذا الواقِع الجديد. فالجديدُ الّذي لا يستمِدُّ شرعيّته وخصُوصيّته من "الثّابِت" لا يُعدُّ تجديداً؛ لأنّه يقطعُ صِلات الواقِع الجديد بالأُصُولِ الثّابِتة. إنّه نَسْخٌ للثّوابت، وليس "تجديداً" لها، وكذلِك يفعلُ "الجمُود" الّذي لا يمدُّ "فرُوعاً" جديدة لتظلّل الواقِعَ الجديد، لأنّه يُؤدّي إلى النّتيجة ذاتِها، عندما ينسخُ "الواقِع" عنِ "الثّابِت الفكريّ"، فالجمُود، والاستلابُ الحضاريّ كلاهُما وَجْهانِ كَالِحانِ لعُملةٍ واحِدة، هي عُملة "السّلفيّة المُعطّلة"[٤٤].

فالموروثُ المتنوّع والغنيّ، الّذي يُمثِّل فهم السّلف للبلاغِ القُرآنيّ ولبيانِه النّبويّ، ذلك الفهم الّذي أبدعه أسلافُنا في علُومِ الحضارةِ، ثقافةً ومدنيّةً، فإنّه بالنّسبة لنا "كنزٌ - مرشدٌ"، علينا أنْ نتعامَل معه بعقلٍ مُعاصِر، ونظرةٍ ناقِدة، وفكرٍ مُستنير، لنسترشِدَ ونهتديَ بما فيه من علمٍ نافِع ما زالَ صالِح العطاء، لنُنْعِش به ذاكِرة الأُمّة، ونَشْحَنَ به كبرياءها المشرُوع اللّازِم لها وهي تُواجِه أعتى التّحدّيات، ولنوفّر جهُوداً كثيرةً تلُزمنا إذا نحنُ أهملناهُ، وبدأنا من حيثُ بدأ الأسلاف.. أمّا ما تجاوزَهُ التطوّر من إبداعِ السّلف، فإنّنا نتجاوزه، مُعتزّين به، وواضعين إيّاه في مُتْحف التاريخ الفكريّ، مادّة للعِظة والعِبْرة، ووثيقة في دراسةِ هذا التّاريخ! تلك هي حدُود "الاستلهام"، و"التّجاوز" لما ورثناهُ من إبداعِ أسلافِنا في ميادينِ الفكرِ والممارسات[٤٥].

إنّنا مدعوّون إلى "حفظِ" كُلِّ تُراثِنا، حِفاظاً على ذاكرةِ الأُمّة، واستفادةً بخبراتِ السّلف، على النّحوِ الّذي يضيفُ أعمارَهم إلى أعمارِنا، ومدعوّون إلى أنْ "نُحْيِي" من هذا التُّراث في واقِعنا المُعاصِر ما لديه صلاحٌ وصلاحيّة، كي يُزامِل إبداعنا الجديد في تحقيقِ المصالِح

٤٣- المرجع نفسه، ص١٦.
٤٤- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، ص٢١- ٢٢.
٤٥- المرجع نفسه، ص٢٢- ٢٣.

الشرعيّة المُعتبرَة والعصريّة لأُمّة تُزاحِمُ الأعداء وتُواجِه التّحديّات، وترنُو إلى مُستقبل أكثر إشراقًا من الكثيرِ من صفحاتِ تاريخِها الطّويل![٤٦].

فما يحتاجُ إليه العالَمُ الثّالِثُ ليسَ المادّة، بل الأفكارُ العمليّة النّافِعة، وهذِه الفكرةُ فهمناها مع دخُولِ عصرِ المعلُوماتِ. والأفكارُ في مجتمعاتِنا هي أكثرُ بكثيرٍ من حاجتِنا، فقد أصبح كُلُّ فردٍ من أفرادِ المجتمع يُفكِّر ويطرحُ ويُناقِش ويُعارِض. لقد امتلأتِ المنابِرُ والطُّرُقاتُ بالأفكارِ والقناعات والرُّؤى والتوجّهاتِ، فنحنُ نعشَقُ التّفكير ولو بصَمْت، حتّى لو كانتِ الأفكارُ بلا قيمة، أو عديمة النّفع والفائِدة، وبعضُ المُشتغلين بهذا التّفكير لا يعرِفُ أين يصل بفكرِه وأفكارِه، ولا أين ستُوصِله أفكارُه. فالقضيّةُ ليستْ في امتلاكِ أفكارٍ، بل ماذا يُمكن أنْ نجنِي منها منطقيًّا وعمليًّا. المالُ لا يصنعُ الأفكار، ولكنّ الأفكارَ الحقيقيّة هي ما تُكْسِب الأموال؛ فالاستثمارُ الماليُّ ما هو إلّا نتاجُ أفكارٍ عمليّة بسيطة، والشّبكاتُ الاجتماعيّة بدأتْ كأفكارٍ مُتواضِعة، ولكن ماذا رَبِح هذا الفِكر؟ الكثير والكثير.. وإذا نظرنا إلى بعضِ المحسُوبين على الفكر العربيّ المُعاصر، وجدنا في مؤلّفاتِهم أفكاراً مُتناقِضة، وسِجالاتٍ مُتصارعة، وجدليّاتٍ عقيمة، وقناعات مُتشائِمة، وخلافاتٍ متُنامية لا جَدْوى منها. إنّ نشاطَنا الفكريّ في مُجتمعِنا يختزِلُ طاقتَنا العمليّة في الانشغالِ بالأقوالِ وليسَ الأفعال، فما أكثرَ الجدل وما أقلّ العمل! وهذا يعني أنّ الكثير من المفكِّرين انشغلُوا وأشغلونا بأفكارِهم الجدليّة المُتناقِضة المُتصارِعة، دُون حرصٍ على الفعلِ والإنتاج. والدّليل على ذلِك الآلاف من النِّتاجاتِ الفكرّية الّتي تُطبَع هُناك أو هناك دُون أنْ يكون لها أثرٌ واضِح ملمُوس في البنيةِ المجتمعيّة الفاعِلة، وكم من الندواتِ والاجتماعاتِ الّتي تُقام هُنا وهُناك، وتُطرح فيها المئات مِنَ الأفكار، فَضْلاً عن إقامةِ العديد والعديد من البرامج واللِّقاءات المُتخمة بالأفكارِ، يُضاف إلى ذلك الكثير من اللِّجان الّتي تقذِف المئاتِ مِنَ الآراء.. فأزمتُنا إذاً؛ هي ليست أزمةُ أفكارٍ، بل أزمةُ فكرٍ عمليّ مُنتِج، يقومُ على أساسٍ من الدِّين الخالِص، والحقّ الدّامِغ، والرُّشْدِ والرّشاد، أزمتُنا هي أزمةُ حوارٍ يُنتِج فكراً، وأزمةُ فكرٍ يُنتِج حِواراً، أزمتنا هي أزمةُ أفعالٍ وليستْ أزمة أفكار[٤٧]. فالمزيدُ مِنَ

٤٦- المرجع نفسه، ص٢٣.
٤٧- أزمة أفكار أم أزمة أفعال؟ عبد العزيز يوسف، اليوم، ٢٠١٢م.
.https://www.alyaum.com/articles/832265/%D9%83%D9%84

الجدل يُؤدِّي إلى مزيدٍ مِنَ الكسل، وقِلّة في العمل، وكُلّما زاد الجدل قلّ العمل، كما أنّ قِلّة التّفكير يؤدِّي إلى التّسطيح الفكريّ والهُزال المعرفيّ.

إنّ "الاستدراكَ الحضاريَّ" يُلزِمه استدعاء قويّ وصريح لـ"مشرُوعٍ" ينهضُ بالأُمّة من جديد، مشرُوع تتكامَلُ فيه الجهُود، وتتضافرُ من أجلِه الاهتمامات، وأيّ "مشرُوعٍ نهضويّ" لن يُكْتَب له النّجاح إلّا بتصويبِ المُعادَلة الّتي تُسلم مُقدّماتِها إلى نتائِجها، ومُدخلاتها إلى مُخرجاتها، فضلاً عن توافُر الشّرُوط والمُقدّمات، وتهيئة "المُناخ الثقافيّ". فلا جدوى مرجُوّة من طَرْحٍ جُزئي، يُوقِعُنا في "الأزمة" نفسِها الّتي نُعانِي منها، ولا بُدّ من الانعتاقِ مِنَ "التبعيّة الحضاريّة"، واستشعارِ حالةِ "التحدِّي والاستجابة"، وإصلاحِ "عالَمِ الأفكار"، و"عالَم الأشخاص"، من أجلِ إنتاجِ "عالَم الأشياء"، مُستنبتاً من بيئتِنا الثقافيّة، ومُتواكِباً مع حركتِنا التاريخيّة. فقبلَ (الإدارةِ) هُناك (الإرادة)، وقبلَ (الشّيءِ) هُناك (الفِكْرة)، وقبلَ (الأداةِ) هُناك (الإنسان).

وبناءً على هذا، فنحنُ بحاجةٍ ماسّة إلى "منهجيّةٍ رشيدة" تُرشِدنا في طريقِ نهوضِنا الحضاريّ، وإلى "فِقْهٍ جديد" يُمكّننا من تنزيلِ "فكرِنا" على "واقِعنا"، فأزمتُنا ليستْ أزمةَ "منهج"، وإنّما "أزمةٌ منهجيّةٌ"؛ أي: التّعامُل مع المنهج. وأزمتُنا ليستْ "أزمة فكرٍ"، وإنّما "أزمةُ تفكير"؛ أي: إعمال العقلِ والفكر، وأزمتُنا ليستْ "أزمة دِين"، وإنّما "أزمةُ تديُّن"؛ أي: تنزيلُ الدّين فَهْماً وتطبيقاً[٤٨].

وختاماً؛ علينا جميعاً أنْ نكون يداً واحِدة في وَجْهِ المُشكلاتِ الّتي تَعْصِفُ بنا، وينبغي ألّا نعفي أنفسنا من هذا التخلُّف الحاصِل، وما أحرى أنْ يكونَ خطابُنا مُناسِباً مُوائِماً المُستوى المعرفيّ لأفرادِ المجتمع الّذي نعيش فيه، فلا يتجاوز السّقف الفكريّ الّذي يَنْضوي تحته، ومن ثَمَّ الشروع بالخطواتِ الكفيلة الّتي تعملُ على ترشيد الوعي المجتمعي وترقيته، وتوسيع آفاقِه، ليتحسّسَ بنفسِه مُشكلاتِه الّتي يُعاني منها، ويعمل بنفسِه في سبيلِ البحث عنِ الحلُول النّاجعة النّاجِحة، لأنّ التّغييرَ يبدأ بالنّفْس؛ مِصداقاً لقوله تعالى في مُحْكَم تنزيلِه: [إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ] (الرّعد: ١١)❐

٤٨- أزمتنا "أزمة تفكير".. وليست "أزمة فكر"!، د. محمّد أكرم العدلوني، مجلة (إبداع)، العدد (١)، ص٣٤.

الوسطية والاعتدال

في فكر الإمام ابن القيم الجوزية

د. دحام إبراهيم محمد الهسنياني

تفسير آية الوسطية:

قال الله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**}[٤٩]. هذه الآية توجيه للخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول – صلى الله عليه وسلم - لتأييد ما في مضمون الكلام من التشريف[٥٠]. ويأخذ قوله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**} مقاماً متميزاً مهماً بين ساحات ومجالات الجعل الإلهي، ففي كون الله - جل جلاله - هو الذي (جعل)، وهو رب العالمين، بيده مقاليد كل شيء، دعماً وتأييداً لمن (جُعل) لينهض بالأمر، وتوليداً للثقة بالمقدرة والنصر. فهذا الجعل إناطة للتبعة، وتعويل وتخويل، وإعداد للمهمة، وحفز للهمة.. فإذا دمجناه بما فهمناه من مراد الآية (بالأمة) تبدي لنا حجم هذه (الوسطية) في الحقيقة والتكليف والتشريف،

(٤٩) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٥٠) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للإمام أبي السعود العمادي: ١٣٣/١.

ووزنها الذي استحقت معه الشهادة على الناس، كل الناس.. إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها.

ومعنى الآية: "جعلناكم أمةً خياراً عدولاً بين الأمم، فالأوساط محمية محوّطة، والأطراف يتسارع إليها الخلل، فهي أمة خيرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل، وتشهد على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة، ونصحوهم بما ينفعهم، ولكي يشهد الرسول – صلى الله عليه وسلم - عليكم بأنكم صدقتموه، وآمنتم به"[٥١].

معاني الوسطية عند ابن القيم:

١- **وسطية الدين:** الوسطية عند الإمام ابن القيم[٥٢] تفهم من وسطية الدين، حيث يقول: "ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له؛ هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد"[٥٣].

٢- **الوَسَطِيَّةُ اتِّباعَ الصِّراطِ المُسْتَقيم، والثَّباتَ عليه:** قال ابن القيم: "الصراط المستقيم الذي وصانا الله تعالى باتّباعه هو الصراط الذي كان عليه رسول الله، وأصحابه، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه، فهو من السبل الجائرة، وإن قاله من قاله. لكن الجور قد يكون جوراً عظيما عن الصراط، وقد يكون يسيراً، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله. وهذا كالطريق الحسي، فإن السالك قد يعدل عنه، ويجور جوراً فاحشاً، وقد يجور دون ذلك. فالميزان الذي يعرف به الاستقامة على الطريق، والجور عنه، هو ما كان رسول الله وأصحابه عليه. والجائر عنه: إما مفرط ظالم، أو مجتهد متأول، أو مقلد جاهل، فمنهم المستحق للعقوبة، ومنهم المغفور له، ومنهم المأجور أجراً واحداً، بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم في طاعة الله تعالى ورسوله، أو تفريطهم. ونحن نسوق من هدي

---

(٥١) تفسير روح البيان، إسماعيل حقي الإستانبولي: ٢٤٨/١.

(٥٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، من أعلام الإصلاح الديني في القرن الثامن الهجري. ولد في دمشق وتتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث تأثر به تأثرا كبيرا وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه. وسجن ابن قيم الجوزية وعُذِّب عدة مرات، وأطلق من سجنه بقلعة دمشق بعد وفاة ابن تيمية. وكان حسن الخلق، محبوباً عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها عدداً عظيماً، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً. ومن أبرز كتبه في مجال السياسة: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، كما أن له العديد من المؤلفات الأخرى في الشريعة والتفسير والفقه منها: أعلام الموقّعين عن رب العالمين؛ وزاد المعاد في هدي خير العباد؛ ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين؛ وتلبيس إبليس؛ وإغاثة اللهفان، والوابل الصيب من الكلم الطيب؛ والتبيان في أقسام القرآن، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، والروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء. و قد أدى ابن القيم دوراً بارزًا في الفكر الإسلامي الحديث، توفي في دمشق سنة ٧٥١هـ (البداية والنهاية: ٢٣٤/١٤، والأعلام: ٥٦/٦).

(٥٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ٤٩٦/٢.

رسول الله، وهدي أصحابه، ما يبين أي الفريقين أولى باتّباعه، ثم نجيب عمّا احتجوا به، بعون الله وتوفيقه. ونقدم قبل ذلك ذكر النهي عن الغلو، وتعدي الحدود، والإسراف، وأن الاقتصاد، والاعتصام بالسنة، عليهما مدار الدين"[٥٤].

٣- الوسطية تعني تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد.

ومن وسطية ابن القيم أنه لا يقف أو يتعصب على فتوى أو مذهب، رغم أنه حنبلي المذهب. فلقد عقد ابن القيم، في أحد مؤلفاته، فصلاً كاملاً، تناول فيه هذا المعنى أو المفهوم، عندما أشار إليه في مقدمة فصله بقوله: "هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به. فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد، في المعاش والمعاد؛ وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل. فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله"[٥٥].

٤- **الاستقامة:** الوسطية استقامة، ولو لم تكن على نهج الاستقامة لكانت انحرافاً، والانحراف إما إفراط أو تفريط. قال ابن القيم: "فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله"[٥٦].

ويؤكد ابن القيم - رحمه الله - هذه المعاني بقوله: "ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين؛ فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد"[٥٧]، "فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلة الأدب، والأدب: الوقوف في الوسط بين الطرفين، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدوداً له، فكلاهما عدوان، والله لا يحب المعتدين"[٥٨].

(٥٤) إغاثة اللهفان: ١٣١/١.
(٥٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ٢/٣.
(٥٦) مدارج السالكين: ١٠٥/٢.
(٥٧) مدارج السالكين: ٥١٧/٢.
(٥٨) المصدر نفسه: ٣٩٢/٢.

ويقول في موضع آخر: "فالفقه كل الفقه: الاقتصاد في الدين، والاعتصام بالسنة"[٥٩].

٥- **الوسطية في الأقوال والأعمال:** فسّر الإمام ابن القيم الجوزية قوله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**}، بأن وجه الاستدلال بالآية أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً. وهذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم، وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم، ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم، لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء، أعلم خلقه؛ من الملائكة وغيرهم، بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم، وتدعو لهم، وتستغفر لهم. والشاهد المقبول عند الله، هو الذي يشهد بعلم وصدق، فيخبر بالحق، مستنداً إلى علمه به، كما قال تعالى: {**إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}[٦٠]، فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقاً، من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يخبر به. فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم، فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوى وتكون خطأ، مخالفة لحكم الله ورسوله، ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله، إمّا مع اشتهار فتوى الأول، أو بدون اشتهارها، كانت هذه الأمة العدل الخيار، قد أطبقت على خلاف الحق، بل انقسموا قسمين: قسم أفتى بالباطل، وقسم سكت عن الحق، وهذا من المستحيل، فإن الحق لا يعدوهم، ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعاً، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه"[٦١].

قال ابن كثير: " والوسط ههنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم - وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها. وكما جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: {**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**}[٦٢] .."[٦٣].

(٥٩) إغاثة اللهفان: ١٣١/١

(٦٠) سورة الزخرف: ٨٦.

(٦١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ١٤٠/٤.

(٦٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٦٣) تفسير القرآن العظيم:١٩١/١.

قال الفخر الرازي: "الوسط هو العدل، فقوله تعالى: {**قَالَ أَوْسَطُهُمْ**}[٦٤] أي أعدلهم). وقال: "والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين من الخصماء". وقال: "وأعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه على سائر أطرافه على سواء، وعلى اعتدال. والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد، والأوساط محمية ومحوطة"[٦٥].

قال ابن القيم: والصواب "أن العدل وضع الأشياء في مواضعها التي تليق بها، وإنزالها منزلتها، كما أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه. وقد تسمى الله سبحانه بالحكم العدل"[٦٦].

فوسطية الإسلام تسعى إلى تحقيق منهج في الحياة، لإيجاد التوازن في حياة الإنسان الروحية والمادية، وفق فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ منهج يلتقي فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، لأن الإسلام دين عقيدة ترتكز على المادة والروح معاً.

قال ابن القيم - رحمه الله-: " والدين كلُّه بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه، والجافي عنه"[٦٧]. كما يقول - رحمه الله - أيضاً: " وما أمر الله بأمرٍ إلاَّ وللشيطان فيه نزغتان: إمّا إلى تفريط وإضاعة، وإمّا إلى إفراط وغلوٍ. ودين الله وَسَطٌ بين الجافي عنه، والغالي فيه؛ كالوادي بين جبلين، والهُدى بين ضلالتين، والوَسَط بين طرفين ذميمين، فكما أنَّ الجافيَ عن الأمر مُضيع له؛ فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحدِّ، وهذا بتجاوزه الحدَّ"[٦٨].

وبعد أن يؤكد أن دين الله - تعالى - بين الغالي والجافي، وأن خير الناس النمط الأوسط، بعيداً عن تقصير المفرطين، وغلو المعتدين، يقول: **"وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل لتوسطها بين الطرفين المذمومين. والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط"** [٦٩].

وقد اتضح من النصوص الشرعية المذكورة، وغيرها من أقوال العلماء المسلمين وفقهائها، أن الإسلام منهج وسط واعتدال في كل شيء؛ في التصور والاعتقاد، والتعبد والتنسك، والأخلاق والسلوك، والمعاملة والتشريع، وينهى عن الغلو والتطرف. فالنصوص الإسلامية آنفة الذكر تدعو إلى الاعتدال، وتحذر من التشديد والغلو والتنطع والتفريط، فمن خلال

(٦٤) سورة القلم، الآية: ٢٨.
(٦٥) تفسير الرازي: ٩٧/٤.
(٦٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ٢٧٦/١.
(٦٧) الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء: ٢٥٧/١.
(٦٨) مدارج السالكين: ٤٩٦/٢.
(٦٩) إغاثة اللهفان، ١٨٢/١.

تلك النصوص أصبح من الواضح الجلي أن الإسلام ينفر أشد النفور من هذا الغلو، ويحذر منه أشد التحذير.

فالاعتدال والوسطية مزية فريدة للإسلام، حتى يطمع كثير من الناس أن تحقق للبشرية عملاً مهماً. يقول (هاملتون جب): أؤمن بأن الإسلام لا تزال له رسالة يؤديها إلى الإنسانية جمعاء، حيث يقف وسطاً بين الشرق والغرب، وأنه أثبت - أكثر مما أثبت أي نظام سواه - مقدرة على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة، فإذا لم يكن بدّ من وسيط يسوي ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام، فهذا الوسيط هو الإسلام[٧٠].

قال ابن القيم - رحمه الله-: "وقد اقتُطع أكثر الناس، إلا أقلَّ القليل، في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه"[٧١].

الحاجة إلى الوسطية شرعاً، وضرورتها:

منهج الموازنات في الحكم على الناس، عند ابن القيم: من قواعد الشرع، والحكمة أيضاً، أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل، فإنه يحمل. ومن هذا قول النبي – صلى الله عليه وسلم - لعمر: (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[٧٢]. وهذا هو المانع له – صلى الله عليه وسلم - من قتل من جس عليه، وعلى المسلمين، وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر أنه شهد بدراً، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فتلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.

ولما حض النبي – صلى الله عليه وسلم - على الصدقة، فأخرج عثمان -رضي الله عنه- تلك الصدقة العظيمة، قال: (ما ضر عثمان ما عمل بعدها). وقال لطلحة، لما تطأطأ للنبي حتى صعد على ظهره إلى الصخرة: (أوجب طلحة).. ثم يعلق ابن القيم على هذه الروايات بقوله: "وهذا أمر معلوم عند الناس، مستقر في نظرهم، أن من له ألوف من الحسنات، فأنه يسامح بالسيئة، والسيئتين، ونحوها، حتى أنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة... والله سبحانه يوازن يوم

(٧٠) عالمية الإسلام، أنور الجندي: ٣٧.

(٧١) إغاثة اللهفان: ١ /١١٦.

(٧٢) رواه أبو يعلى وأحمد أتم منه، وقال فيه: غير أني كنت عزيزاً بين ظهرانيهم. ورجال أحمد رجال الصحيح. الهيتمي، مجمع الزوائد، ٤٩٩/٩.

القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة، الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً، من العفو والمسامحة، ما لا يفعله مع غيرهم"[٧٣].

ويقول ابن القيم أيضاً: "ومن له علم بالشرع والواقع، يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة، هو فيها معذور، بل مأجور، لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته، وإمامته، في قلوب المسلمين"[٧٤].

وأجمل أقواله فيمن أخطأ، قوله: "فلو كان كل من أخطأ، أو غلط، ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معالمها"[٧٥]، فالقاعدة عنده: "فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله...، ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح، ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته"[٧٦].

إن الوسطية حق وخير وعدل، ومطلب شرعي أصيل، ومظهر حضاري رفيع، ليتحقق التكامل والانسجام بين الأوضاع، والتعاون بين الجميع، ويصير الإخاء والإقدام على العمل أساس كل تقدم ورفاه. كما أن حالة الوسطية تؤدي إلى أداء الواجبات، وحقوق الله تعالى، وحقوق الناس، فلا تقصير في واجب، ولا إهدار لحق، ولا تقصير في الأداء، كما أنه لا تظالم أو تناحر، ولا صراع أو تنافس غير شريف، ولا تناقض في السلوك والممارسات الاجتماعية، ولا تعقيدات أو أمراض نفسية أو اجتماعية، لأن كل إفراط أو شذوذ، يؤدي إلى الاضطراب، وكل تفريط في أداء واجب، يكون سبباً في إثارة المنازعات والخصومات، وإغراق المحاكم بالدعاوى، وتعطيل الأوقات، وتجميد الأحوال.

إن الحياة الهادئة لا تصلح بغير توسط في الأمور، وإن التوفيق بين متطلبات الدين وشؤون الدنيا، والمصالح العامة والخاصة، أمر مرهون بتوافر القدرة على إنجاز المهام كلها[٧٧].

الحكمة ملمح من ملامح الوسطية: في معرض حديث ابن القيم ببيان معنى الحكمة، ومدلولها، في تفسيره، وبعض مؤلفاته، يتبين لنا وجه الشبه، والعلاقة الوثيقة التي تربط بين معنى الحكمة التي قصدها ابن القيم، وساق لها الشواهد والأمثلة، وبين مفهوم الوسطية

(٧٣) مفتاح دار السعادة: ١٧٧/١.
(٧٤) أعلام الموقعين، ٢٨٣/٣.
(٧٥) مدارج السالكين: ٣٩/٢.
(٧٦) مدارج السالكين: ٣٢٩/١.
(٧٧) الوسطية مطلباً شرعياً وحضارياً: ٧.

بشكل عام. ولسنا هنا في صدد تقديم مفهوم الوسطية والاعتدال عند ابن القيم، أو تقييم آرائه، بقدر ما نريد أن نقدم طريقته، ومنهجه، وأسلوبه في الخطاب، وقدرته في إصدار الأحكام، والتأصيل الشرعي، التي تتسم - كما تلمسناه في جميع كتبة ومقولاته وأحكامه – بالاتزان، والفهم العميق، والوضوح، والاعتدال، والمرونة، والشمولية، وذلك من خلال عرض أقواله المتناثرة في مؤلفاته حول معنى الحكمة، منتهزين بذلك الفرصة لعرض أكبر قدر ممكن من أقواله وآرائه، ولنطلع من خلالها عن كثب على منهجه العام في التفكير، وأسلوبه في إصدار الأحكام.

يقول ابن القيم: "وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق، والعمل به، والإصابة في القول والعمل. وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان. والحكمة حكمتان: علمية، وعملية. فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها؛ خلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً"[٧٨].

وبهذا التعريف يتبين ويتضح أن الحكمة لا تقتصر على الكلام اللين، أو الترغيب، أو الحلم، أو الرفق، والعفو، بل هي إتقان الأمور، وإحكامها، بأن تنزل جميع الأمور منازلها، فيوضع القول الحكيم والتعليم والتربية في مواضعها، وتوضع الموعظة في موضعها، والمجادلة بالتي أحسن في موضعها، ومجادلة الظالم المعاند في موضعها، وكما قال تعالى: {**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**}[٧٩]، ويوضع الزجر والقوة والغلظة والشدة والسيف في مواضعها، وهذا هو عين الحكمة. وقد قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**}[٨٠]، كل ذلك بإحكام وإتقان ومراعاة لأحوال المدعوين والأزمان والأماكن، في مختلف العصور والبلدان، وبإحسان القصد والرغبة فيما عند الكريم المنان[٨١].

ثم يذهب - رحمه الله – ليشير، في موضع آخر، معنى وتعريفاً ثانياً للحكمة، وهو: "أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه"[٨٢]، ويقول أيضاً: "الحكمة، إذاً: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي"[٨٣].

ولا يكتفي ابن القيم عند هذا الحد، بل يتعدى ذلك - رحمه الله - ليضع للحكمة أركان ودعائم، فيقول: "إن للحكمة أركان ودعائم تقوم عليها، وأركانها التي تقوم عليها ثلاثة،

(٧٨) مدارج السالكين: ٤٧٨/٢.
(٧٩) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٨٠) سورة التوبة، الآية: ٧٣.
(٨١) الوسطية للصلابي: ١٣٥.
(٨٢) مدارج السالكين: ٤٧٨/٢.
(٨٣) مدارج السالكين: ٤٧٩/٢.

هـي: العلـم، والحلـم، والأنـاة. وآفاتهـا، وأضـدادها، ومعـاول هـدمها: الجهـل، والطـيش، والعجلة. ولا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول"[٨٤].

منهج الوسطية في الرخص الشـرعية

وقد شـرع الإسلام الرخص، لرفع الضيق المؤدي في الغالـب إلى الحـرج والمشـقة، لفقـدان المصالح الضـرورية. ورفع الحرج مقصد مـن مقاصـد الشـريعة، وأصـل مـن أصـولها، فـإن الشارع لم يكلف الناس بالتكاليف والواجبات لإعناتهم، أو تحصيل المشقة عليهم. وقـد دل على ذلك القرآن والسنة، وانعقد الإجماع على ذلك. فمن القرآن قوله تعالى: ﴿**مَا يُرِيـدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾[٨٥]. وضـرب القرآن مثالاً للرخصـة في قولـه تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٨٦].

وفي الرخص الشـرعية، قال النَبي – صلىَ اللَه عليه وسلم -: (إن اللَه يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته)[٨٧]. وفي رواية: (كما يحب أن تؤتى عزائمه)[٨٨]. وقوله – صلى الله عليه وسلم -: (ما بال أقوام يرغبون عما رخّص لي فيه)[٨٩].

والناس مع الرخص الشـرعية طرفان، ووسط:

الطرف الأول: من يتمادى في أخذ الرخصة، ويسترسل معها حتى يخرج بها عن المقصـود الشرعي.

الطرف الثاني: من يتشدد في الورع، حتى يترك الرخص الشـرعية، ويشدد على نفسه.

الوسط: وهو الذي يعظـم أمـر الله، ونهيـه؛ فـلا يعارضـهما بـترخص جـاف، ولا يعرضـهما لتشديد غال، ويزهد في رخص الله تعالى.

ويفصل هذا الأمر الإمام ابن القيم، فيقول: "فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يعارضا بترخُّص جاف، ولا يعرِضا لتشديد غال؛ فإن المقصود هو الصـراط المسـتقيم الموصـل إلى الله تعالى بسالكه. وما أَمَر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإمـا إفـراطٌ وغُلُوّ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتـين، وإن وجـد عنـده حـذراً وجـدًّا، وتشـميراً ونهضة، وأيس أن يأخذه من هذا الباب؛ أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له أن هذا لا يكفيك،

---

(٨٤) مدارج السالكين: ٤٨٠/٢.

(٨٥) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٨٦) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٨٧) رواه الإمام أحمد في مسنده: ١٠٨/٢، برقم ٥٦٠٠، وابن خزيمة (٩٥٠)، وابن حبان (٢٧٤٢). ورواته ثقات. وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٨٨) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم ٨٢٦٣ وصحيح ابن حبان وإسنادها قوي أيضًا. وحسنه المنذري في "الترغيب والترهيب". وأخرجه الطبراني في "الكبير" (١١٨٨٠).

(٨٩) رواه أحمد: ٢٥٥٢١، ومسلم، بَاب عِلْمِهِ – صلى الله عليه وسلم – بِاللهِ، وَشِدَّةِ خَشْيَتِهِ: رقم (٢٣٥٦).

وهمتك فوق هذا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات، فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضأ للصلاة، فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدِّي، فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدِّي الصراط المستقيم؛ كما يحمل الأول على التقصير دونه، وأن لا يقربه. وقد فُتن بهذا أكثرُ الخلق، ولا يُنجِّي من ذلك إلا علمٌ راسخٌ، وإيمان وقوة على محاربته، ولزوم الوسط، والله المستعان"[٩٠]. وقال أيضًا: "ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط"[٩١].

التيسير وعدم الغلو والتطرف

إن من مظاهر الوسطية التيسير ورفع الحرج في الدين، واجتناب المغالاة، والتشدد فيه.

الإسلام سمح سهل مرن، معتدل، متوسط بين الإفراط والتفريط، وليس الإسلام متشدداً ضيقاً حرجاً، فلا إعنات ولا مشقة ولا إحراج في تعاليم الإسلام وأحكامه كلها، سواء منها أحكام العقائد أو العبادات والمعاملات، ونظام الأسرة، وجميع التكاليف الشرعية. وكذلك مبادئ الاقتصاد في الكسب والادخار والتوزيع والإنفاق، تقوم على التوسط بين الإسراف والتبذير، وبين الشح والبخل والتقصير.

يقول الإمام ابن القيم: "الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة، ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة: كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك؛ فهذا لا يتطرق إليه تغيير، ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه. والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له؛ زماناً ومكاناً وحالاً، كمقادير التعزيرات، وأجناسها، وصفاتها؛ فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة"[٩٢].

يتبين من ذلك أن التيسير لا يكون في أي مجال في الشريعة، بل له مجال لا يتخطاه، ومدى لا يتعداه، ونحن إنما نكون مع الأصول في صلابة الحديد، ونكون مع الفروع في ليونة الحرير، بما لا يتعارض مع المقررات الشرعية الكبرى. وفي ضوء هذا المضمون للوسطية الإسلامية الجامعة، نقرأ أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: (إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق)[٩٣].

ما أجمل هذا التوجيه النبوي لمن أراد أن يسلك طريق هذا الدين، فيجني من ثماره اليانعة، وينهل من معينه الذي لا ينضب، ويجانب السقطات والعثرات، حتى يأتيه اليقين

(٩٠) مدارج السالكين: ٥١/٢.
(٩١) الوابل الصيب: ٢٩.
(٩٢) إغاثة اللهفان: ٣٣٠/١ - ٣٣١.
(٩٣) رواه أحمد: ١٩٨/٣، رقم (١٣٠٧٤)، قال الهيثمي: ٦٢/١: رجاله موثقون.

وهو على جادة الفهم السوي، والصراط القويم؛ لأن هذا الدين كالبحر العظيم الذي يجدف فيه ألوف البشر، وكلٌ يريد السلامة والوصول إلى شاطئ الأمان، لكن هذا لن يكون إلا إذا رافق ذلك اتخاذ أسباب محاطة بالرفق والأناة، والتفكير العميق الواعي المتزن.

قال الإمام ابن القيم، في تعليقه على أحاديث اليسر: "فنهى النبي – صلى الله عليه وسلم - عن التشديد في الدين؛ وذلك بالزيادة على المشروع، وأخبر أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه؛ إمّا بالقَدَر، وإمّا بالشرع؛ فالتشديد بالشرع: كما يشدّد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر: كفعل أهل الوسواس؛ فإنهم شدّدوا على أنفسهم، فشدد عليهم القدر، حتى استحكم ذلك، وصار صفة لازمة لهم"[٩٤].

الوسطية في الطهارة والصلاة:

قال الإمام ابن القيم: "والأدب: الوقوف في الوسط بين طرفين؛ فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدوداً له؛ فكلاهما عدوان، والله لا يحب المعتدين. والعدوان: هو سوء الأدب. وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه، والجافي عنه. فإضاعة الأدب بالجفاء؛ كمن لم يكمل أعضاء الوضوء، ولم يوف الصلاة آدابها التي سَنَّها رسول الله، وفعلها. وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب. وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر بالأذكار، والدعوات، التي شرعت سراً، وتطويل ما السنةُ تخفيفه وحذفه، كالتشهد الأول، والسلام، الذي حَذْفُه سنة، وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله، لا على ما يظنه سُراق الصلاة، والنقارون لها، ويشتهونه؛ فإن النبي – صلى الله عليه وسلم- لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه، وقد صانه الله من ذلك..."[٩٥].

الوسطية والاعتدال في أمور العقيدة

لقد خلص التوحيد في عقيدة المسلمين لله تعالى مما شابه- بفعل تقادم العهد- من الشرك بالله، واتخاذ الأوثان والأصنام آلهة، كما خلص من كل دعوات التشبيه والتعطيل، التي ابتدعها أصحاب المذاهب، التي استمدت من ثقافات غير إسلامية. وخلص من كل الأفكار الضالة والمنحرفة عن كتاب الله تعالى، وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم-.

(٩٤) مدارج السالكين: ٥٦/٢.
(٩٥) مدارج السالكين: ٢١١/١-٢١٢.

لقد سادت بين أهل السنة والجماعة عقيدة التوحيد الخالص، ولم يتأثروا بما واجهوه من انحرافات وأباطيل، وقاوم فقهاء أهل السنة، وعلماؤها، التيارات المنحرفة، وهم أهل الاستقامة، وأصحاب الصراط المستقيم، والفرقة الوسط.

لقد كان لهؤلاء العلماء أكبر الأثر في الحفاظ على وسطية الأمة، وفكرها العقدي، المستمد من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية.. لقد كانت الوسطية - بمعناها القرآني-، هادياً وسراجاً للدعاة والفقهاء، وسط تيارات عقدية تريد أن تزحزح الوسطية، بمعناها القرآني، عن مكانتها في الفكر الإسلامي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالمسلمون وسط في التوحيد بين اليهود والنصارى: فاليهود تصف الرب بصفات النقص التي يختص بها المخلوق، كما قالوا إنه بخيل، وإنه فقير، وإنه لمّا خلق السموات والأرض تعب، وهو تعالى الجواد الذي لا يبخل، والغني الذي لا يحتاج إلى غيره، والقادر الذي لا يمسه لغوب، والقدرة والإرادة والغنى عما سواه هي صفات الكمال التي تستلزم سائرها.

والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها، ويشبهون المخلوق بالخالق، حيث قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم، وإن الله ثالث ثلاثة، وقالوا: المسيح ابن الله، و{ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**}[٩٦].

فالمسلَمون وحدوا الله، ووصفوه بصفات الكمال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، ونزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات، فهو موصوف بصفات الكمال، لا بصفات النقص، وليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله"[٩٧].

وما أجمل ما يفصله ابن القيم - رحمه الله - في باب الوسطية في العقيدة، فيقول: "الآن التقت حلقتا البطان، وتداعى نزال الفريقان، نعم، وههنا أضعاف أضعاف ما ذكرتم، وأضعاف أضعافه، وللناس ههنا مسلكان عليهما، يعتمد المتكلمون في هذا الباب لا نرتضيهما، بل نسلك مسلك العدل والتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، فدين الله بين الغالي فيه، والجافي عنه، والوادي بين الجبلين، والهدى بين الضلالتين.

وقد جعل الله هذه الأمة هي الأمة الوسط في جميع أبواب الدين، فإذا انحرف غيرها من الأمم إلى أحد الطرفين، كانت هي في الوسط، كما كانت وسطاً في باب أسماء الرب تعالى، وصفاته، بين الجهمية، والمعطلة، والمشبهة الممثلة.

---

(٩٦) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٩٧) منهاج السنة النبوية لابن تيمية: ١٦٩/٥.

وكان وسطاً في باب الإيمان بالرسل، بين من عبدهم وأشركهم بـالله؛ كالنصـارى. وبـين مـن قتلهم على ساقه. ولولا الأمر لما تميـز القـدر، ولا تبينـت مراتبـه وتصـاريفه، فالقـدر مظهـر للأمر، والأمر تفصيل له، والله سبحانه له الخلـق والأمـر، فـلا يكـون إلا خالقـاً آمـراً، فـأمره تصـريف لقدره، وقدره منفذ لأمره.

ومن أبصـر هذا حق البصـر، وانفتحـت لـه عـين قلبـه، تبـيّن لـه سـر ارتبـاط الأسـباب بمسبباتها، وجريانهـا فيهـا، وأن القـدح فيهـا، وإبطالهـا، إبطـال للأمـر، وتبـين لـه أن كـمال التوحيد بإثبات الأسباب، لا أن إثباتها نقض للتوحيد"[٩٨].

وأما الوسطية، والتوازن بين التوكل على الله تعالى، وفعل الأسباب، ففي التوكل عـلى الله، وفعل الأسباب، ترى الخلق -كما بيّن ابـن القـيم- بـين مـن عطَّـل الأسـباب، محافظـة عـلى التوكل، ومن عطَّل التوكل، محافظة على السبب. لكن الوسط بين هذا وذاك، مَـنْ علـم أن حقيقة التوكل لا تتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب[٩٩].

وأخيراً: لقد كان لمنهج الوسطية والاعتدال عند ابن القيم الجوزية، دور كبير في الإصـلاح، ونهضة الأمة. فكان يركز في مؤلفاته على منهج الوسطية والاعتدال، باعتباره مكونـاً أساسـياً في الأطر الإسلامية الفكرية والحياتية، مما يعزز دور الاعتـدال في أداء مهمتـه عـلى امتـداد الساحة الإسلامية.

وقد عني ابن القيم ببيان حقيقة الوسطية، ونشـر ثقافـة الاعتـدال بـين المسـلمين، ونبـذ التعصب والغلو في الأفكار والأعمال.. لتكون خصيصـة مـن خصـائص الإسـلام، وركيـزة مـن ركائزه.. ومنهجاً دعا إليـه، حتـى كـان واحـداً مـن أشـهر العلـماء الـذين يمثلـون الوسـطية والاعتدال في منهجه❐

(٩٨) مفتاح دار السعادة: ٢٤٤/٢.
(٩٩) الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء: ٢٥٥.

منهج العلامة ناصر سبحاني

في التربية الإيمانية وتزكية النفس

(الحلقة ١٢)

د. عمر عبد العزيز

✍ الحديث عن التربية والتزكية - لدى الشهيد سبحاني - ذو شجون، فلقد خصّ جلّ أعماله العلمية لموضوع العقيدة والإيمان، وتزكية النفّس والسلوك[١٠٠]. ولذا، وجدت نفسي متردداً أمام الكمّ الهائل مما تركه في مجال الإيمان والتزكية، فبدأت أفكر من أين أبدأ؟ وماذا أنقل عنه؟ فلقد ترك مئات الصفحات والساعات من الدروس يتحدث فيها عن الإيمان مفهومه وحقيقته، مقتضياته وآثاره، وعن التربية والتزكية، ومفهومهما، وطرق

[١٠٠] ـ من أهم أعماله العظيمة في هذا المجال: ١- تلخيصه لكتاب مدارج السالكين في (٢٤٥) صفحة، طبع عام ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، باسم تلخيص التهذيب، من قبل مؤسسة برهم. وقد ترجم إلى الكوردية . ٢- دروس باللغة العربية حول تزكية النفس، (٧ ساعات). ٣- دروس باللغة الفارسية حول الموضوع ذاته، (٦ساعات). ٤- تفسيره للآيات المتعلقة بموضوع الإيمان والتزكية، (عشرات الساعات).

تحقيقهما. وقد أدرك المرحوم - مبكراً - أن أجيالاً من أمة الإسلام أصيبت منذ وقت طويل في إيمانها، بل في فهمها للإيمان، كما أصيبت في مجال مفاهيم التزكية والتربية والتقوى وغيرها.. ومن هذه النقطة بدأت جهوده، فلقد شخّص العلَل بدقة، وعدّ المعلولات بإتقان، وأبرز الهدف بوضوح، وعرض العلاج بأمانة. فعلّة العلل - كما يراها - الجهلُ بحقيقة تلك المفاهيم، والنتائج هي ما يُشاهد من الجهل والتخلف والبدع، والهدف - كما يؤكد - هو التصحيح، والعلاج هو التربية الإيمانية وتزكية النفوس.

العلامة ناصر سبحاني، المثال والأسوة في الإيمان والتزكية:

لقد ألزم سبحاني نفسه بكل ما قال، وكل ما رأى، فأصلح نفسه وزكاها - ولا أزكيه على الله - وتورّع عن الحرام إلى أقصى حد يصل إليه العارفون، وزهد في كل ما لدى الناس من المال والشهرة والمتاع، متخذاً هدي القرآن مصدره. ثم إنه - رحمه الله - لم ينطلق من قواعد فلسفية، أو آراء كلامية، بل كان يرى أن إقحام التصور الفلسفي والجدل الكلامي في مباحث معرفة الله، والإيمان به، من شأنه التشويش، بل التشويه أحياناً، فالرؤية القرآنية - في نظره - هي التي تهدي الكينونة البشرية، لا سيما في مجال عملية تزكية النفس، بتخليتها عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل.

ومن جانب آخر، كان يؤكد - دوماً - على أن علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى هي علاقة المخلوق المأمور بالخالق الآمر، مستشهداً بقوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} الأعراف/٥٤. وهي علاقة العبودية الحقّة، العبودية التي لا تتحقق في الإنسان إلا بالإيمان ـ فهماً وامتثالاً ـ والتزكية، كما أكد القرآن في أماكن عديدة..

وباختصار شديد، إن العلامة سبحاني يأخذ بيد الإنسان الصغير، في معرض الكون الفسيح، خاشعاً متذلّلاً، أمام الخالق الرقيب العظيم، ليريه لوحات آياته العظام؛ في الآفاق وفي الأنفس، ليعود به مرفوع الرأس بعزة الإيمان، خليفة لله تعالى، يحمل الأمانة، صاعداً مدارج السالكين الواصلين، بطيّ منازل العابدين المستعينين.

وكان سبحاني يؤكد - في كثير من دروسه - على أن الإيمان - بالمعنى الذي فهمه ـ يقيناً، ثم تسليماً، ثم امتثالاً، وسلوكاً، هو الأسّ والمنطلق لعملية تزكية النفس. كما يرى أن الإيمان يكسب المؤمن شموخاً لا يُنافَس، وعزة لا تضاهى، حيث تغمره طمأنينة لا يحسها ولا يمسها إلا من ذاقها. فالإيمان - كما استنبط من معناه ومدلولاته - ينقل المؤمن من القلق إلى الأمن، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، ومن الغي إلى الرشد، ومن الاضطراب إلى الاستقرار، ومن الوحشة إلى الأنس، ومن الذل إلى العزة، ومن التردد إلى

الاستقامة والثبات. كيف لا؟ وهو معتصم بحبل الله، ومستمسك بهداه، ومحروس بعنايته، ومستهد بهدايته، ومستنير بنوره، ومغمور برحمته، ومتنعمّ بنعمه التي لا تحصى[١٠١].

وكانَ - رحمه الله - بنفسه مثالاً وقدوة مثلى في كل ذلك، فلقد ألزم نفسه بأداء نافلة الليل، وحرّم على نفسه التنوّم، فكان يرى أنه لا يليق بالأشهاد من الناس - من الدعاة والقادة والقدوات - أن يستقبلوا النوم، ويهيئوا له أجواءه، بل لا بدّ أن يغلبهم النوم، لا أن يتنوّموا، لا سيما في ظروف كهذه التي تمر على الأمة الإسلامية المحتاجة إلى شحذ الهمم، ومضاعفة الجهود، وشدّ الرحال.

ولقد شاهدت - شخصياً - هذا الذي أقوله؛ طيلة قرابة عشر سنوات، عشتها معه؛ في سفره وحضره، بين أهله ومع طلابه؛ شاهدته عشرات المرات وهو إما مستلق غلبه النوم وعلى صدره كتاب، أو منكباً على وجهه والقلم والقرطاس بين يديه، أو متكئاً يدغدغه نعاس لا يرغب في استقباله. ومع ذلك كان شديد الإيمان بربه، تتقاطر منه درر اليقين بصفات الله وأسمائه، طبق على نفسه مراتب التزكية النفسية التي اقتنع بها، والتي شرحها وتحدث عنها عشرات المرات في كتبه ودروسه، متجنباً مقت الادعاء المزيّف والتظاهر، الذي كان عدوّه الكبير، محققاً مطلب الانتهاء عما نهى عنه الله في قوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}الصف: ٢ـ٣.

إنني رأيت من الأمانة أن أسجل - في تقديم هذا المبحث - هذه الأسطر أمانة، وأن أروي ما شهدته، وقد سكتُّ عن غيره لكون المجال لا يسعه، وتجنّباً للاقتراب مما قد يحسبه بعض الناس غلوّاً وتعصباً أنا منه بريء، إن شاء الله، وتاركاً ما يريبني إلى ما لا يريبني.

الإيمان والتزكية في اللغة:

الإيمان لغة: إفعال من (الأمن) ضد الخوف. والإيمان: التصديق[١٠٢]. قال الراغب الأصفهاني: "أصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف. والإيمان يقال على وجهين: أحدهما متعدّ، يقال: آمنته، أي: جعلت له الأمن. ومنه قيل لله تعالى: المؤمن. والثاني: غير متعدّ،

---

[١٠١] ـ أكد الشهيد على هذه المعاني في كثير من دروسه، ينظر ـ مثلاً ـ (المسؤولية)، ودروس حول التزكية، وشرح الأسماء الحسنى وغيرها.

[١٠٢] ـ ينظر: الفراهيدي، العين، ص: (٤٠). والرازي، مختار الصحاح، ص: (٢٦). والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص: (١٥١٨).

ومعناه: صار ذا أمن. والإيمان يراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل ـ حسب ذلك ـ بالجوارح[١٠٣].

وأما التزكية، فتفعيل من زكا يزكو زكاء، بمعنى: ازداد ونما. قال الفراهيدي: "كل شيء ازداد ونما، فهو يزكو زكاءً. وزكا الرجل: صَلُح[١٠٤]. وقال الراغب الأصفهاني: "أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله. يقال: زكا الزرع: إذا حصل منه نموّ وبركة". وحول تزكية الإنسان قال: "تزكية الإنسان نفسه ضربان:

١ـ بالفعل، وهو محمود، وإليه قصد بقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}الشمس/٩.

٢ـ وبالقول، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، وقد نهى الله عنه، فقال: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} النجم/٣٢[١٠٥].

يقول العلامة ناصر، في شرحه لحديث جبريل الشهير، الذي سأل فيه رسول الله عن الإيمان والإسلام والإحسان: "الإيمان مصدر من باب الإفعال، من أصل الأمن الذي يعطي معنى زوال الخوف وطمأنينة النفس للإنسان، وإخراجه من حالة القلق والخوف والاضطراب. ثم ضُمن معنى التصديق والاعتراف، باستعمال الباء (حرف الجر) معه، فيقال: آمنت بك، أي: أمّنتك حين اعترفت بك، وصدّقتك باعترافي بألوهيتك وربوبيتك، فكأنه يأمن الله تكذيبه والتولّي عنه. هذا إذا قلنا أن (آمن) من نوع الأفعال المتعدية ـ لأن هناك أفعالاً من باب (الإفعال) لازمة، مثل: أعصر، يقال: أعصرَ السحابُ، أي حان له أن يعصر ـ وأما إذا كان لازماً، فيكون معناه: صار ذا أمن، لا أنه أمّن غيره، فآمن بالله - حينئذ - معناه: أصبح ذا أمن باعترافه بالله، في ألوهيته وربوبيته[١٠٦].

وقريباً من هذا التعريف، قال العلامة الكوردي، الأديب عبد الرحيم مولوي: "الإيمان لغة يعطي معنى الوقوع في الأمن، أو تحقق الأمن للإنسان. فهو اسم للتصديق، أي تصديق القلب. ولهذا سُمّي هذا التصديق إيماناً، فكل من أراد أن يأمن من العذاب والخذلان، وأراد أن يؤمّن غيره من التكذيب والمخالفة، فهو مؤمن..". ولتوضيح مقتضيات هذا الإيمان، قال: "والمعرفة المجرّدة لا تنفع، حيث كان الكفار على معرفة حقيقية، ومع

---

[١٠٣] ـ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: (٩١).

[١٠٤] ـ الفراهيدي، العين، ص: (٣٩٣).

[١٠٥] ـ الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: (٣٨١).

[١٠٦] ـ ناصر سبحاني، شرح الأربعين النووية، شرح الحديث الثاني.

ذلك كانوا كفاراً.. ولهذا لا يتحقق الإيمان إلا بالتسليم الباطني، والانقياد القلبي، أي إذعان دون جحود، واعتقاد ثابت ويقين جازم، دون تردّد[١٠٧].

تزكية النفس: معناها ومراحلها، في تصور الشهيد سبحاني:

للشهيد سبحاني منهجية متميزة في تناول موضوع تزكية النفس، فهو اعتمد على آيات القرآن الكريم، والسيرة العملية لرسول الله – صلى الله عليه وبارك - وصحبه الكرام. ويمكن إلقاء الضوء على الأسس التي يراها ويعتمدها ـ في هذا الموضوع ـ فيما يلي:

١ـ دقة في الاستنباط اللغوي:

لقد أصبحت لدى سبحاني ملكة قادرة على فهم معاني ألفاظ القرآن ومدلولاتها، بحكم مراجعاته العديدة لمصادر اللغة، إلى درجة أنه كان يقترب في ذهنه معنى المفردة القرآنية من خلال سماع حروفها في أول وهلة، أو رؤيتها. فكان يؤكد في فهم مدلول كلمة (التزكية) - مثلاً - على أن جميع الكلمات التي تبدأ بحرفي (الزاي والكاف) تعطي معنى (الامتلاء)، مثل: (زِكْر) بمعنى (امتلاء)، يقول العرب: تزكّر بطن الصبي، أي: امتلأ، وكذلك (زكّ) القربة: ملأها، و(زكب) الإناء: ملأه، و(زكت) الإناء ـ أيضاً ـ : ملأه، و(زكَمَ) أي: امتلأ.. إلخ. فاستنبط الشهيد من هذه المعاني بأن (تزكية) النفس إنما تتم بأن تمتلئ استعدادات النفس وقواها، وتنمو شيئاً فشيئاً رشداً وكمالاً، لكي تصبح ملكة للإنسان، ومن ثم تؤتي ثمارها. (ينظر: ناصر سبحاني، نظرة حول اللغات والمفاهيم القرآنية، ص: ٤٧).

٢ ـ مفهوم التزكية:

يرى الشهيد سبحاني أن" الله لا يدع مخلوقاً إلا يَهبُ له ما هو مستعد له من الكمال، فجعل كل شيء يُسَبح - وذلك بالسّير من النقص -، ويحمّد - وذلك ببلوغ ما يمكن من الكمال - {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} الإسراء: ٤٤. وما كانَ شيء ليسبح بحمدَ ربّه إلا بأخذ، وتصيير، وإعطاء. فالنواة - أو الحبة مثلاً - إنما تتطور وتبلغ ما قُدّر لها من الكمال، بأخذ مواد غذائية، ثم بتصييرها وجعلها من جنس أجزائها، ثم بإعطاء آثار من الثمّر وغيره. وما النفس الإنسانية من هذه الكلية بمستثناة، فإنها لن تنال كمالها إلا بأخذ

[١٠٧] ـ قال ذلك في رسالة مختصرة حول العقيدة والإيمان، نقلها السيد محمد علي القره داغي في سلسلة: إحياء تاريخ علماء الكورد عن طريق مخطوطاتهم ، طبعة أربيل، آراس للنشر، ٢٠٠٨م، ١٥٩/٨.

صور من حقائق، ثم بتصييرِ للمأخوذات، وتكوينِ لملكات، ثم بإعطاء آثار وقيام بأعمال صالحات[١٠٨].

إذاً، فهو يرى أن التزكية تعنى إنماء الاستعدادات الموهوبة للنفس الإنسانية. ولكن، ما النفس؟ وما هي استعداداتها، وقواها.؟

٢ ـ النفس الإنسانية، واستعداداتها، وقواها:

يقول سبحاني: "إن النفس شيء قد تكوّن من اتصاف الروح بصفات قد حصلت من التزاوج بين خواص الروح وخواص الجسد. وتلك الصفات قوىً ستّ، هي جماع مظاهر الحياة في مختلف مراتبها. وهي: (١و٢): قوتا النموّ والتوليدَ ـ وهما مظهر الحياة النباتية ـ و(٣و٤): قوتا الإحساس والحركة ـ وهما مع السابقتين مظاهر الحياة الحيوانية ـ و(٥و٦): قوتا العلم والإرادة ـ وهما مع ما سبق مظاهر الحياة الإنسانية"[١٠٩].

ثم يشرح بالتفصيل وظيفة كل قوة من القوى التي تجتمع في الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية، ويقف عند قوتي (العلم) و(الإرادة)، اللتين عليهما مدار الحديث عن تزكية النفس، فيقول: "قوة العلم: بها تكسب النفس ما يكفيها في حياتها من التصورات عن حقيقة نفسها، وحقيقة الكون حولها، وحقيقة ربوبية الله وألوهيته، الذي له الخلق والأمر، ومن القيم الخلقية التي تبين لها كيف تقف من كل تصور من تلك التصورات. وقوة الإرادة تلك التي تقف على مفترق الطرق المكشوفة للقوة السابقة من طريق الحق والخير من التصورات والقيم، وطرق الباطل والشر من هذه وتلك، تتصدّى للاختيار..

وهكذا فصّل الشهيد الحديث عن وسائل قوة العلم التي تستخدمها النفس لكسب جميع أنواع العلم، وهي - أي وسائل قوة العلم -: (البصر)، للنظر في آيات الله في عالم الشهادة في الآفاق وفي الأنفس. و(القلب) - أو الفؤاد - لدرك تصورات متعلقة بعالم الغيب، عالم ما وراء الشهادة. و(السمع) لتلقي ما لا يتلقى، لا بالبصر ولا بالقلب، وهو حكم الله وشرعه[١١٠].

ولقد أكثر الشهيد سبحاني - لتقريب الأذهان من فهم عملية تزكية النفس - من ذكر مثال واقعي، حيث شبه عملية تزكية النفس البشرية بعملية تعليم مهنة من المهن، وذلك من جانب الحاجة إلى عامل التكرار والتواصل، لكي تنتقل التصورات إلى الأعمال،

---

[١٠٨] ـ ناصر سبحاني، رسالة علوم الحديث، ص: (١٢). وأكد على هذه المعاني في معظم تقديماته لبحوثه.

[١٠٩] ـ المصدر نفسه، (١٣).

[١١٠] ـ ينظر: ناصر سبحاني، رسالة في علوم الحديث، ص: (١٥)، وكذلك كتابه: أسس التصورات والقيم، ص:(٨٧).

حتى تحصل لها أحوال، ثم تصير الأحوال خصالاً وملكات فقال: "في مجال (الأخذ) تتلقى النفس التصورات التي لا بدّ من العلم بها، والتسليم إليها. وفي مجال (التصيير) تقوم بتذكّر تلك التصورات، وبأداء ما تقتضيه هي من الأعمال مرة بعد مرّة، وحالاً بعد حال، حتى تحصل لها أحوال، وتستقر تلك الأحوال حتى تصير خصالاً راسخة فيها، وملكات، وأخلاقاً. ولنوضح ذلك بذكر أمثلة:

إذا أراد المرء أن يصير عالماً بفن النحو - مثلاً - فإن أول ما يجب أن يفعله أخذ صور من مسائل ذلك العلم. وواضح أنه عندما تُلقى عليه مسألة من تلك المسائل، تكون الصورة التي تحصل في نفسه صورة ضعيفة، لا تلبث أن تزول بورود صورة مسألة أخرى عليها. وإنما تبقى تلك الصورة في النفس إذا تكرّر إلقاؤها عليه، بحيث لا يزول أثر التلقي السابق حتى يرد عليه أثر التلقي اللاحق. حتى إذا تكرّر ورود تلك الصورة اصطبغت النفس بها، وأصبحت هي من أوصافها اللازمة. وعند ذلك فقط يُعّد المرء عالماً بتلك المسألة. وإذا حصلت المَلَكَة، فإن العمل الذي تقتضيه هي - من تذكر المسألة متى شاء، ومن تعليمها الآخرين - يصدر منه من غير تكلف، شأن كل ملكة وخلق.

وإذا أراد أن يصير خيّاطاً، فإن أول ما ينبغي أن يفعله تلقي صور من شؤون فن الخياطة، ثم عليه أن يكرر استحضار تلك الصور، والنظر فيها، والقيام بما تقتضيه من الأعمال، حتى تترسخ في النفس، وتصير من أوصافها اللازمة ومَلَكاتها. وعند ذلك فقط يُعَدّ المرء خياطاً. وإذا حصلت الملكة، يتم القيام بالخياطة من غير تكلّف[١١١].

ثم وضّح ـ بعد هذا - كيف أنه لا يعتّد - في مثال فنّي النحو والخياطة ـ بالصور الحاصلة في النفس، وإنما يعتدّ بحصول ملكة الفنّيْن، والإلمام بهما، عملاً. ولا يقال لصاحبيهما عالمين، من دون حصول الملكة فيهما.

فكذلك شأن المتلقي لهدي الله، والمتزكي به، لا اعتداد بما تحصل له من التصورات، إلا إذا أدت إلى تحقق ملكات، وحصول أخلاق حسنة.

هذه هي الصورة الحقيقية لعملية تزكية النفس، ومفهومها، في تصور الشهيد ناصر سبحاني❐

[١١١] ـ ناصر سبحاني، رسالة في علوم الحديث،.(16-17)

قراءة في النظام العالمي

بين صراع العروش، وغياب البديل، وجهل الشعوب

د. عبداللطيف ياسين علي

✍ الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مدخل:

لم أطلع فيما قرأت من التاريخ على مرحلة أسوأ مما تجتازه البشرية اليوم، في ظل هذا النظام الذي يحكم العالم حكماً لا يشمله تعريف جامع مانع؛ عندما تراه جامعاً يتفرق إلى فرق متنافسة، وعندما تراه مانعاً تنصب إليه الشكوك والشبهات من كل حدب وصوب، نظام تعتريه السذاجة للسذج، والتعقيد للمتآمر، والقلق للعاقل، والأمان للأحمق.

أسباب اختيار الموضوع: في هذه المرحلة الحرجة لا أرى موضوعاً أهم، ولا ألح، من هذا الموضوع: النظام العالمي؛ بكل وسائله، وإمكانيته، وهو الذي أصبح شريكنا في التفكير، والمال، والدار، والأولاد. لقد أصبح هذا النظام يتحكم في ذوقنا، ولباسنا، وأمور حياتنا، وبات جزءاً من نظامنا الغذائي، والصحي، والأمني.

ومن واجب كل إنسان ينتمي إلى الإنسانية أن يقوم ببيان حقيقة هذا النظام، وآثاره السلبية، ومضاعفاته الجانبية، وخطره على مستقبل البشرية جمعاء.

وسنتناول في موضوعنا هذا تعريف هذا النظام العالمي، وما هي حقيقته، وما مكانة الإنسان داخله، ومستقبل البشرية أمام هذا السيل الجارف، والانهيار القيمي والاقتصادي والفكري، وسبل الخروج من هذا التهديد.

في بعض الأحايين يتبادر إلى ذهني أن النظام العالمي شبيه بطائر (العنقاء)، معكوساً، إذ هو معلوم الاسم، معدوم الجسم، إلا أن النظام العالمي معدوم الاسم، ثقيل الظل على الإنسانية.

قد يكون عبارة عن (Lord of War)[١١٢]، أو (war Dogs)[١١٣]، أو (The Wolf of Wall Street)[١١٤]، أو (Game of Thrones)[١١٥]، أو (Prison Break)[١١٦]، أو (التحالف

---

١١٢ - هو فيلم أمريكي من صنف دراما وجريمة، أنتج سنة ٢٠٠٥م، وكانت بطولة الفيلم لنيكولاس كيج. يقوم بطل الفيلم (في دور تاجر أسلحة سوفيتي) بالسفر إلى بلدان العالم الثالث، التي أرادت من الاتحاد السوفيتي شراء الأسلحة الخفيفة، والثقيلة، بسبب الانشغال في حرب أهلية دموية عام ١٩٨٩م.

١١٣ - هو فيلم كوميدي درامي أميركي، من إخراج (تود فيليبس)، ومن تأليفه، بمشاركة (جايسون سميلوفيتش، وستيفن تشين)، معتمدين على مقالة في مجلة (رولينغ ستون)، كتبها (غاي لاوسن)، في كتابه بعنوان (الأسلحة والرجال)، الذي توسع به بالتفاصيل. يتابع الفيلم تاجري أسلحة هما (إيفرام ديفيرولي و ديفيد باكوز)، اللذين يتلقيان عقداً من الجيش الأمريكي لتوريد ذخيرة للجيش الوطني الأفغاني بقيمة ٣٠٠ مليون دولار تقريباً. موضوع الفيلم هو خيالي ودرامي بشكل كبير. كما أن بعض الأحداث، مثل القيادة عبر العراق، هي إما من بناء الخيال، أو بناء على أحداث أخرى؛ منها ما يكون حصل مع كاتب السيناريو (ستيفن تشن) في حياته الخاصة.

١١٤ - هو فيلم سيرة ذاتية؛ جريمة وكوميديا سوداء، أمريكي، أنتج عام ٢٠١٣، من إخراج (مارتن سكورسيزي)، مستوحى من مذكرات رجل الأعمال السابق (جوردن بلفورت). السيناريو من تأليف (تيرينس وينتر). ولعب (ليوناردو دي كابريو)، الذي كان أيضًا منتجًا للفيلم، دور البطولة في الفيلم بدور جوردان بيلفورت، بالإضافة إلى (جونا هيل)، الذي أدى دور (دوني أزوف)، وهو صديق

الأسود: وكالة المخابرات الأمريكية، والمخدرات، والصحافة)[١١٧]، أو (حقيقة الخديعة)[١١٨]،

جوردان وشريكه في العمل. مثّل في الفيلم أيضًا (مارجوت روبي)، والتي أدت دور (نعومي)، زوجة جوردان، و(كايل تشاندلر) بدور وكيل في مكتب التحقيقات الفيدرالي، الذي يحاول الإيقاع بجوردان. يمثل الفيلم التعاون الخامس للمخرج سكورسيزي مع دي كابريو.

١١٥ - هو مسلسل فنتازيا ملحمي، من تأليف (ديفيد بينيوف، ودانيال وايز)، لصالح قناة (اتش بي او)، وهو اقتباس لرواية (لعبة العروش) التابعة لسلسلة روايات (أغنية الجليد والنار)، لمؤلفها (جورج آر. آر مارتن). صُوِرَ المسلسل في أستديوهات بلفاست، وعدة مواقع أخرى في أيرلندا الشمالية ومالطا واسكتلندا وكرواتيا وآيسلندا والولايات المتحدة والمغرب، وعُرِضَ لأول مرّة على HBO في الولايات المتحدة، في ١٧ أبريل ٢٠١١. وعُرِضَت المواسم الثمانية كاملة، حيث بدأ عرض الموسم الثامن في ١٤ أبريل ٢٠١٩. تقعُ أحداث المسلسل في قارّتين خياليتين، هما ويستروس وإيسوس، في نهاية صيف طويل جداً امتد لعقد من الزمن، حيث تتصارع سبعُ عائلات للسيطرة على العرش الحديدي للممالك السبعة، وحيث يتنامى الخطر، من جهة أخرى، على الممالك من جهة الشمال المتجمد، تجسده مخلوقات خيالية. يتناول المسلسل من خلال شخصياته الغامضة قضايا عديدة: المراتب الاجتماعية، والدين، والحرب الأهلية، والجنس، والجريمة، وعقابها، والولاء، والعدالة.

١١٦ - هو مسلسل تلفزيوني أمريكي، من تأليف الكاتب والمخرج (بول شويرينغ). تم عرض مواسمه الأربعة على شبكة فوكس التلفزيونية، ابتداءً من ٢٩ أغسطس ٢٠٠٥، وحتى ١٥ مايو ٢٠٠٩. أما الموسم الخامس، فقد تم عرضه في ٤ أبريل وحتى ٣٠ مايو ٢٠١٧. تدور قصة المسلسل حول أخوين، أحدهما حكم عليه بالإعدام لجريمة لم يرتكبها، والآخر يرسم خطة مفصلة لمساعدة أخيه على الفرار من السجن، ومسح سجله، ويتضمن المسلسل صراع الشركات، وتضلعها في التصفيات الجسدية، وأثرها على السياسة الأمريكية، والعالم.

١١٧ - كتاب التحالف الأسود وكالة الاستخبارات المركزية والمخدرات والصحافة، ألكسندر كوكبرن جيفري سانت كلير. في هذا الكتاب تتجلى نظرية المؤامرة بأبها صورها، من خلال ربط وكالة المخابرات الأمريكية بالمخدرات والدعارة وتجارة السلاح، لدعم ديكتاتوريات العالم أجمع.

١١٨ - رواية صدرت عام ٢٠٠١، من تأليف الكاتب الأمريكي (دان براون). و كغيرها من رواياته، اعتمدت على نظرية مؤامرة سرية، تدور في غفلة من المواطنين العاديين. تتحدث هذه الرواية عن مؤامرة تقوم بها وكالة الأبحاث الأمريكية مع وكالة ناسا، لإقناع العالم بحقيقة حجر نيزكي، خلال السباق إلى البيت الأبيض، وذلك لأغراض إسكات الانتقادات الموجهة إلى الوكالة، ولأغراض خفية. ويسعى المتآمرون، عبر فرقة دلتا فورس، إلى إسكات العلماء الذين اكتشفوا الحقيقة، لكن الحقيقة تظهر في النهاية. حقيقة الخديعة.

أو (الحصن الرقمي)[١١٩]، أو ... أو كلها مجتمعة في عمل درامي واحد..!!

إبهام تعريف النظام العالمي:

إذا كانت معاهدة سلام مبنية على معاهدة السلام الوستفالي، بماثبة صمام أمان للمنظومة الغربية، أو الأوروبية، فهي المسؤولة - بالدرجة الأولى - عن الحربين العالميتين؛ بكل تبعاتها، وإفرازاتها، ومضاعفاتها، وضحاياها. وكذلك الحرب الباردة، التي أحرقت الأبرياء في صقيع أجوائها.. إذا كانت معاهدة سلام أوروبية، فلماذا قسمت (برلين)، وضرب الـ(يورو)، وتم تفكيك الاتحاد الأوروبي؟! إذا كان سلاماً، فعلام ينذر بالحرب دائماً، وفضح عصبة الأمم، وأظهر ضعفها وشللها، وصوّرها كأنها دمية كأختها (الأمم المتحدة)، الراقدة في العناية المركزة؟!

يتعرض العالم إلى جملة تشويهات في التعريفات. هذا، وإن تعريف الشيء، ومعرفته، أمر لا بد منه لصناعة الرؤية، ومن ثم التعامل معه، وتحديد الوسائل. فالتعريف يبيّن وسائل المعرفة، ووسائل التعامل معه، من جانب، لذا، لا نستغرب عندما يكون الهدف من خلق آدم - عليه السلام – وأبنائه، وتفضيلهم على غيره من المخلوقات، هو القدرة على صناعة الشيء، وتسميته، وبيان وسائل التعامل معه. وتأويل {وعلم آدم الأسماء كلها}، أنه ليس هناك اسم بدون مسمى، فلكل اسم مسمى، وهو القدرة على الإبداع والتطوير.

تُناقش هذه الرواية فساد السياسيين الأمريكيين، وسطوة وسائل الإعلام الكبرى، كما تناقش قوة الوكالات الخاصة، والفرق التي لا يعلم الناس عنها. أيضاً تناقش مفاهيم كالولاء للوطن والعائلة، وتقديم الوطن على العائلة في الولاء.

١١٩ - هي أولى روايات الكاتب الأمريكي (دان براون)، وصدرت في عام ١٩٩٨. في هذه الرواية يُقدم دان براون الخطوط الأولية للنظريات التي شغلت رواياته فيما بعد، المؤامرة الكبرى من قبل أطراف خفية، تمارس الخديعة ضد الأشخاص العاديين بدعوى حمايتهم.

تدور هذه الرواية في أروقة وكالة الأمن القومي (إن إس إيه) الأمريكية الحكومية، وفي إسبانيا واليابان. وتقوم فكرة الرواية على فكرة تمرد أحد موظفي وكالة إن إس إيه السابقين، وتركه للمؤسسة، التي تقوم بمراقبة شبكة الانترنت حول العالم، وكرد فعل انتقامي منها يقوم بعمل برنامج تشفير ليس له مثيل، أسماه الحصن الرقمي، وسيكون هذا الحصن مخبأ أسرار كل الذين لا يرغبون في أن تتجس عليهم الوكالة عبر حاسوبها العملاق (الترانسلتر)، وتعهد بنشره في العالم ما لم تعترف الوكالة بوجود الترانسلتر. تتصاعد الأحداث مع موت المبرمج، وتظهر حقيقة برنامج الحصن الرقمي، الذي وقع الترانسلتر في فخه، وسيكون على الأبطال أن يحلو الشفرة ليعطلوا عمل الحصن الرقمي.

"استخدم مصطلح النظام العالمي الجديد للإشارة إلى أي فترة تاريخية اتسمت بتغيير جذري في الفكر السياسي العالمي، وتوازن القوى على الساحة الدولية. وتختلف التفسيرات حول هذا المصطلح، ولكنها ترتبط بالمدلول الأيديولوجي للحكم العالمي بصفة خاصة، وبالجهود الجماعية الناشئة والساعية لتعريف وفهم ومعالجة المشاكل التي يواجهها العالم، والتي يخرج حلها عن سعة الدول بمفردها، ويتطلب تنسيقاً بين دول العالم"[١٢٠].

كان أحد أكثر الاستخدامات شيوعاً للمصطلح في (المبادئ الأربعة عشر)[١٢١]، للرئيس الأمريكي (وودرو ويلسون)[١٢٢]، وفي دعوات لإنشاء (عصبة الأمم)[١٢٣] في أعقاب الحرب

---

[١٢٠] - ويكيبيديا.

[١٢١] - مبادئ ويلسون الأربعة عشر، هي ١٤ مبدأ، قدمت من قبل رئيس الولايات المتحدة (وودرو ويلسون) للكونغرس الأمريكي، في تاريخ ٨ يناير ١٩١٨، ركز فيها على ١٤ مبدأ للسلم، ولإعادة بناء أوروبا من جديد، بعد الحرب العالمية الأولى.

المبادئ الأربعة عشر هي بيان لمبادئ السلام، كان من المقرر استخدامها في مفاوضات السلام من أجل إنهاء الحرب العالمية الأولى. تم تحديد المبادئ في خطاب ألقاه الرئيس (ويلسون) في ٨ يناير ١٩١٨، حول أهداف الحرب، وشروط السلام، أمام كونغرس الولايات المتحدة. لكن زملاءه الحلفاء الرئيسيين (جورج كليمنصو من فرنسا، وديفيد لويد جورج من المملكة المتحدة، وفيتوريو أورلاندو من إيطاليا) شكّكوا في قابلية تطبيق المثالية الويلسونية.

[١٢٢] - توماس وودرو ويلسون (بالإنجليزية: Woodrow Wilson) (٢٨ ديسمبر ١٨٥٦ - ٣ فبراير ١٩٢٤) هو سياسي وأكاديمي أميركي، شغل منصب الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة، من عام ١٩١٣ إلى ١٩٢١. كان ويلسون من الحزب الديمقراطي، وترأس (جامعة برينستون)، وكان حاكماً على ولاية (نيوجيرسي). وكان خلال رئاسته أحد أهم رموز الحركة التقدمية في البلاد، وقاد البلاد خلال الحرب العالمية الأولى، وكان منهجه السياسي خلال تلك الفترة معروفا باسم الويلسونية. أصيب خلال أواخر فترته الثانية بجلطة أثرت على عمله السياسي، ومات بعد ثلاث سنوات من تركه المنصب.

[١٢٣] - عصبة الأمم (بالإنجليزية: League of Nations) هي إحدى المنظمات الدولية السابقة، التي تأسست عقب مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩، الذي أنهى الحرب العالمية الأولى، التي دمّرت أنحاء كثيرة من العالم، وأور وبا خصوصًا. كانت هذه المنظمة سلفًا للأمم المتحدة، وهي أوّل منظمة أمن دولية هدفت إلى الحفاظ على السلام العالمي. وصل عدد الدول المنتمية لهذه المنظمة إلى ٥٨ دولة في أقصاه، وذلك خلال الفترة الممتدة من ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٤ إلى ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٥. كانت أهداف العصبة الرئيسية تتمثل في منع قيام الحرب عبر ضمان الأمن المشترك بين الدول، والحد من انتشار الأسلحة، وتسوية المنازعات الدولية عبر إجراء المفاوضات والتحكيم الدولي، كما ورد في

العالمية الأولى. كما استخدم المصطلح - إلى حدّ ما - عند وصف خطط (الأمم المتحدة)[١٢٤]، و(نظام بريتون وودز)[١٢٥]، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. ولكن تضاءل استخدام المصطلح بسبب مدلولاته السلبية التي ارتبطت بفشل عصبة الأمم في منع قيام حرب ثانية. ولكن العديد من المعلقين ظلوا يستخدمونه في سياق رجعي، للإشارة إلى النظام الذي قامت دول الحلفاء المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، بإرسائه بعد انتهاء الحرب.

ظهر استخدام المصطلح، الذي نوقش على نطاق واسع بعد نهاية (الحرب الباردة)[١٢٦]،

ميثاقها. من الأهداف الأخرى التي كانت عصبة الأمم قد وضعتها نصب أعينها: تحسين أوضاع العمل بالنسبة للعمّال، معاملة سكّان الدول المنتدبة والمستعمرة بالمساواة مع السكّان والموظفين الحكوميين التابعين للدول المنتدبة، مقاومة الاتجار بالبشر والمخدرات والأسلحة، والعناية بالصحة العالمية، وأسرى الحرب، وحماية الأقليات العرقية في أوروبا.

[١٢٤] - الأُمَمْ المُتَّحِدَة منظمة عالمية تضم في عضويتها جميع دول العالم المستقلة تقريباً. تأسست منظمة الأمم المتحَدة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥ في مدينة (سان فرانسيسكو)، (كاليفورنيا) الأمريكية، تبعاً لمؤتمر (دومبارتون أوكس) الذي عقد في العاصمة (واشنطن). يتم تمويل المنظمة من خلال المساهمات المقدرة، والمساهمات الطوعية من الدول الأعضاء فيها. توجد مكاتب رئيسية أخرى في (جنيف) و(نيروبي) و(فيينا). وتشمل أهدافها الحفاظ على السلام والأمن الدوليين، وحماية حقوق الإنسان، وتقديم المساعدات الإنسانية، وتعزيز التنمية المستدامة، ودعم القانون الدولي.

[١٢٥] - اتفاقية بريتون وودز (بالإنجليزية(Bretton Woods : الاسم الشائع لمؤتمر النقد الدولي، الذي انعقد من ١ إلى ٢٢ يوليو ١٩٤٤، في غابات بريتون في (نيوهامشير) بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد حضر المؤتمر ممثلون لأربع وأربعين دولة. وقد وضعوا الخطط من أجل استقرار النظام العالمي المالي، وتشجيع إنماء التجارة بعد الحرب العالمية الثانية. وتمنى الممثلون إزالة العقبات على المدى الطويل بشأن الإقراض والتجارة الدولية والمدفوعات. وقد رفع مؤتمر غابات بريتون خططه إلى منظمتين دوليتين، هما: صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير. وقد عمل الصندوق على تشجيع الاستقرار المالي الدولي، وذلك من خلال توفير المساعدات قصيرة الأجل، لمساعدة الأعضاء الذين يواجهون عجزاً في ميزان المدفوعات. وقد أعطى البنك قروضًا دولية ذات آجال طويلة، خاصة للدول ذات النمو المتدني.

[١٢٦] - الحرب الباردة (بالروسية: Холодная война وبالإنجليزية: Cold War) هو مصطلح يُستخدم لوصف حالة الصراع والتوتر والتنافس التي كانت توجد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وحلفائهم، من فترة منتصف الأربعينيات حتى أوائل التسعينيات.

فاستخدمه الرئيسيان (جورج بوش الأب)[١٢٧]، و(ميخائيل غورباتشوف)[١٢٨]، لوصف طبيعة حقبة ما بعد الحرب الباردة، وروح التعاون ما بين القوى العظمى، الذين وضعوا الأمل في تحققه.

المشروعية والقوة:

ثنائية أسدلت ظلامها على فكر المنتصرين، أو المنتصر في الحرب، "وظهرت جلية في وثائق استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة بعد الحرب، طرحها (والتر ليبمان) عن الأمن القومي، بأنه "قدرة الدولة على تحقيق أمنها، بحيث لا تضطر إلى التضحية بمصالحها المشروعة لتفادي الحرب، والقدرة على حماية تلك المصالح، إذا ما اضطرت، عن طريق الحرب" ، والتي تشمل نظاماً تجارياً قائماً على قواعد التجارة الحرة.

ويقول (كيسنجر)، في كتابه (النظام العالمي): ما من نظام عالمي كوكبي فعلاً، سبق له أن كان موجوداً بالمطلق. وما يعدّ نظاماً في زماننا، تم اجتراحه في أوروبا قبل نحو أربعة قرون،

خلال هذه الفترة، ظهرت الندية بين القوتين العظيمتين، خلال التحالفات العسكرية، والدعاية، وتطوير الأسلحة، والتقدم الصناعي، وتطوير التكنولوجيا، والتسابق الفضائي. ولقد اشتركت القوتان في الإنفاق الضخم على الدفاع والترسانات النووية والحروب غير المباشرة باستخدام وكلاء.

[١٢٧] - جورج هربرت واكر بوش (بالإنجليزية: George Herbert Walker Bush)؛ (١٢ يونيو ١٩٢٤ - ٣٠ نوفمبر ٢٠١٨) كان سياسيًا أمريكيًا، والرئيسَ الحادي والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية؛ من عام ١٩٨٩ إلى ١٩٩٣، ونائب رئيس الولايات المتحدة الثالث والأربعين بين عامي ١٩٨١ إلى ١٩٨٩. كان بوش عضواً في الحزب الجمهوري، وعضواً في الكونغرس، وسفيراً، ثُمّ مديراً للمخابرات المركزية الأمريكية. منذ عام ٢٠٠٠، أصبح يشار إليه باسم "جورج هـ و. بوش" أو "بوش ٤١" أو "بوش الأكبر" أو "جورج بوش الأب" لتمييزه عن ابنه الأكبر (جورج دبليو بوش)، الذي أصبح الرئيس الثالث والأربعين الولايات المتحدة، بعد انتخابات عام ٢٠٠٠.

[١٢٨] - ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشوف (بالروسية: Михаи́л Серге́евич Горбачёв) (ولد ٢ مارس ١٩٣١)، شغل منصب رئيس الدولة في الاتحاد السوفييتي السابق بين عامي ١٩٨٨ و ١٩٩١، ورئيس الحزب الشيوعي السوفيتي بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩١. كان يدعو إلى إعادة البناء، أو البريسترويكا. شارك (رونالد ريغان) في إنهاء الحرب الباردة، وحصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٠. آتت البريسترويكا ثمارها في ٢٦ ديسمبر ١٩٩١، عندما توارى الاتحاد السوفيتي في صفحات التاريخ، بعد توقيع (بوريس يلتسن) على اتفاقية حل اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية.

في مؤتمر للسلام بمنطقة (وستفاليا) الألمانية[١٢٩]، عقد دون انخراط، بل وحتى علم، أكثرية القارات أو الحضارات الأخرى"[١٣٠].

تعريف النظام العالمي هو نشوة انتصار المنتصرين في الحرب[١٣١]، فكلما سعرت حرب بين الدول الأوروبية، قاموا برمي شظاياها على العالم الإسلامي، واستدراجه إلى قلب الحدث[١٣٢]، وكيه بنار الحرب الملتهبة. ومن جانب آخر، تجسيد الدول الخاسرة في قالب شيطاني، ورمي جميع أوزار الحرب على جثثها الهامدة المنهكة، والعودة إلى مزايدات طفيلية، وبناء صرح يعبر عن أطماع المنتصرين. فكانت عصبة الأمم، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، والأمم المتحدة، على أعقاب الحرب العالمية الثانية. وليس مصطلح النظام العالمي إلا وسيلة كبقية الوسائل للهيمنة على العالم تحت غطاء قانوني وسياسي ودولي وإنساني.

لقد برز مصطلح النظام العالمي في أعقاب صناعة مؤسسات ما بعد الحربين العالميتين، والحرب الباردة، ، كما هو واضح من التعريفات، وتاريخ النشأة.

ومع هذا تبقى ظلال الثنائية تخيم على سماء الحسم بين المشروعية والقوة، "أما الموازنة بين المشروعية والقوة، فتبقى استثنائية التعقيد، كلما كانت المساحة الجغرافية التي تنطبق عليها أضيق، وكانت القناعات الثقافية داخلها أكثر، كان استقطار نوع من

---

١٢٩ - صلحُ وستفاليا أو سلامٌ وستفاليا (بالإنجليزية: Peace of Westphalia) هو اسمٌ عامٌ يُطلقُ على معاهدتيْ السلامِ اللتيْنِ دارت المفاوضاتُ بشأنِهما في كلٍّ منْ مدينتيْ أوسنابروك (بالألمانية: Osnabrück) (والتي أضحتْ تلقبُ بمدينة السلامِ منْ بعدُ)، ومونستر (بالألمانية: Münster) في (وستفاليا). وتمّ التوقيعُ عليهما في ١٥ مايو/أيار لعام ١٦٤٨م و٢٤ أكتوبر/تشرينَ الأول ١٦٤٨م وحُرّرتا باللغة الفرنسية. أنهتْ هاتانِ المعاهدتانِ حربَ الثلاثينَ عاماً في الإمبراطوريةِ الرومانية المقدسة (وقعَتْ معظمُ مسارحِ هذه الحربِ في ألمانيا القديمة، بحدودها ما قبل الحرب العالمية الأولى)، وحربَ الثمانينَ عاماً بينَ إسبانْيا ودولة المقاطعاتِ السبع المنخفضة المتحدة (أو فيما بعد: هولنْدا). وقعّها مندوبونَ عنْ كلٍّ منْ الإمبراطورِ الرومانيِّ المقدسِ (فرديناند الثالثَ) (١٦٥٧-٣٧م) (منْ آلِ هابسبورج)، وممالك: فرنْسا، وإسبانْيا، والسويد، وجمهورية هولندا، والإماراتِ الكاثوليكيّةِ، والبروتستانتيّة، التابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

١٣٠- النظامَ العالمي؛ تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ، هنري كيسنجر، ت: د.فاضل جتكر، دار الكتب العربية، بيروت – لبنان، ٢٠١٥، ص ١٢.

١٣١ - العولمة الثقافية، ص٣١.

١٣٢ - راجع كتاب: أمريكا طليعة الانحطاط.

الإجماع العملي أيسر"[١٣٣].

الحرب العالمية الأولى وانتصارات أمريكا:

مبادئ ويلسون الأربعة عشر، هي ١٤ مبدأ، قدمت من قبل رئيس الولايات المتحدة (وودرو ويلسون)، للكونغرس الأمريكي، في تاريخ ٨ يناير ١٩١٨، بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت بمثابة خارطة طريق في المرحلة المقبلة، ركز فيها على ١٤ مبدأ للسلم - على حد تعبيرهم - ولإعادة بناء أوروبا من جديد، بعد الحرب العالمية الأولى.

لكل منتصر كلمة، حتى وإن كانت كذبة، فهي مثابة أوامر عسكرية غير قابلة للنقاش. فكانت هذه الكلمات هي بيان لمبادئ السلام، كان من المقرر استخدامها في مفاوضات السلام من أجل إنهاء الحرب العالمية الأولى. وتم تحديد المبادئ في خطاب ألقاه الرئيس (ويلسون) في ٨ يناير ١٩١٨، حول أهداف الحرب، وشروط السلام، أمام كونغرس الولايات المتحدة. لكن زملاءه؛ الحلفاء الرئيسيين: (جورج كليمنصو من فرنسا، وديفيد لويد جورج من المملكة المتحدة، وفيتوريو أورلاندو من إيطاليا)، شكّكوا في قابلية تطبيق المثالية الويلسونية.

يؤكد (كيسنجر) على أن النظام العالمي اجترح من (معاهدة وستفاليا)، مع أن المعاهدة الوستفالية حسبما يعبر عنها (كيسنجر): كانت تهدف إلى "توفير السلم للعالم المسيحي، فإن أنهاراً استثنائية الغزارة من الدماء كانت قد أريقت، لإدراك مدى ضرورة بلوغ هذا الهدف السامي عبر الوحدة العقدية أو السياسية، بات الآن مسلماً بأن من شأن السلم أن يبنى، إذا كان سيبنى بالمطلق، عبر تحقيق التوازن بين الأطراف المتنافسة"[١٣٤]، هي أوروبية الولادة والنشأة والرعاية، هي توفير السلم للعالم المسيحي. قد تكون كلمات (ميشيل زيفاكو) في كتابه (شهداء التعصب)، هي الصورة الحقيقية، أو تضحية جاندارك، وألاعيب الملوك الأوروبية، وخيانتهم لجاندارك، هي تكملة لهذا المشهد الدرامي. مبادئ الوستفالية هي تنظيم الوحشية والهمجية، وتوظيفها في أراض أخرى (صراع العروش) هي عقدة الغرب في صراعه بينه وبين غيره، فهي ماكنة تحسن التدمير، إن لم تجد ما تدمره، انكبت على نفسها، فكانت السياسة الوستفالية هي تغيير التوجه، والاتجاه نحو المجتمعات الأخرى..

فما كانت مبادىء الولسونية، واتفاقية بريتون وودز (الاسم الشائع لمؤتمر النقد الدولي،

١٣٣- النظام العالمي، ص١٩.

[١٣٤] - النظام العالمي، هنري كيسنجر، ص٣٤.

الـذي انعقـد مـن ١ إلى ٢٢ يوليـو ١٩٤٤، في غابـات بريتـون، في (نيوهامشـير) بالولايـات المتحدة الأمريكية)، وخارطـة الطريـق لجـورج بـوش الأب، وخطـب (أوبامـا)، إلا التكملـة العملية والحقيقية لتلك المرحلة. بمعنى أن المبادئ الأربعة عشـر هـي توسـيع في مسـاحة الأوروبيين على الساحة الدولية :

أولاً: للحيلولة دون وقوع منازعات أوروبية جديدة:

ثانياً: تأمين حركة المنتصرين في البر والبحر.

ثالثاً: إحكام قبضتهم على مخـالفيهم مـن الأوروبيـين، وإلجـامهم بجملـة مـن الشـروط المفروضة بمعيار المنتصرين في الحرب.

رابعاً: حرية التجارة، أو تسويق البضائع الأوروبية (المنتصـرين)، وإرغام المقابل على فتح أسواقهم أمام بضائع المنتصـرين، ورفع جميع الحواجز أمام التجارة الأوروبية.

خامساً: إقرار بتشكيل دول حديثـة، ورسـم حـدود جغرافيـة سياسـية، كصـورة جديـدة للمرحلة المقبلة.

سادساً: ضـرب وتدمير ما بقي من الدولة العثمانية، وصناعة دويلات جديدة في المنطقة.

سـابعاً: إنشـاء عصـبة الأمـم كواجهـة للنظـام الجديـد، المـتحكم في الاقتصـاد والخريطـة والسياسة.

في جميع السياقات التي تعترض البشـرية، لاسترداد دور الإنسان في منظومتـه الإنسـانية، هي البنية التحتية لعقلية الإنسان الغربي، الذي يعتبر نفسه صاحب رسالة العـرق الأبـيض، وتفوق البيض على غـيرهم، وينظـر إليهـا كثوابـت كونيـة لا تحتمـل النقـاش. وهـي نظـرة تجلـت في الأفـلام والشـعر والأدب والفكـر، وحملـت عـلى الـدبابات والطـائرات والترسـانة العسـكرية، وفسـرت عـبر مختـبرات الكيميـاء والفيزيـاء، وضـمن المعـادلات الرياضـياتية، وكظاهرة فلكية وكونية، ولكثافة ما يبث علينا من جميع تلك الجوانب، تعطلـت الشـبكية في العين، بحيث أصبحت لا تشكل صورة في أدمغتنا وخيالنا، سوى ما يملى علينـا، والأدمغـة تتلقى صوراً مشوهة، وتبث معلومـات مشـوهة، حتـى صـار مـن الصـعب إقنـاع الإنسـان الغربي بأنه إنسان كالآخرين، ولا ينتمـي إلى جـنس فـوقي، وأن غـيره لا ينتمـون إلى جـنس تحتي أو دوني. جاء في كتاب (العولمة الثقافية): "استخدمت الثقافة الأوروبية العديـد مـن الاستراتيجيات الثقافية، لتفكر في ما اعتقدته التفوق الأوروبي، وتغريب العالم، أي السـيطرة الأوروبية على الحضـارات الأخـرى، كـما طرحـت طرقـاً متعـددة أريـد لهـا أن تـبرر كونيـة

وتعميم الممارسات والقيم الأوروبية"[١٣٥]. وهي منهج إلزامي، وتتويج كنصوص سماوية، ورسالة العلمانية الغربية، جعلت من قيم الأوربيين رسالة سماوية، ومفكرية أنبياء. "يشير تفوق البيض إلى الطريقة التي يرتبط بها الحس السائد للكينونة الأوروبية بتفاعل مكثف بين التجمعات الاقتصادية، والثقافية، والمفاهيمية، التي تمنح الامتياز للكينونة البيضاء، وتقوم بتطبيعها، باعتبارها جوهر الكينونة الإنسانية"[١٣٦].

رسالة الرجل الأبيض الحمراء:

جاء في كتاب (استعادة الخلافة): "إن ظهور الإسلامية قد تم وسمه بتطورين، إزاحة الغرب من المركز، والمحاولة المتصاعدة في شدتها لإيقاف تلك الإزاحة عن المركز، من خلال إعادة تقرير تفوق البيض. النظام ما بعد الاستعماري، هو ما بعد استعماري ليس لأن الاستعمار قد انتهى، بل لأن المنطق الاستعماري العرقي الذي منح الامتياز للكينونة البيضاء قد تعرض للتحدي، وهذا التحدي يثير النزعة الانتقامية البيضاء"[١٣٧].

ويقول أيضاً: "لا يشير تفوق البيض إلى أفراد أو مجموعات، بل إلى نظام محدد من السيطرة العالمية، لحساب الكينونة الأوروبية (وليس بالضرورة لحساب الأوروبيين)[١٣٨]، ولا ينفي (كيسنجر) هذه الحقيقة: "المعاهدتان المتعددتا الأطراف الرئيسيتان، كانتا كلتاهما تعلنان اعتزامهما خدمة مجد الرب، وأمن العالم المسيحي، بوصفهما سلاماً وصداقة مسيحيين، شاملين أبديين حقيقيين وصادقين"[١٣٩]، طبعاً يقصد المسيحي الأوروبي، وإلا كان سيف هذه الاتفاقية أشد فتكاً بالمسيحيين غير الأوروبيين، والمذابح التي ارتكبت، ففي العام الذي دخل فيه الإسبان إلى كولومبيا، وعاثوا فيها فساداً، واستمرت هذه المذابح والإبادة الجماعية قروناً إلى إندلاع الثورة مجدداً، والتي سمحت مع ضعف إسبانيا بنجاح الثورة التي قادها (سيمون بوليفار)، الذي أعلن أخيراً الاستقلال في عام ١٨١٩م، عندما هُزمت المقاومة الموالية للإسبان أخيراً عام ١٨٢٢.. "وعلى مدار الربع قرن الأخير من القرن الـ ١٩، تم غزو كولومبيا عدة مرات من قبل أمريكا، تلاها (هايتي) عام ١٨٨٨، ثم (شيلي) ١٨٩١، ومرة أخرى إعادة اجتياح (نيكاراغوا) عام ١٨٩٤، ثم اختتم القرن بغزو (كوبا) على

١٣٥ - العولمة الثقافية، ص ٣٣.

١٣٦ - استعادة الخلافة: تفكيك الاستعمار والنظام العالمي، سلمان السيد، ترجمة: محمد سيد بشرى، ص١٣، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

١٣٧- استعادة الخلافة تفكيك الاستعمار والنظام العالمي، ص١٢.

١٣٨ - استعادة الخلافة تفكيك الاستعمار والنظام العالمي، ص١٣.

١٣٩ - النظام العالمي، هنري كيسنجر، ص ٢٤.

مدار ثلاث سنوات، انتهت باستيلاء أمريكا عام ١٩٠١ على أراضي جزيرة جوانتانامو، التي تضم الآن أشهر معسكر اعتقال في العالم، يضم العديد من الأسرى من معظم دول العالم. بدأ القرن العشرين بإحكام السيطرة على جزيرة جوانتانامو، تلاها مباشرة في نفس العام، العديد من العمليات العسكرية في (كولومبيا)، (١٩٠١ دخول القوات الأمريكية إلى كولومبيا)"[١٤٠]. "وفي العام التالي عملية أخرى في (الهندوراس)، وفي العام ١٩١٤ قامت قوات المارينز بغزو (هايتي) والاستيلاء على البنك المركزي لتحصيل ديون هايتي لأمريكا بالقوة، وفي العام التالي تم احتلال هايتي لمدة ١٩ عام"، وفي سنة (١٩٠٤) إدخال القوات الأمريكية إلى كوريا. وعام (١٩٠٥) القوات الأمريكية تتدخل في الثورة في هندوراس. وفي سنة (١٩٠٥) غزو المكسيك؛ مساعدة الدكتاتوري (بورفيريو دماز) في قمع الانتفاضة. وسنة (١٩٠٧) غزو نيكاراغوا. وسنة(١٩٠٧) القوات الأمريكية تتدخل في ثورة في جمهورية الدومينيكان، وعشرات المجازر و المذابح ضد المسيحيين غير الأوروبيين أو غير البيض، وهذا غيض من فيض[١٤١].

لمّ شمل الفرقاء:

فجذور الاتفاقية هي للمّ شمل البيض المسيحين، فجميع الوسائل والإمكانيات الأخلاقية وغير الأخلاقية مباحة لهم كيفما يستعملونها أو يستغلونها، وأينما يريدون. "شكّل سلام وستفاليا منعطفاً في تاريخ الأمم، لأن العناصر التي أوجدها كانت كاسحة، بمقدار ما كانت خالية من التعقيد، الدولة، لا الإمبراطورية السلالة، أو العقيدة الدينية، تأكدت بوصفها وحدة بناء صرح النظام الأوروبي"[١٤٢].

فرؤية حاملي شعار النظام العالمي إلى أوروبا كسيد للعالم الحديث، هي مبنية على تعظيم وتمجيد البيض، كما أشرنا سابقاً. يقول (كيسنجر): "لم يكن هذا الإجماع مجرد ديكور، كان عاكساً قناعات أخلاقية منبثقة من نظرة أوروبية مشتركة. لم يسبق لأوروبا قط أن كانت أكثر تلاحماً، وأغنى عفوية، منها إبان ما بات ينظر إليه بوصفه عصر التنوير. انتصارات جديدة في العلم والفلسفة بدأت تحل محل اليقينيات الأوروبية المتمزقة،

---

١٤٠ - الإمبريالية الأمريكية.. تاريخ من القتل والتآمر والاستعمار، راية الاشتراكية، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٨/٠٩، نسخة محفوظة ٠٤ مايو ٢٠١٢ على موقع واي باك مشين.

١٤١ - وللمزيد من المعلومات، انظر: (ماذا يريد العم سام؟ نعوم تشومسكي)، (أمريكا طليعة الانحطاط ، روجيه غارودي).

١٤٢ - النظام العالمي، ص٣٥.

المستندة إلى التراث والإيمان. أدى التقدم العاصف للعقل على حشد من الجبهات - جبهات الفيزياء، الكيمياء، الفلك، التاريخ، الآثار، المساحة، العقلانية- إلى تدعيم الروح الجديدة للتنوير العلماني المبشر بأن تجلي سائر آليات الطبيعية الخفية لم يكن سوى مسألة وقت"[١٤٣].

هذا المتن يحمل في طياته الكثير من الرؤيا، وفلسفة الأرض، فيما سيأتي من الزمن القادم، كمنهج مقدس بديل عن الإنجيل والتوراة:

أولاً: معاهدة وستفاليا ليست ديكوراً، أو رتوشاً للواقع السياسي الأوروبي، وإنما لها انعكاساتها السلوكية والأخلاقية والسياسية والعسكرية .

ثانياً: "كان عاكساً قناعات أخلاقية منبثقة من نظرة أوروبية مشتركة"، من المهم الاطلاع على خلفية هذه النظرة المشتركة لأوروبا، بحيث أدت إلى صياغة وبناء هذه القناعات لدى الأطراف المتنازعة. ملكية معاهدة الوستفالي انتقلت إلى جيب العم سام، فكثيراً ما يتحدث (كيسنجر) عن ميزان القوة، وهو - على حد تعبير زيغينيو بريجنسكي-: "لقد أصبحت القوة الأمريكية، التي تؤكد بشكل بارز على سيادة الأمة، الضامن الأساسي للاستقرار العالمي"[١٤٤].

وكل مفكري أمريكا يعزفون على أوتار متشابهة من حيث المتن والمضمون، والاختلاف كامن في التعابير، "مع مرور الزمن كانت الولايات المتحدة ستصبح الطرف المدافع الذي يتعذر الاستغناء عنه ضمن النظام الذي صممته أوروبا. غير أن الالتباس تواصل حتى حين وضعت الولايات المتحدة ثقلها في خدمة المشروع، ذلك لأن الرؤية الأمريكية استندت لا إلى نوع من احتضان نظام توازن القوة الأوروبي، بل إلى بلوغ السلام عبر نشر المبادئ الديمقراطية"[١٤٥]. "مع بداية القرن الحادي والعشرين، نجد أنه لا مثيل لقوة أمريكا من حيث:

١- مداها العسكري على الصعيد العالمي.
٢- ومحورية النشاط الاقتصادي لأمريكا بالنسبة إلى صحة الاقتصاد العالمي.
٣- والتأثير الإبداعي للدينامية التكنولوجية الأمريكية.

---

١٤٣ - النظام العالمي، ص٤٦.

١٤٤ -الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم، زبيغنيو بريجنسكي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ٢٠٠٤م، ص٧.

١٤٥ - النظام العالمي، ص١٦.

٤- ومن حيث الجاذبية العالمية للثقافة المحض أمريكية، المتعددة الأوجه"[١٤٦].

"تصدرت الأجندات العالمية في خريف عام ٢٠٠٢، إعلان أقوى دولة في التاريخ عن نيتها الحفاظ على هيمنتها، سواء من خلال التهديد بالقوة المسلحة، أم باستعمالها فعلاً، وهو بعد من أبعاد السطوة والسلطان، لها فيه دونما شك القدح المعلى. جاء في الصياغة الخطابية الرسمية لاستراتيجية الأمن القومي (nss): إن قواتنا يجب أن تكون قوية بما فيه الكفاية لثني الخصوم المحتملين عن مواصلة بناء قوة عسكرية، بأمل مضاهاة القوة الأمريكية، أو تجاوزها"[١٤٧].

رابعاً: "لم يسبق لأوروبا قط أن كانت أكثر تلاحماً، وأغنى عفوية، منها إبان ما بات ينظر إليه بوصفه عصر التنوير"، هي قناعة جديدة قديمة، حيث ترتكز القوة الصاعدة على التلاحم، ووحدة الصف، وهي من أهم مرتكزات الأمم والحضارات والعوائل.. وحدة الصف نقطة انطلاقة لكل المكتسبات والانتصارات عبر التاريخ البشري، ووحدة الصف لا تعني الذوبان الفكري، أو الاندماج الاجتماعي، والانصهار الكلي في بوتقة واحدة، أبداً.. وإنما هي قناعات واقعية تفرض نفسها للقوة الصاعدة، حتى تتمكن من إيجاد موضع قدم لنفسها، واللبيب تكفيه الإشارة. وكما قلت: إن أمريكا جعلت من نفسها الوريث الوحيد، وتجلت هذه الحقيقة في فلم (المومياء)، الجزء الأول، عندما حمل الجمل الرمز العربي الموروث العربي على ظهره، وكان يقوده البطل الأمريكي، حيث يحتضن البريطانية متوجهاً إلى أمريكا. وهذا ما أدى إلى أنه "لا يوجد ند عالمي لأمريكا، كما أنها لن تواجه نظيراً عالمياً لها في المستقبل القريب"[١٤٨].

خامساً: عصر التنوير له إيحاء تاريخي، وآخر فكري، وهذا الإيحاء سنقوم بعرضه في موضعه، إن شاء الله.

سادساً: (انتصارات جديدة في العلم والفلسفة، بدأت تحل محل اليقينيات الأوروبية المتمزقة، المستندة إلى التراث والإيمان). إحدى الأكاذيب والتدليسات العلمانية على العلم والمنطق والفلسفة، وصفها بالانتصارات هو زعم، فلم تكن الانتصارات للعلم والفلسفة،

---

١٤٦ - الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم، زبيغنيو بريجنسكي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ٢٠٠٤م، ص٧.

١٤٧ - الهيمنة أم البقاء السعي الأميركي إلى السيطرة على العالم، نعوم تشومسكي، ص١٩.

١٤٨ - الاختيار السيطرة على العالم أم قيادة العالم، زبيغنيو بريجنسكي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ٢٠٠٤م، ص٧.

وإنما كانت من وسائل المنتصرين في الحربين العالميتين، امتطاها الغرب، وربط بين انتصاره في الحرب، وانتصاره في العلم والفلسفة. وهذا لنا فيه كلمة في موضعه، إن شاء الله.

سابعاً: (أدى التقدم العاصف للعقل على حشد من الجبهات - جبهات الفيزياء، الكيمياء، الفلك، التاريخ، الآثار، المساحة، العقلانية - إلى تدعيم الروح الجديدة للتنوير العلماني المبشر بأن تجلي سائر آليات الطبيعية الخفية لم يكن سوى مسألة وقت). أخفى الغرب سرقتهم وتدليسهم على الفلسفة، وتم سرقة مئات المصادر الإسلامية، وترجمتها إلى لغاتهم، وعرضها كبراءة اختراع، وغصب حق الملكية... نعم قاموا بتطويرها في بعض الأحيان... وبتزييفها، وتحريفها، أحايين كثيرة. ويتجلى لنا هذا بوضوح عندما ننظر إلى مشروع الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين[١٤٩]، وأعمال وكتاب ألف اختراع واختراع من التراث الإسلامي في عالمنا هذا، ناهيك عن إسهامات مئات من علمائنا المعاصرين في الصناعات الحديثة بكل أنواعها، ولا ننسى مصطلح الخوارزميات في البرمجة الإلكترونية. (ولينظر القارئ إلى الكتب التالية: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، لـ مونتجومري وات، معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، لمحمد فاروق أحمد الإمام، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، لعباس محمود، تاريخ الحضارة الإسلامية – لـ ف. ف. بارتولد، الحضارة الإسلامية، لأحمد زكي، حضارة العرب، لغوستاف لوبون، وغيرها كثير)..

أود هنا أن أتطرق إلى مسألة مهمة، وهي مفهوم الحضارة، فلا شك أن الحضارة إنتاج بشري، ومن أولى أولئك البشر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، فلهم باع طويل في ترسيخ الحضارة؛ مفهوماً، وتطبيقاً، وتطويراً، وإذا سلمنا بأن الحضارة إنتاج بشري، وليست حكراً على قوم دون قوم، أو قارة دون قارة، أو دين دون دين، لعلمنا أن تاريخ البشرية شراكة في حمل هذه الأمانة من حقبة إلى حقبة، ومن زمن إلى زمن، ومن قوم إلى قوم، ومن أرض إلى أرض، والكل عند تسنمه ريادة الحضارة أضاف إليها أموراً وأشياء وإبداعاً وتقدماً، من عهد آدم -عليه السلام-، ومن ثم عهد أبنائه، في حمل هذه الأمانة، فكل الإنسانية شركاء فيما وصلت إليه البشرية، من جميع النواحي العمرانية والحضارية، ومن سنن الله المودعة في الكون عند سقوط أي امبراطورية، أو كيان، أن تقوم مقامها أخرى

١٤٩ - هو باحث تركي/ألماني، تخصص في التراث العلمي العربي والإسلامي. كان المدير الفخري لمعهد دراسات التاريخ والعلوم الإسلامية والعربية في (جامعة غوته)، في (فرانكفورت)، والذي كان أحد مؤسسيه. وُلد يوم ٢٤ ربيع الأول ١٣٤٢هـ، المُوافق ٢٤ تشرين الأول، (أكتوبر) ١٩٢٤م، بمدينة (بدليس) بالأناضول، وتوفي يوم ١٦ شوال ١٤٣٩ هـ، المُوافق ٣٠ يونيو ٢٠١٨م، في مدينة إسطنبول.

لحمل أمانة البشرية. "العولمة إرث الجميع، العولمة تقاسم أفكار تناوبت عليها الحضارات على اختلاف موقعها ومكانها وجغرافيتها وتاريخها"[١٥٠]، وعند تقاعس أي قوم، يأتي الله بقوم آخرين ينوبون عنهم في أمانة الخلافة والعمران والتمكين، فليست الحضارة حكراً على أحد، وإنما هي إنتاج بشري، وشراكة إنسانية.

التخلف الإسلامي ..!!

عند هذه النقطة تفرض مئات الأسئلة نفسها على الساحة الفكرية والتاريخية والعلمية: إذا كان المسلمون لهم هذا الباع والحضور في حمل الحضارة، وتطويرها، لم لا نرى تقدماً صناعياً أو تكنولوجياً في الأمصار الإسلامية، أو ما بقي من آثار تلك الدول؟ والإجابة - رغم قسوتها ووقعها المؤلم - تكمن في عصر الانحطاط، الذي أصاب المسلمين، وهو تدمير الحاضنة الفكرية والإبداعية والنفسية للمسلمين، وبطرق شتى، ووسائل متعددة؛ مئات العقول تمت تصفيتها، أو تهجيرها، وإنني لعلى يقين تام بأنه ستكتب يوماً ما موسوعة كبيرة بأسماء الذين تم قتلهم، لسبب واحد، وهو أنهم كانوا مبدعين.

والطاقة الوحيدة التي لا تذعن إلى هذه الأعمال الوحشية، لا الإنسانية، هي القوة الإسلامية، فهي تأبى الرضوخ والخنوع والاستسلام.. لذا ضرب المسلمون أينما كانوا، ومن كانوا، وبجميع الوسائل.. أذعنت (روسيا) إلى هذه الاتفاقية - وهذا ما ذكره (كيسنجر) - بعد محاولات عديدة، حتى انهار الاتحاد السوفياتي، ولم يستطع الصمود أمام الكتلة الغربية؛ كعقيدة ارثوذوكسية، وكتاريخ قيصري، وكإرث كومونيزمي، انهار بحيث أصبحت روسيا سمساراً يجيد المساومة على مصالح الدول المغلوبة على أمرها.. وضربت اليابان والهند، كما ذكره في صفحة ١٧٩ و ١٩٠، وأعلنت إذعانهما إلى الهيمنة الأوروبية..

يقول كيسنجر : "من بين جميع كيانات آسيا السياسية والثقافية، كان رد فعل اليابان هو الأبكر، والأكثر حسماً، بما لا يقاس على الاقتحام الغربي للعالم طولاً وعرضاً"[١٥١].. وتم ضرب اليابان بكل ما أوتوا من قوة، فبعد كل انهيار أصاب اليابان، استطاع القيام والمضي قدماً نحو الإبداع والنهوض الاقتصادي؛ فكانت الحرب العالمية، وإدخال اليابان في هذه الحرب المشكوك في أمرها، فرصة ذهبية لضرب اليابان، وتدميره بأسلحة الدمار الشامل، وإلزامه بشروط الدول المهزومة في الحرب، وتحجيمه بقيود إملاءات قذرة تتلائم مع

١٥٠ - العولمة الثقافية الحضارات على المحك، جيرار ليكلرك، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م، ص١٦.

١٥١ - النظام العالمي، ص١٧٩.

عقلية الغرب.. وكانت آثار زلزال التسونامي ٢٠١١ بمثابة حرب أخرى انهزم فيها اليابان، رغم وجود شكوك حول افتعال هذا الزلزال، وضرب اليابان مرة أخرى.

ويقول عن الهند: "تمخض زخم الاجتياح الغربي للهند عن تغيير مسار أمة"[١٥٢]، فقد أقامت بريطانيا مجازر بحق الهنود، بغض النظر عن انتمائهم الديني والمذهبي، فكل من لم يذعن إلى هيمنة الأوروبيين كان جزاءه القتل أو الطرد والتشريد. وفي الختام تم استسلام الهند إلى القوة الأوروبية، وذلك بعد عقود أو قرون من المذابح والقتل البطيء عن طريق تغيير سايكولوجية الفرد الهندي.. حيث "جرت دراسة وتحليل أمجاد حضارة الهند القديمة، وتصنيفها، مع تثقيف النخب الهندية بالأفكار والمؤسسات البريطانية"[١٥٣]، وتم العمل على طمس هويتها، ومعالم حضارتها.

يقول (كيسنجر): "المسيحية عاشت أحقابها الصليبية، دائبة أحياناً على إعلاء شأن رسالتها الكونية بحماسة موازية، ومعتمدة أساليب مشابهة على أصعدة الغزو، والهداية القسرية (أقدم الغزاة الإسبان على إلغاء عدد من الحضارات القديمة في الأمريكيتين الوسطى والجنوبية، في القرن السادس عشر"[١٥٤]. وكتعقيب على ما كتبه بأن المسيحية كانت تمثل في وقته رؤية كونية، أما اليوم وبعد أن خبت روح الصليبية برزت العلمانية، وهيمنت على الفكر الأوروبي، "صارت المسيحية مفهوماً فلسفياً و تاريخياً، بعيداً عن أن تكون مبدأ استراتيجياً عملياتياً، أو نظاماً دولياً، وتلك العملية كانت ميسرة، لأن العالم المسيحي كان قد تبنى نوعاً من التمييز بين ما (لقيصر)، من ناحية، وما (للرب)، من الناحية الأخرى"[١٥٥]. وهذه السمة هي إحدى السمات الرئيسة في الفكر المسيحي، إن لم نقل إنها من الأصول الثابتة فيه، وهذا ما يؤكد عليه – في المقابل - الكثير من المفكرين بأن الإسلام مبني على فكرة الدولة، ولكن غير الدينية. وهو ما يقوله (كيسنجر): "تطور العالم الإسلامي كان أكثر تعقيداً، فترات معينة أنعشت آمالاً في مقاربات اندماجية. بالمقابل حتى تاريخ قريب لا يتعدى عشرينيات القرن العشرين، ظل خط مباشر من الخلافة السياسية المستمدة من النبي - عليه الصلاة والسلام - مؤكداً بوصفه واقعاً عملياً لفن

١٥٢ - النظام العالمي، ص١٩٠.
١٥٣ - النظام العالمي، ص١٩٨.
١٥٤ - النظام العالمي، ص١٠٧.
١٥٥ - النظام العالمي، ص١٠٧.

سياسة الدولة في الشرق الأوسط، من قبل الإمبراطورية العثمانية"[١٥٦].

فكان المسلمون متمسكين بروح الدولة الإسلامية، بغض النظر عن الاسم، سواء أكانت خلافة أم دولة، مع وجود خلافات بين المسميات، فالذين تنصلوا من المسؤولية هم العرب بالدرجة الأولى، فالعرب لم يؤسسوا أي دولة أو إمبراطورية، "وظل الوعي اليوناني والفارسي دائباً على تصويرهم غزاة طارئين على الطرق التجارية والكتل السكانية المستقرة. وقد بقي مستوى إقناعهم بجدوى رؤى هذه الثقافات لنظام عالمي، متوقفاً على الترتيبات الطارئة لشراء ولاء قبيلة معينة، وتكليفها بمهمة فرض الأمن على امتداد الحدود الإمبراطورية"([١٥٧]).

ودول الخليج أشرب في قلوبها ذلك الوعي اليوناني، والفارسي، وكانوا جزءاً فعالاً في إسقاط الخلافة العثمانية، وهم أول من ارتد على الخلافة، وعملوا على تقويضها.

ومنذ أن تم إسقاط الخلافة الإسلامية، بات العالم الإسلامي منقسماً إلى حفنة منصورة بالدعم الغربي، وهم الحفنة التي اعتنقوا أو اتبعوا النظام الوستفالي، وأكثرية تؤمن بالإسلام كدولة وكحكم، ودين ودنيا، لذا لم يكن من السهل على العالم الغربي الهيمنة على العالم الإسلامي إلا عن طريق تلك الحفنة القليلة المتسلطة على رقاب الناس. وتمت جلّ هذه التغيرات على العالم الإسلامي عن طريق العسكر؛ "القادة العسكريون الآتون عموماً من قطاعات سكانية مستبعدة من العملية السياسية، يوسعون دائرة تأييدهم الشعبي عبر رفع الشعارات القومية – والوطنية، ثمة ثقافات سياسية شعبوية، لكنها غير ديمقراطية تجذرت في المنطقة"[١٥٨].

طبعاً والإسلاميون كانوا على عكس ذلك، إذ يقول فيهم (كيسنجر): "غالباً كان الإسلاميون – الذين يشكل تنظيم الاخوان المسلمين التعبير الأكثر شيوعاً عنهم هذه الأيام – أشخاصاً رفيعي المستوى التعليمي، من منتسبي الطبقة الوسطى الحديثة. كثيرون عدوا الحركة الإسلام وية طريقاً للالتحاق بركب حقبة ما بعد الحرب، دون الاضطرار للتخلي عن قيمهم، طريقاً للتحديث دون الانتساب إلى الغرب"[١٥٩].

بناءً على هذه الرؤية، تمخض لدى المسلمين أمور عدة: "وتقدم الإسلام العاصف عبر

١٥٦ - النظام العالمي، ص١٠٧.

١٥٧ - النظام العالمي، ص١٠٣.

١٥٨ - النظام العالمي، ص ١١٧.

[١٥٩] - النظام العالمي، ص١١٧.

ثلاثة قارات، أقنع المؤمنين بسماوية رسالته، ومدفوعاً بالإيمان بأن انتشاره أن يوحد البشر جالباً السلم، كان الإسلام ديناً أولاً، دولة متعددة الإثنيات ثانياً، ونظاماً جديداً ثالثاً، في الوقت عينه"[١٦٠]. إن الذي لم يقبل الاستسلام هو المسلمين، والذي درج ضمن حركات إسلامية، لذا بدأت الحرب على الإسلام، لأنه العامل والمانع الوحيد من سقوط الأرض والبلاد في أيدي الأوروبيين، الذين إذا دخلوا أي بلاد عاثوا فيها فساداً، وكان الطريق الوحيد أمام الاستعمار هو ضرب الحاضنة، ودعم زعزعة الاستقرار، زعزعة فكرية واقتصادية وسياسية إلخ.. فبتولي الأجهزة العسكرية زمام الأمور في العالم الإسلامي، وتنشيط حركة وثقافة الانقلابات، دخل العالم الإسلامي إلى مرحلة عدم الاستقرار، فخلال قرن من الزمن توالت عشرات الانقلابات في العالم الإسلامي، وتعرضت الحاضنة إلى تدمير شبه كلي..

ولكن الأمر الذي أقض مضاجعهم، ودمر أحلامهم، كانت قناعة المجتمع بالعودة إلى الإسلام، فلم تكن جميع تلك المحاولات إلا محاولات غير مجدية.. وعلى عكس توقعاتهم، فلم تمر أعوام حتى أضحى الناس يؤمنون بعودتهم إلى حاضنة الإسلام، وهيبة الخلافة العثمانية رغم ما عليها من مآخذ، إلا أنها كانت بمثابة رمز للوحدة الإسلامية، ظل المسلمون يستظلون بها، وهوية تبعدهم عن النكران، وسقفاً يحميهم من الصواعق والأمطار، وتعريفاً بوجودهم، وهي في نظرهم استمرار لدولة النبوة بشكل من الأشكال.. وهذه القناعة تبلورت سريعاً رغم كثافة وثقل الحملة التي بدأها عمال التغريب بكل تلك الوسائل التي هيئها الغرب لهم، من هالة الانتصار، إلى الدعم العسكري والاقتصادي والفكري و.. و.. فكانت التوقعات هي ارتداد الشعوب المسلمة عن الإسلام، واعتناق المذهب الغربي، والاستسلام التام لهم، ولكن تلك التوقعات أضحت سراباً بقيعة، بحيث إن الشعوب المسلمة ضحّت بكل ما لديها للحفاظ على هويتها، فكل تلك الثورات التي سعرها الغرب، وعملاؤه، انتهت بمطالب جماهيرية تدعوا إلى إعادة العمل بالشريعة الإسلامية.. وحتى الآن، ومع كل تلك الموارد التي تستخدم لضرب الإسلام، وإبعاد المسلمين عنه، فإن العالم الإسلامي يريد الإسلام، ويزداد بناء المساجد، وأعداد الحجيج والمعتمرين، والمكتبات الإسلامية، وإقبال الناس على المساجد، والأعمال الخيرية، والذود عن الإسلام ورموزه، وأسماء محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وغيرهم من أصحاب الرسول، تملأ بيوت المسلمين.. وليس هذا فحسب، بل دخل الإسلام القارة الأوروبية، ويتكاثر عدد معتنقيه بشكل كبير وسريع بين أبناء الغرب.. وهذا بدوره أدى إلى تمسك سلطة الغرب،

١٦٠ - النظام العالمي، ص١٠٣.

وحرصه على ضرب الحاضنة يوماً بعد يوم، وبقوة أكبر، حتى ينفصل الناس عن مجتمعاتهم، فجعلوا من العالم الإسلامي جحيماً لا يطاق.. فمن خلال عملائهم وأعوانهم، ونعيق مطاياهم، أصبح العالم الإسلامي مقبرة للمواهب والإبداع والتقدم.. عندما تدمر الحاضنة، فلن يبقى مسكن أو مأوى يلم شمل المبدعين، وأصحاب العقول، والتنمية. وغيروا وجهة المبدعين، وأصحاب العقول إلى الغرب، فارين بعقولهم وشخصيتهم وإنسانيتهم إلى الغرب، حيث الأمان والحاضنة.

دلالات عصر التنوير:

عصر التنوير كلمة لها إيحاء تاريخي، وفكري، فمن الجانب التاريخي هي عبارة عن حقبة زمنية، وحلقة ربط بين زمنين.. فبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، خيم ظلام دامس على القارة الأوروبية، وساد الركود والتخلف، وسمّي بعصر الظلام، حيث تفشى الجهل والأمراض، والركود الاقتصادي، والتخلف الفكري والمعرفي، وتوقفت التنمية على جميع الأصعدة، وفي المقابل بزغت شمس الإسلام على العالم.

فالتنوير اسم أطلق على حقبة زمنية من جانب، ومن جانب آخر، هو منهج جديد ساد أوروبا. ولم ينظر الغربيون إلى هذه الحقبة كتاريخ طبيعي مر عليهم، وإنما نظروا إلى عصر التنوير كمرحلة انقلاب على جميع ما سبق، وإعادة تعريف المفاهيم من جديد.. وعصر جديد لميلاد جديد لأفكار جديدة ثورية، انقلابية، تمردية، دموية، عنيفة... كان انقلاباً على المفاهيم والمصطلحات، والأديان، والأنبياء، وحتى الإله.. كانت هذه قناعة راسخة في أذهان رواد التنوير، فعلماء الاجتماع، وغيرهم، تبوأوا لأنفسهم مكانة الأنبياء، لذا يقول (ماكس فيبر): "إن على علماء الاجتماع التوقف عن لعب دور الأنبياء"[١٦١]. ومن ينظر إلى غزل (كيسنجر) بعصر التنوير، وكأنها ولادة بدون مخاض، و تحول بغير ألم.. متناسياً أن هاتين الحقبتين ضرب بينها بسور لطخته الدماء، وعزلته الأشلاء المتراكمة.. فهي شبيهة بثورة الجياع، أو ثورة الصعاليك، أو ثورة العبيد، وتحولت هذه الثورة إلى مراجعات طالت جميع المرافق، وأعادت التسميات والتعريفات.

ولاستحواذ الغرب على خيرات ومقدرات الشعوب، لم يتوان عن استعمال أي وسيلة من الوسائل؛ بدءاً من الوسائل الهمجية المتبعة في العصور المظلمة، وإلى محاكم التفتيش، وقتل الهنود، واستنزاف دول أمريكا اللاتينية، وعملية الاسترقاق لها على قدم وساق، وإلى الآن، دون انقطاع.

---

١٦١ - العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ص١٣.

حاملو راية العلم لم يكونوا منصفين، لا في عرض ما يسمى بالحقائق، ولا في تعريف العلم.. كل مفردة، مهما كانت صغيرة، أو كانت محاولة لحل معادلة علمية، امتطوها وجعلوا منها مسلمات علمية لا تقبل الشك، وجعلوا كل ما يصل منا إليهم مشكوكاً في أمره، ولم يكن هذا إلا كذباً وافتراءً على العلم والمنهج العلمي، كما تلاعبوا بمفهوم الحرية وحقوق الإنسان، وكثير من المفاهيم التقدمية..!! كذا كان حالهم التدليس والكذب والافتراء..

عندما كانوا يزفون إلى العالم الحرية، كان السود في بلدانهم مهانين ومهمشين، وعبيداً يرثى لحالهم.. وعندما تحدثوا عن الديمقراطية، قضوا على ملايين الناس الأبرياء في العراق، ومصر، والجزائر، وتونس، وليبيا.. ولم يكن حال العلم بأحسن من تلك المفاهيم. هذا، ناهيك عن سرقة نتاجات المسلمين، في جميع الميادين، وانتحالها باسمهم.. وأقرب تعريف لحاملي تلك الشعارات: أنهم كانوا لصوصاً، كما دخلوا القارة الأمريكية، وعاثوا فيها فساداً ودماراً وقتلاً وفتكاً وتغييراً لهويتهم، وهكذا دخلوا بلاد المسلمين ولم يرقبوا إلّاً ولا ذمة لا في الأرض ولا في الشعوب، ولا في خيراتهم وأمنهم.. انظروا إلى ما يسمى بعالم الحيوانات، انظروا إلى تدليسهم و زورهم، يربون الحيوانات في حدائقهم ومختبراتهم، ومن ثم يجعلون منه صورة حقيقية لعالم البراري، فهم عبر ذلك كما تلاعبوا بكثير من الحقائق، تلاعبوا أيضاً بهذا العالم، فكل من له حس فني أو سينمائي يرى أن الذي يعرض في صورة عالم الحيوانات ليس إلا أفلاماً تم إخراجها وفق سيناريو مستوفي الشروط والأركان. كيفية عرض أسد أو ضبع، تمت تربيته على التمثيل، وأداء دوره لإخراج وثيقة سينمائية لحاجة معينة، الأسد ممثل، وكذا الحمار الوحشي، وكذا فرس النهر، يأتون به من مركز التدريب وهو مؤهل لأداء دوره من زاوية معينة، وإيصال رسالتهم كما يريدون.. إعلام لا يرحم.. عالم مبني على الافتراس.. عالم الغلبة للأقوى، عالم يؤيد جميع النظريات الغربية؛ عقيدة وقناعة، ليحل محل الإيمان..!! انظروا إلى أي فلم وثائقي، عندما يأتي بالبطل، سواء كان أسداً، أو ضبعاً، أو نمراً.. المشاهد.. وزوايا الكاميرات من جميع النواحي، لا تختلف تلك المشاهد عن مشهد رامبو أو ارنولد أو كيانو ريفز أو انجلينا جولي.. وكيفية تجوال هذا البطل (الأسد، النمر، الضبع، القط، إلخ...)، ويسير الفلم وفق سيناريو مكتوب ومدروس ومنشور، حتى تتأصل القناعة للمشاهد على صحة المنهج العلمي للغرب.

وظف الغرب كل شيء في سبيل الهيمنة على العالم، والاستحواذ على خيراته، ومقدراته، مبرراً جميع خطواته، ومذابحه، وجرائمه، تحت مسمى النظام العالمي، وهو نظام واه، مبني على توحيد الغرب تحت غطاء رسالة الرجل الأبيض، محللاً جميع أفعاله، ممتطياً

العسكر والاقتصاد، مزيفاً التاريخ والعلم والثقافة.

وهذا لا ينفي كون الغرب، كإنسان فرد، وكمجتمع إنساني، ليس جزءاً من تلك المؤامرة على البشرية، فالغرب - كمنظومة اجتماعية وإنسانية - جزء أصيل من الحضارة البشرية، وهو يؤدي دوره الحضاري، وسيقوم يوماً ما بتسليم هذه الراية الحضارية إلى غيره من الأمم والشعوب والحضارات، عندما يأذن الله ويشاء، حسب سننه في مسيرة الحضارات البشرية.

إن العالم الإسلامي يجب أن يقوم بإعادة النظر في ملفاته، وتنظيم أفكاره المشتتة، وجمع قواه، وأن يقوم بمسؤولياته ومهامه، ولا يعفي نفسه من تلك المسؤولية الكبيرة، تحت أي تبرير كان، بالحفاظ على مقومات كيانه: القرآن كعلم للكون والحياة، وكشعوب لا تزال تعيش في الخيرية، دون ريادة.. فخلال قرون مضت تدنى العالم الإسلامي إلى العيش في التاريخ، دون الدخول في المعطيات الحضارية، فهناك حياة بايولوجية تتشاركها جميع المخلوقات في هذه الحياة، أما حياة التمكين والعمران، فهي الدخول إلى عالم التعاطي مع المعطيات الحضارية والفكرية، وأن يكون لهم موضع قدم في الركب الحضاري؛ إسهاماً ومشاركة في خدمة الإنسان والكون، والقيام بمسؤولية تعليم الأسماء بمسمياتها، والعمل على بناء مفهوم الخلافة، وإنشاء وتوطيد العلاقة بين العباد ورب العباد، والشهادة على الناس، وبيان حقيقة الرحمة الإلهية، وإفشاء السلام والرحمة بين العباد، والصدق مع العلم والفكر❐

عبق الكلمات

عندما تصطدم المخيّلة بالواقع
في رواية (السامفونيا الراعوية)، لـ(أندريه جيد)

عبد الباقي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

تبدأ الرواية على النحو التالي: فيما كنت عائداً من (لاشودي فون) وافتني ابنة صغيرة، لم يسبق لي معرفتها، تدعوني إلى الإسراع في الحضور لدى امرأة عجوز مسكينة، تحتضر على بعد سبعة كيلو مترات. كانت الشمس تغيب، وكنا نسير وسط الظلام، حين أشارت دليلتي الصغيرة إلى كوخ قش على سفح تل كأن لا بشر فيه، لولا سحابة ضئيلة من الدخان تتصاعد منه.

ربطت جوادي إلى شجرة تفاح قريبة، ثم انضممت إلى الابنة في الحجرة المظلمة، حيث لفظت العجوز أنفاسها قبل لحظات.

وبغتة يلمح الراوي جسماً في زاوية مظلمة يدنو، فيقع على شكل إنسان.

واستطاع أن يميز بأنها فتاة، وعرف من دليلته بأنها ابنة المرأة العجوز التي ماتت قبل قليل، وكانت صماء وخرساء، وقد حكمت على ابنتها هذه بعدم الخروج من البيت طوال عمرها الذي بلغ الآن الخامسة عشرة، وعليه فهي لا تعرف الكلام، ولا تفقه أي معنى لأي إشارة، كما لا تميز الألوان، لقد أمضت كل حياتها في العتمة برفقة امرأة بها مس عقلي.

يتقدّم الطبيب الراوي، ويقودها إلى جواده، بعد أن يشعر بمشاعر إنسانية تجاهها، ويأتي بها إلى البيت.

أمام هذا المنظر المخيف، ترتعب زوجته (أميلي)، يصرخ ابنه (جاك). المنظر مروع ولا شك، لأنها لم تستحم منذ لحظة ولادتها، وتبدو الفتاة الغريبة التي بدت أمام أنظارهما قادمة من كوكب آخر، تخرمش كل مَن يدنو منها، ثم تصدر نشيجاً كمواء قطة، لكن الأب يستفيض في الحديث عن الظروف التي جعلت منها على هذا النحو، واستطاع أن يقنع زوجته بمحاولة تقديم خدمة إنسانية لهذه الفتاة التي هي بأمس الحاجة لمثل هذه الخدمة، فتقتنع الزوجة بالفكرة، ولا تتردد في إدخالها إلى الحمام وقضاء وقت جيد لتنظيفها، وبالفعل تدخل الفتاة الحمام مرغمة، فتقص الزوجة شعرها وأظافرها، وتغسلها لمدة طويلة، ثم تلبسها ثوباً جميلاً.

وفجأة تخرج فتاة رائعة الجمال، وكأنها ليست الفتاة التي دخلت البيت منذ قليل، تمشي على مهل برفقة (أميلي).

أمام هذا التغيير يرى الطبيب أن يواصل مهمته الإنسانية، ويسعى إلى انفتاحها على الحياة، وهي مهمة بالغة الصعوبة بالنسبة لفتاة في مثل هذا العمر، وهذه الظروف.

يُعلّمها الحروف الهجائية: ب.. با.. م.. ما.. حتى تحفظ هذه الحروف، ثم يعلمها الكلام، وتشخيص ألوان الطبيعة، وبعد أيام يأخذها إلى حفلة موسيقية في (نوشاتيل)، يطلب إليها أن تُركّز على الفرق بين أصوات الآلات، و تقارنها بألوان الطبيعة، كأن تشبه الأحمر والبرتقالي بأصوات الأبواق والترمبون، وأن تتمثل الأصفر منها والأخضر برنانية الكمان والفلولونسيل والجهير، والبنفسجي والأزرق بالشبابة والكلادينات والمزمار، فتقول (جيرترود)- وهو الاسم الجديد الذي تختاره لها العائلة-: "والأبيض ما عساه يعني لنا"؟

يجيب: "الأبيض هو الحد الفاصل، تتلاشى عنده جميع الألوان الحادة، وكذلك الأسود بعكسه، تخيليه ياجيرترود جسماً أثقلته الألوان الأخرى وأظلمته". ويوصلها إلى درجات الرقة والرهافة والتذوق، فتقول: "هل يمكن أن تكون الأشياء التي نبصرها بمثل هذا الجمال الذي أراه"؟

وهنا تكمن أهمية ما يرغب (جيد) في طرحه، أعني إشكالية العلاقة بين الواقع والخيال.

(أندريه جيد) لا ينسى للحظة واحدة بأنه يبحث عن أمور لم يكتشفها أحد غيره، وبالطبع لن يجيبها، فيلجأ إلى الواقع يحاول أن يجري عملية لعينيها حتى تجيب على ذات السؤال بنفسها.

هل الخيال جميل أم الواقع، هل البصيرة ترى أشياء أجمل من البصر؟

يلجأ إلى صديقه (مارتين)، وهو طبيب عيون، ويجري عملية جراحية لعيني (جيرترود)، ويبدو (جيد) نفسه مستعجلاً على مشاهدة النتيجة (قوت الأرض - وقعت في ٢٤٠ صفحة- ومزيفو النقود وقعت في ٥٢٨ صفحة، بينما هذه وقعت في ١٠٨ فقط).

وعلى نحو تقريري مباشر تأتي العبارة التالية مختصرة كل شيء: "رسالة من مارتين: نجحت العملية، والحمد لله".

كانت (جيرترود) قد تعلقت بالراوي من خلال سماعها لصوته فقط، وتعلقت بالحياة من خلال تصورها المسبق، وعندما تفتح عينيها تصاب بصدمة الواقع، فلا وجه الرجل يرتقي إلى مستوى التصور، ولا الألوان بمستوى أصوات الآلات، لقد خانها كل شيء، فقررت أن تعود إلى الظلام، وتموت على الفور في فراشها.

إن الأشياء التي يكتسبها الإنسان بجهوده وصبره يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، هي الأبقى، وهي التي تعينه على فهم الحياة والمحيط، لذلك يواصل الإنسان العمل والبحث من أجل أن يعيش حياته بواقعيتها❐

مقالات

- القول بقِدم العالم	د. أكرم فتاح
- الروايات الدخيلة على الفكر الإسلامي	د. سعد الديوه‌جي
- تساؤلات من باب الشكّ المنهجي	إدريس آيات
- أهمية المراجعات في حياة الأحزاب والجماعات الإسلامية	محمد صادق أمين
- لماذا نكرهُ المعارضين؟	بكر أبو بكر
- الرحلات الجبلية في إقليم كوردستان	مثنى محمود
- التبليغ وجدواه	عمار وجيه

القول بِقِدم العالم

جعل الخالق مخلوقاً، والمخلوق خالقاً

- الجزء الثاني -

د. أكرم فتاح سليم/ جامعة دهوك

✍ في الجزء الأول تحدثنا عن أبدية العالم بأنه طريقة لإنكار يوم القيامة والجزاء، من قبل الملحدين والدهريين، الذين يروجون هذه الفلسفة غير المنطقية. فلا بد في الجزء الثاني أن نتحدث عن قدم العالم؛ لأنه جزء أساسي ومكمل للجزء الأول.

القدَم مصدر القديم، يعني السبق والتقدم على الغير. كما يأتي في مقابل الحدوث. وفي لغة العرب هو المتقدم على غيره، فيقال هذا قديم للعتيق، وهذا حديث للجديد، كما قال تعالى: وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾[1]، والعرجون غصن النخلة؛ شبه القمر به إذا انتهى في نقصانه. والعرجون القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم. وقال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾[2] أي متقدم في الزمان[3]. يقول ابن سينا: "حدّ القدَم هو أن يقال على وجهين، قديم بالقياس، وقديم مطلقاً، فالقياس هو شيء زمانه في الماضي، أكثر من زمان شيء آخر هو قديم بالقياس إليه". وأما القديم المطلق، فيقال على وجهين أيضاً بحسب الزمان وبحسب

الذات، أما الذي بحسب الزمان، فهو الشيء الذي وجد في زمان ماض غير متناه، وأما القديم بحسب الذات، فهو الشيء الذي ليس له مبدأ لوجود ذاته، مبدأ أوجبه، وليس له مبدأ يتعلق به، هو الله الواحد سبحانه. والقديم الزمان من وجود الملائكة والسماوات وجملة أصول العالم. والقديم بالذات وبالزمان، يتفقان في القدم المطلق، وعدم السبق بالعدم. وينفرد الله تعالى بأنه قد يم، والدليل على كونه قديماً، والعالم محدث؛ أنه لو لم يكن قديماً لكان محدثاً؛ ولو كان القديم - تعالى - محدثاً لاحتاج إلى محدث، وهكذا إلى ما لا نهاية. وعلى هذا، فلا بد من أن ننتهي إلى القول بصانع قديم لا أول له[٤]. وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى القديم، وليس هو من الأسماء الحسنى.

المراد من لفظة العالم عند المتكلمين، كما يذكر أبو المعين النسفي[٥]، جميع ما سوى الله تعالى من الموجودات؛ من جواهر وأجسام وأعراض. ويرى الماتريدي[٦] أن العالم منقسم إلى قسمين: أعيان وأعراض؛ لأن الأجسام هي جواهر، ومتركبة منها، وهي القسمة التي يقول بها أبو المعين النسفي، لكنه يخالف أستاذه في القول بأن الجواهر قائمة بنفسها. ويرفض الماتريدي هذا التعريف؛ لأنه لا قائم بنفسه سوى الله تعالى[٧].

قدم العالم أو حدوثه، فإن الاختلاف فيها بين المتكلمين من الأشعرية والحكماء المتقدمين، يكون راجعاً للاختلاف في التسمية عند بعض القدماء، وذلك أنهم اتفقوا أن هناك ثلاثة أصناف من الموجودات، طرفان، وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين، واختلفوا في الواسطة، فأما الطرف الواحد، فهو موجود وجد من شيء، أعني عن سبب فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه، أي على وجوده. وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس، مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك. وهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة. وأما الطرف المقابل لهذا، فهو موجود لم يكن من شيء، ولا عن شيء، ولا تقدمه زمان، وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً، وهذا الموجود مدرك بالبرهان، وهو الله تبارك وتعالى، فاعل الكل، وموجده، والحافظ له، سبحانه وتعالى قدره.

وأما الصنف من الموجود الذي بين هذين الطرفين، فهو موجود لم يكن من شيء، ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن شيء، أعني عن فاعل، وهذا هو العالم بأسره[٨].

فالله عند (أرسطو) هو العلة الأولى، وهو المحرِك الأول، فلا بد لهذه المتحركات من محرِك، ولا بد للمحَرَك من محَرَك آخر، متقدم عليه، وهكذا حتى ينتهي العقل إلى محرِك بذاته، لأن العقل لا يَقبل التسلسل في الماضي إلى غير نهاية. وهذا المحرِك بذاته، لا بد أن يكون سـ رمداً لا أول له ولا آخر، وأن يكون كاملاً منزهاً عن النقص والتركيب والتعدد، وأن

يكون مستغنياً بوجوده عن كل موجود. وهذا المحرِك الأول سابق للعالم في وجوده، سبق العلة، لا سبق الزمان، أو كما قال: (لا يخلق العالم في زمان)، لأن الزمان - حسب تصوره - حركة العالم. ونحن نرى أن الله هو العلة، والعالم هو المعلول، وليس المقصود أن العلة لا تنفك عن المعلول، ولو قلنا ذلك لزمنا قدم العالم، وليس بصحيح، والله سبحانه يتحرك بحركة تليق به، وهو سبحانه سابق العالم سبق الذات والزمان، فله إرادة يتصرف بها كيفما شاء، ومتى شاء، لحكمة يريدها هو، وأي تغيير في إرادته، فهو مصدر هذا التغيير دون سواه، ، فلا نقص في إرادته إذا أحدث العالم في وقت دون وقت، لحكمة يعرفها هو، ولماذا اختار هذا الوقت دون سواه، لا يمكن أن نقارن إرادة الخالق بإرادة المخلوق، فإرادة الله إذا أراد كان.

يقول ابن تيمية[٩]: "إن المشهور من مقالة أساطين الفلاسفة قبل أرسطو، هو القول بحدوث العالم". ويرى أبو حامد الغزالي أن القول بقدم العالم يستلزم عدم وجود الصانع، أو أن العالم باق على الدوام، فلا يفنى، وهذا يستلزم إنكار القيامة. ويذكر النسفي دليلاً على حدوث العالم، يقوم على التفرقة بين واجب الوجود، وهو القديم، وبين جائز الوجود، وهو المحدَث. والقديم ينبغي أن يكون واجب الوجود؛ لأنه لو لم يكن واجب الوجود، لكان جائز الوجود، أو ممتنع الوجود، لكن وجوده متحقق، ومحال تحقق وجود ما هو ممتنع، لما فيه اجتماع الجواز والامتناع. وليس بجائز أن يقال إنه جائز الوجود، لأنه لو كان جائز الوجود، لكان جائز العدم، بل هو واجب الوجود ضرورة.

أما أبو حنيفة[١٠] فيقول: "إن الله تعالى خالق قبل أن يخلق، ورازق قبل أن يرزق، بالضرورة"، ويراد به، أي بالخالق، له قدرة الخلق التي هي صفة حقيقية[١١].

وهناك أدلة كثيرة على حدوث العالم؛ منها أيضاً أن العالم أجسام وأعراض، وكلاهما محدَث. والدليل على حدوث الأجسام، أنها لا تخلو من الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، والدليل على ذلك أنها لا تنفك عن الحركة والسكون، وهما حادثان، لامتناع حوادث لا أول لها. وكذلك حدوث كل موصوف بصفة، لأن الصفات هي الأعراض، والأعراض لا تقوم إلا بجسم[١٢]. ونحن نرى أن العالم قديم في العلم الإلهي، من حيث كونه معلوماً في علم الله، وأنه حادث في الظهور لعالم الشهادة، والعالم حادث، كما أكد على ذلك سبحانه وتعالى:

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾[١٣]، أوجد السموات السبع والأرض، وما فيهما، في زمن مدته ستة أيام،

وجائز أن تكون كأيام الدنيا، وجائز أن تكون كالأيام التي عنده، وهي ألف سنة، لقوله تعالى في (سورة الحج):
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) [١٤]، والمقصود في قولهَ تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(هود: ٧)، يعنَي أن الماء كان موجوداً، خَلَقَه سبحانه وتعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض، وخلق العرش أيضاً قبل خلق السموات والأرض، والعرش سـرير المُلك، ومنه يتم تدبير كل شيء في هذه الحياة، ثم في قوله تعالى ستة أيام يعني خلق السموات والأرض في زمان، والزمان ترافقه الحركة، والحركة حادثة❐

الهوامش:

(١) سورة يس: آية ٣٩.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ١١.

(٣) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، صدر الدين ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد بن علي، ص٥٥.

(٤) الفرق الكلامية الإسلامية، مدخل ودراسة: د. علي عبد الفتاح المغربي، ص٢١٥.

(٥) النسفي: (٤١٨-٥٠٨هـ=١٠٢٧-١١١٥م)، ميمون بن محمد أبو المعين النسفي الحنفي، عالم بالأصول والكلام، كان بسمرقند، وسكن بخارى. من كتبه (بحر الكلام)، و(تبصرة الأدلة)، في الكلام، و(التمهيد لقواعد التوحيد). (الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي ، ج٧، ص ٣٤١، مصدر سابق).

(٦) الماتريدي: (ت٣٣٣هـ= ٩٤٤م)، محمد بن محمد أبو منصور الماتريدي، من أئمة علماء الكلام، نسبته إلى (ماترید) محلة بسمرقند. من كتبه: (التوحيد)، و(أوهام المعتزلة)، و(شرح الفقه الأكبر)، المنسوب للإمام أبي حنيفة. مات بسمرقند. (نفس المصدر السابق، ج٧، ص١٩).

(٧) الفرق الكلامية الإسلامية، مدخل ودراسة: د. علي عبد الفتاح المغربي، ص٣٧٠ – ٣٧١، مصدر سابق.

(٨) فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ابن رشد، ص٥.

(٩) ابن تيمية: (٦٦١-٧٢٨هـ=١٢٦٣-١٣٢٨م)، أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي، شيخ الإسلام. ولد في (حران)، وتحول به أبوه إلى دمشق، فنبغ واشتهر، ثم سافر إلى مصر، ومات بدمشق. كان كثير البحث في فنون الحكمة، آية في التفسير والأصول. ومن تصانيفه: (الجوامع)، في السياسة الإلهية والآيات النبوية، و(الفتاوى) و(الإيمان) و(الجمع بين النقل والعقل). (الأعلام، خير الدين الزركلي، ج ١، ص ١٤٤، مصدر سابق).

(١٠) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ج٨، ص٥٨٩.

(١١) أبو حنيفة: (٨٠-١٥٠هـ=٦٩٩-٧٦٧م)، النعمان بن ثابت، الكوفي. إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد ونشأ بالكوفة، كان قوي الحجة، وكريماً في أخلاقه جواداً. وله (مسند) في الحديث، جمعه تلاميذه، و(المخارج) في الفقه. تنسب إليه رسالة (الفقه الأكبر)، توفي ببغداد. (الأعلام، خير الدين الزركلي، ج٨، ص ٣٦، مصدر سابق).

(١٢) التقرير والتحبير، محمد بن محمد ابن أمير الحنبلي، دراسة وتحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، ص٢٥٧.

(١٣) سورة هود: آية ٧.

(١٤) سورة الحج: آية ٤٧.

الروايات الدخيلة على الفكر الإسلامي

- الآيات الشيطانية نموذجاً -

د. سعد سعيد الديوه جي

✍ مما لا شك فيه أن الفكر الإسلامي فكر عميق وغزير بالروايات والقصص؛ منها الصادقة، ومنها الدخيلة عليه، والتي زرعها - ومنذ بداية الدعوة - أعداء الدين؛ المنافقون والزنادقة. ولعل حديث الإفك، الذي كَذّبه القرآن، خير مثال على ذلك، وأنزل به الباري آيات بينات.

واستمر الأمر بعد الفتوحات الإسلامية، خصوصاً من قبل الشعوبيين، والزنادقة، وبعض الأحبار، حسداً من عند أنفسهم، وبغضاً لهذا الدين الذي هز عروشهم وكبرياءهم.

وإلى حد الآن، نجد من يطبل لهذه الروايات، إلى جانب الأساطير والخرافات الدخيلة على الفكر الإسلامي الأصيل، والذي يمثل القرآن الكريم عموده الفقري.

ولنا وقفة مع ما يسمى بـ(الآيات الشيطانية)، التي روج لها (سلمان رشدي) في روايته التي تحمل هذا الاسم عام ١٩٨٨م، ولا زالت تجد لها صدىً على صفحات التواصل الاجتماعي؛ بين مروج لها، ومنكر.

وقد حصل سلمان رشدي على وسام الفنون والآداب الفرنسي، كما تم منحه لقب فارس (سير)، على يد ملكة بريطانيا، وجوائز أخرى عديدة!.

وعنصر الترويج لهذه الروايات، من قبل من يعادي الدين، واضح في هذا العمل، حيث الإساءة للرسول - صلى الله عليه وسلم -، هي المرتكز الأصلي للرواية، كما حدث مع الرسوم المسيئة للرسول، والتي نشرتها إحدى الصحف الفرنسية، المسماة (شارلي إيبدو)، قبل عدة أعوام، وما رافق المسألة من أحداث وتفاعلات لم تعبر إلا عن حقد دفين على شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم -، واستغلال ما يقوم به المتطرفون على أنه يمثل الإسلام.

إن الذين رفضوا (الآيات الشيطانية) كانوا قد استندوا على الثوابت القرآنية، وكما سنذكره لاحقاً.

وأما أصل الرواية، فقد استند مروجوها إلى الآيات القرآنية: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾}(سورة الحج)، وأن هذه الآيات جاءتَ رَداً على ما يدعون بأن الرسولَ - صلى الله عليه وسلم - نطق به أثناء تلاوته لآيات (سورة النجم): (أفرءيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)، فسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وسجد معه المسلمون، والمشركون، فرحاً بالاعتراف بآلهتهم من قبل محمد، ثم استناداً لآيات الحج رجع الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأصل: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾}(سورة النجم). وبنية الرواية هشة إلى اقصى درجة، وكما سنعرضه لاحقاً.

وأما اللات والعزى ومناة، فهي ثلاثة آلهة، لها معابد قريبة من (مكة)، وربما كان المشركون يعتقدون أن الأصنام الثلاثة عبارة عن تجسيد لفكرة الملائكة بنات الله - حاشا لله -، وقد اختلف المفسرون في معنى كلمة (الغرانيق العلى)، أهي كائنات ملائكية، كما ذكرنا، أم نوع من الطيور التي ترتفع بالشيء، فتشفع لهم، وعلى كل حال فهي مصطلحات للأوثان التي كانوا يعبدونها.

وسنعرض قدر المستطاع تهافت الرواية استناداً لتكامل القرآن الكريم في نصوصه، وأنه ليس حَمال أوجه، كما يروج لهذه الفكرة بعض بقايا المنافقين والمشككين إلى أيامنا هذه.

إن من رأى صدق الرواية، وصدّق بها، من السابقين واللاحقين، يضعون الآيات التالية وراء ظهورهم، وكأنها لم تكن. يقول تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾}(سورة النحل)، وهذه الآيات صريحة جداً، ولا تقبل التأويل بأن الشيطان لا يلقي شيئاً على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

ويذكر الدكتور أيوب حسين السنجاري، في كتابه (حقيقة الدجال، في الكتاب والسنة)، عن الحافظ ابن كثير، أن الروايات المتعلقة بالموضوع كلها مرسلات منقطعات، وأن الروايات مجرد إشاعات شعبية تداولها الناس، ووجدت طريقها عند بعض المفسرين وكتبة السير.

ويقول الدكتور السنجاري إن هذه الرواية التي رواها قتادة، وغيره، هي سبة على كل عالم أو مفسر، إن صدقها، وكما ذكرنا فهي تعارض القرآن جملةً وتفصيلاً.

والمطلع على سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلاحظ - بلا صعوبة - أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - في سيرته من عدم التنازل عن مبدأ التوحيد قيد أنملة، واضح وضوح الشمس في عز النهار، وأنه لا ينطق عن الهوى، إنما هو وحي يوحى، وهو كما يقول تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾}(سورة الشعراء).

ولترويج الرواية، وإعطائها المصداقية، يقول الدكتور السنجاري: بأن من نقل الرواية عن قتادة، قال بأن المسلمين الذين كانوا يصلون مع النبي لم يسمعوا بما قرأ النبي، وأن المشركين الذين لم يكونوا مع النبي، قد سمعوها، لأن الشيطان ألقاها في مسامعهم، وألقاها في قلب كل مشرك في (مكة)، وتباشروا بها. وهذا من أكبر خرافات الجاهلية، التي تخالف نصوص القرآن ومبادئه. وإذا صح أن قتادة، وغيره من علماء المسلمين، الذين رووا مثل هذه القصص الخرافية المخالفة لمبادئ الكتاب، فإن ذلك يجب أن يحفزنا لأن نعيد النظر في كل مروياتنا التي رواها هؤلاء، وأمثالهم، من مروجي الخرافات والأباطيل التي لوثت بعض جوانب التراث الإسلامي.

وللدكتور السنجاري رأيه في قوله تعالى: {إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴿٥٢﴾}(سورة الحج)، ما معناه بأن أمنية الرسل والأنبياء هي تصديق الناس لهم، وأن ما يطرأ على هذه الرسالات من تبديل وتحريف ونقص وزيادة، بعد وفاة الأنبياء والرسل، على أيدي بعض أتباعهم، هو من عمل شياطين الإنس والجن، ولم يكن الإسلام بعيداً عن المسألة، عندما نشأت من داخله فرق الباطنية والمكفرة وغلاة الخوارج، وشوهوا أصل الرسالة. يقول تعالى: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ

الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾}(سورة الأنعام). والحقيقة إن عنصر الإثارة والتشويق في مثل هذه الروايات هي التي تساعد على انتشارها، وقد رفضها علماء عدة، منهم ابن خزيمة، وقال إنها من وضع الزنادقة، والقاضي ابن العربي الأندلسي، وقال إنها باطلة لا أصل لها، وكذلك القاضي عياض، وقال إنها لو وقعت، لارتدّ كثير من المسلمين. وكذلك اعتبر ابن حزم أن القصة مكذوبة، وهي كذب بحت، لأن النبي معصوم من الزيادة والنقصان في الوحي، ويستحيل أن ينطق بالشرك. ومن الذين انكروا القصة الرازي، وغيرهم.

وقال البيهقي: بأن البخاري روى في صحيحه أن النبي قرأ (سورة النجم)، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن، وليس فيها حديث الغرانيق.

والآن نقف وقفة قصيرة مع مؤيدي خط سلمان رشدي من بعض المستشرقين، وكيف يخلطون الأمور على العامة، ويشوشون أفكارهم، بتعابير تبدو علمية، وهي بعيدة عن العلم التاريخي الرصين. وسنأخذ ما يقول (مونتغمري واط)، في كتابه (محمد: النبي ورجل الدولة)، حول الموضوع.

ومع الأسف فإن هذه النظرات لا تفهم روح الإسلام، وتميل إلى طرح كل ما يعادي مبادئه، وتضعه في إطار تاريخي مزيف لا يستند على التحليل العلمي والمنطقي للتاريخ.

يقول (مونتغمري واط)، في كتابه آنف الذكر، إن هذه القصة غريبة ومثيرة للدهشة، فمن خلالها بدأ نبي الديانة التوحيدية، غير المتساهل في مسألة إشراك آلهة أخرى مع الله، بأنه يأذن بالشرك في تلك الآيات التي تلاها.

في الواقع إنها قصة غريبة جداً، لدرجة يجب أن تكون صحيحة في أساسياتها التي انبثقت عنها، ومن غير المتصور أن أحداً قد اخترع هذه القصة ليقنع جموع المسلمين لقبولها. وعلاوة على ذلك، هنالك مقطع في القرآن يصف شيئاً من هذا القبيل، ثم يذكر الآية: {وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾}(سورة الحج).

وهذا الرأي يناقض نفسه بنفسه، فهو لم يذكر رأيَ رواة الحديث، الذين نفوه تماماً، والذين ذكرنا بعضهم، ولم يذكر أن الرواية غير مذكورة في أمهات كتب الحديث، ورغم إقراره بعدم وجود موقف للرسول - صلى الله عليه وسلم - هادن فيه أهل الشرك، قبل الهجرة وبعدها، وأن صلب الدعوة قام على مبدأ (لا إله إلا الله).

وإيغالاً في السطحية يعقب (واط)، في تناقض غريب، على رأيه، فيقول: إن الآية السابقة تم تفسيرها بطرق مختلفة، لكن النص والآية يتفق مع إحدى التفسيرات التراثية التي رويت، ولا يذكر ما هي هذه التفسيرات.

وإيغالاً في إضافة التشويق، ولو بسطحية مفرطة، يقول: "إن محمداً في ذلك الوقت، كان كثير الرغبة والشوق في إيجاد طريقة ما تجعل قبول الإسلام أمراً سهلاً للتجار والأغنياء، وعندما أضاف الشيطان تلك الآيات، لم يدرك محمد ما قد أحدثه الشيطان فيه، وسواء أقبلنا بهذا الموضوع أم لا - رغم أن هناك شيئاً من الحقيقة في ذلك - فمن المؤكد أن محمداً قام بتلاوة (الآيات الشيطانية) كجزء من القرآن، وفي وقت لاحق تلا وحياً آخر ينسخ تلك الآيات".

فالكلام أعلاه يضع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في موضع من لا يدرك ما يقول على تأثير رغبته في نشر الدعوة بين المشركين، ثم تلا وحياً يناقض ذلك، ولا يبرر مطلقاً التناقض في الموقفين، رغم أنه حشر التجار والأغنياء في كلامه بدون أن يبرر ذلك، وجملة "رغم أن هنالك شيئاً من الحقيقة" جملة مبهمة لا يقول ما هي هذه الحقيقة.

ويزيد إيغالاً في إعطاء جانب سلبي للرسول - صلى الله عليه وسلم -، فيقول: "لم يكن يجد في البداية في هذه الآيات ما يعتبره مناقضاً للدين الذي كان يبشر به"، فهل هذا يعني أنه كان مشركاً في هذه المرحلة من الوقت، والسؤال في منتهى السطحية، وقلة المعرفة، عندما يلمح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد دخل الشرك في معتقده أيام الدعوة، وقبل الهجرة إلى المدينة.

ورغم نفيه للسؤال الذي طرحه، فإنه يسترسل بعدها بشروح غير مستندة على أسس تاريخية ذات مصداقية، ويقول "بأن الفترة الزمنية بين النطق بالآيات الشيطانية، ونفيها، كانت طويلة، ولكن التسوية التي قدمها لم تؤت أكلها"!.

وكلها فرضيات لا تستند إلى حقائق في السيرة النبوية، أو إلى نصوص القرآن.

بهذه السطحية المفرطة يكتبون ما يروق لهم في تاريخنا، وبأطر افتراضية تبدو صحيحة، ولكنها ليست كذلك إلا في أفكارهم المسمومة، ويستندون إلى روايات ضعيفة، وما وضعه المنافقون والزنادقة والباطنيون داخل فكرنا الإسلامي، ورددها البعض بدون علم ولا كتاب منير.

لقد آن الأوان لكتابة بعض الجوانب في فكرنا الإسلامي بمصداقية، وتخليصه مما طرأ عليه من أساطير وخرافات ومعجزات مدعاة، لا يقدر عليها إلا الله وحده❐

تساؤلات من باب الشكّ المنهجي..

حول حديث

(لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)

إدريس آيات – النيجر

✍ السيدة المحترمة والناجحة إلى حد كبير، (أنجيلا دوروتيا ميركل)، المستشارة الألمانية، غادرت منصبها، بأكثر الأرقام (فلاحًا) - إن جاز التعبير - بعد حكمها لألمانيا قرابة ١٦ عامًا.

- رفعت من الأمن الداخلي، فأصبحت ألمانيا ثامن دولة أكثر أمنًا في العالم، من بين (١٩٥) دولة.

- رفعت اقتصاد ألمانيا إلى ٣.٨ تريليون دولار (الأول أوروبيًا، والرابع عالميًا)، ويقارب كامل اقتصاد أفريقيا (٥٥ دولة).

- جعلت من ألمانيا، البلد الأوروبي الأكثر استقراراً سياسيًا، وخفضت من نسبة البطالة، وارتفع نسبة المليادريين الألمان، وتضاعفت نسبة التصنيع بشركات جديدة تنافس كبريات الكونغوماليرات في المعمورة.

- في عهدها باتت ألمانيا ترسل محميات عسكرية خارج البلاد، منذ الحرب العالمية الثانية، ما فشل في تحقيقه كل الرجال الذين سبقوها، وذلك لجرائم هتلر.

- على صعيد التسامح، هي الدولة الأوروبية الأكثر استقبالاً للاجئين، خاصة من سوريا وليبيا، وحتى من أفريقيا جنوب الصحراء، بخلاف قيادات الرجال الذين يهينون المهاجرين. وفي عهدها كانت ألمانيا الدولة الأوروبية التي تحارب الإسلاموفوبيا أكثر، بخلاف جارتها فرنسا مثلاً، بقيادة رجال حمقى.

غادرت منصبها، دون تاريخ مخزي، للرشوة، ولا فساد مرتبط بها، ولا خانت زوجها، ولم تقم بمحسوبية لأولادها على حساب وطنها.. لم تبن قصراً خاصاً لها، ولم تضع حساباً سرياً تحول ميزانية الدولة فيه .

- والآن:

1 - هل حقًا قال الرسول هذا الحديث؟ لأننا درسنا في تاريخ التشريع أن الرسول لا يمكن أن يقول شيئًا، أو يتنبأ بشيء ويكذّبه الواقع، لأنّه - صلوات ربّي عليه - لا ينطق عن الهوى. فقد تنبّأ باستشهاد عددٍ من أصحابه، وهذا ما حدث. ومقتل أكابر قريش في معركة بدر. وكذلك أحاديثه عن تمكينِ الإسلام والمسلمين، في وقت كانوا تحت تعذيب قريش، حتى شكّ منه بعض أصحابه. أو حديثه عن طاعون عمواس، الذي حدث. وأحاديث النبي عن بعض الفتوحات، كالشام وبيت المقدس، وزوال الروم والفرس، والكثير منها.

إذن، هل يعقل أن يقول الرسول هذا الحديث، ويكذبه واقع، مثل واقع المستشارة (أنجيلا ميركل)، أم أنّ الحديث من وضع الوضّاعين؟؟

2- إنْ كان الرسول قاله، فأيّ من أنواع (الفلاح) قصد؟!. لأنّ ألمانيا أفلحت حقًا في عهدها، كما لم تكن من قبل، وإن قال قائل: يقصد به (الفلاح الأُخروي)، فلا أعتقد أنّ الله سيعذّب أمة بأكملها فقط لأنها ولّت أمورها امرأة.

إذن ما نوع الفلاح المقصود، إن كان حقاً من الصادق المصدوق؟ !

3- بعيدًا عن النقاشات المملة عن أن المقصود بها (ولاية عامة، أو خاصة) قرأت لأحد تجّار الدين المتزمتين في أفريقيا، وهو يعلّق بجهلٍ على قصة بلقيس، وأن هدهد -وهو طير- يستنكر ولاية بلقيس - وهي امرأة- على قومها. كي لا يحاججني أحدهم بهذا المنطق المعوج الناتج عن فهم معكوس، يجب أن ندرك أن استغراب (الهدهد) كان عن " ما تعبد هي وقومها من دون الله"، وليس عن ولاية بلقيس، التي بقيادتها اهتدى قومها إلى نبي الله سليمان، وأسلمت هي ومن معها، وقد أفلحت، وأفلح قومها.

- إذن:

هناك ثلاثة احتمالات، إذا اتبعنا الشك البحثي والمنهجي:

أولاً: إما أنّ الرسول لم يقل هذا الحديث إطلاقًا، لذلك كذّبه واقع تاريخي.

ثانياً: الرسول قاله، لكنّه ليس حديثًا خبرياً في المعاملات وأحكام السياسة والقضاء، إنّما هو حديث تعبدّي، أي يقول لنا: (لا تولّوا أموركم امرأة)، فنتعبّد بذلك، كمسلمين، دون أن نبحث عن العلّة وراء ذلك، والمقصد الشرعي وراءه. لكن هذا أيضاً يبطله قوله: (لن يفلح) ، ما يعني أنّه ليس من العبادات التي لا تُسْتَجوَب، ولا علاقة له بالآخرة، بل بالدنيا.
كما أنّ الكثير من المشايخ المتزمتين، كانوا ضدّ رئاسيات غير المسلمات؛ حتى ترأست رئيسة تنزانيا الحالية، السيدة (سامية صلوحي)، فسكتوا، وبعضهم دعموها، لأنّها مسلمة ومحجبة!. إذن ما هو المعيار؟ هل لا بأس بولاية المرأة، إذا كانت مسلمة، في بلد يكثر فيه المسيحيون؟ إذا كانت المعايير تتبدل مع الظرف والحالة، فلمَ -إذن- التمسّك بالحديث من الأساس!!؟

ثالثاً: إن الرسول قاله حقًا، وهو يقصد الفلاح الدنيوي، لكن جاء واقع تاريخي وأبطل صحة الحديث. (وهذا بالنسبة لي -كمسلم - بعيد الاحتمال). فالرسول لن يقول شيئًا يكذبه الواقع، الذي هو من صنع الله. كما لن يقول شيئًا لم يأخذه من المشرّع؛ الذي هو الله!

قبل أن يكفرّني تجّار الدين في التشكيك في صحة حديث معيّن، أنا أسأل فقط، من باب الشكّ المنهجي- أو الشكّ الإبراهيمي إن شئت - ليطمئن قلبي. ولا يقولن أحدكم: هل تشّك في حديث لأجل امرأة غير مسلمة؟! لا، الحقيقة أنا أشك في أن يقول الرسول شيئًا يخالفه واقعٌ تاريخي. فالرسول كل كلامه وحي،، ولا يأتي بشيء من عنده، فقد حذّره الله من ذلك { ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين}❐

أهمية المراجعات

في

تجديد دورة حياة الأحزاب والجماعات الإسلامية

محمد صادق أمين

✍ اتباع منهجية المراجعات في عمل الجماعات الإنسانية عموماً، والدعوية الإسلامية خصوصاً، حالة صحية، من منطلق أن المعرفة الإنسانية معرفة نسبية؛ وهي متجددة بسبب اعتمادها على التراكم المتأتي من عاملي الزمن والممارسة العملية الحركية في الحياة، اللذان يُغيران خبرات الإنسان ومعارفه على الدوام، وبناء على ذلك يتغير تعاطيه مع الأحداث والوقائع.

وتأتي أهمية المراجعات في عمل الجماعات الدعوية الإسلامية، من كونها مؤسسات اجتماعية هي الأكثر التصاقاً بواقع الناس ومعاشهم، كون الدين عنصر رئيسي في حياة الإنسان، فيه يبدأ، وبه ينطلق، وبضوئه يقيم حياته من الميلاد إلى الممات، خصوصاً أن في الإ سلام نُظماً متنوعة شمولية متعددة، تستوعب حياة الفرد الشخصية والجماعية، وتعمل على بنائها وفق الرؤية الربانية. وهذه الجزئية هي الأهم والأخطر التي جلبت على

الأحزاب الإسلامية نقمة شركاء الوطن، وعداوة العالم بأسره، واتفاق قوى متناقضة في المصالح والأيدولوجيات على التوحد في مواجهتها وحربها.

متى تكون المراجعة؟

إذا كان دين الله؛ خيرٌ كله، وحقٌ كله، وبناءٌ وتنميةٌ كله، ونجاح وفلاح للفرد والمجتمع كله، وهذه مسلمة لا يجادل فيها مؤمن، فإن سلوك الحركة الإسلامية، وطريقة طرحها لدين الله للناس، والمنهجية التي تتبعها في ذلك، هو من يحدد وصول الرسالة للناس بنقائها وجمالها وما فيها من حق، وبالتالي الوصول للهدف الذي أنشأت الحركة من أجله، أو وصولها مشوهة على غير وجهها الحقيقي، وبالتالي الإخفاق في تحقيق الهدف.

فحين تستقي السلوكيات جمالها من جمال المنهج، وتراعي عوامل متغيرات الزمان والمكان والظرف والبيئة، يتحول منهج العمل إلى منهج مثمر منتج. وقياس ذلك كثرة الاتباع، وتحلّق الناس حول الحركة، وقدرتها على تقديم معالجات لقضايا الناس وهمومهم الاجتماعية والاقتصادية والمعاشية.

على سبيل المثال، لو افترضنا حركة من الحركات كانت في مرحلة من عمرها حاضنة للمجتمع، يجد فيها الناس ملاذهم عند الأزمات، ونجحت عبر رموزها الدعوية والاجتماعية، وعبر أعمالها الإغاثية والإنسانية، بالوصول إلى قلوب الناس وبيوتهم، وحققت أعداد تنظيمها الصلب نمواً مُطرداً، إلى جانب تضاعف أعداد الهالة الاجتماعية إلى أضعاف مضاعفة عاماً بعد عام.

ذات الحركة، بنفس قدراتها وإمكاناتها، تعاملت مع ذات المجتمع، في ظل متغير ما، ليتحول المشهد في سنوات قليلة من النقيض إلى النقيض، وأصبحت تعاني من نكران اجتماعي، بسبب حجم الملاحظات والملابسات والمؤشرات التي أحاطت بسلوكها، وسلوك أفرادها، الأمر الذي تسبب في تراجع الهالة الاجتماعية، وبلوغها أرقاماً صفرية في قواعدها التنظيمية والاجتماعية.. ألا تصبح المراجعات الشاملة من أوجب الواجبات لهذه الحركة؛ في مناهجها، وسلوك أفرادها، وخطابها الاجتماعي والسياسي، وبرامجها الداخلية والخارجية، وقبل ذلك وبعده: من يقوم على هذه البرامج، ويخطط لها، وينفذها على أرض الواقع؟.

إذا تغاضت هذه الحركة عن المخرجات، وتسترت على الأخطاء، وخشي القائمون عليها على مصالحهم وأسمائهم وعناوينهم، وحادت عن طريق المراجعة الحقيقية، أو نحت نحو المراجعات الشكلية، فأقم عليها مأتماً وعويلاً، لأنها اتخذت قرارها بالانجرار وراء الانحدار، ثم الاندثار.

وإذا كان القائمون على أمرها ربانيون بما يكفي، فإنها ستراجع خطواتها بكل عناية ودقة، وتمحص برامجها وخططها بكل عناية وموضوعية، وستؤشر إلى مواطن الخلل، وتشخص المخطئين بذواتهم، وإن كانوا في مواقع المسؤولية، ثم تجدد المسيرة ببرامج جديدة، أو وجوه جديدة، أو بتجديد يشمل الأمرين معاً، دون استثناء، فالأشخاص خطائون زائلون، والدعوة باقية ما بقي الليل والنهار وتعاقبا.

وللمراجعة الحقيقية الجوهرية الصادقة المحايدة، مجموعة خطوات، أعرّج على بعضها حسب ما تتسع مساحة النشر.

فتح باب النقد على مصاريعه

لن تتمكن أي حركة بشرية من تحقيق المراجعات الناجزة، مالم تكسر الأسوار التي تحمي بها نفسها من غوائل النقد، وشرره المتطاير، على اختلاف قدرات الناقدين، وثقافتهم، وطبائعهم في النقد، وتحمل ذلك، وتلقيه بصدر رحب، وتدقيق، ومتابعة.

فالنصيحة واحدة من أهم القيم التي جعلها الإسلام وسيلة لبناء المجتمع، وهي بذلك ركيزة مهمة من ركائز بناء المؤسسة الدعوية، بها يتحقق الارتقاء، وبدونها تضيع الطاقات، وتتبدد الخبرات، وتحرم الجماعة من أهم روافع الارتقاء.

فقد روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: بايعت رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم.

وكذا قوله - صلى الله عليه وسلم-: (الدين النصيحة)، قلنا لمن؟، قال: (لله، ورسوله، وكتابه، وأئمة المسلمين وعامتهم) مسلم.

ويعتبر النقد من أهم أركان النصيحة، ومن أهم عوامل تحقيق الرقي المؤسسي، فالمؤسسات الكبرى المعاصرة تخصص أقساماً فيها، مهمتها فقط نقد ما تقدمه من منتج، بهدف الارتقاء بالأداء للصورة الأمثل.

أنواع النقد

ولكن؛ ما هي ماهية النقد؟ وهل يصح أن يقال عن كل كلام يقال، أنه نقد؟ وما هي آداب الناقد، والمهارات التي ينبغي أن يتمتع بها؟.

النقد نوعان؛ بناء: هدفه تقويم الخطأ، وتقديم النصح لإصلاحه على أسس علمية، من شخص متخصص في المجال الذي ينقده، شرط أن يفعل ذلك دون تعصب، أو تبني أحكام مسبقة.

أما النوع الثاني، فهو؛ هدام: وسمّي هداماً لأن مخرجاته تؤدي إلى تعطيل عجلة العمل، بدل إصلاح مساره وفق ما يقتضي النصح. فالناقد الهدام يعمد إلى النيل من الآخرين، والتشكيك في قدراتهم، أو شرعيتهم، ويترصد الأخطاء، ويؤطرها في طرح ينال به من شرعية المؤسسة، أو العاملين على الملفات محل النقد.

وليكون النقد بناءً، لا بد من توفر الشروط التالية فيه:

١- الناقد البناء، يقدم المشاريع الإصلاحية في مجال تخصصه، بناء على رؤيته للواقع، وفهمه واستيعابه له، قبل أن يمارس النقد. فكاتب هذه السطور، مثلاً، متخصص في الإعلام، وإذا أراد أن يسلك طريق النقد البناء، فإن مبتدأ الطريق يكون بتقديم مشروع إصلاحي للإعلام، يعرضه على الجهة المعنية، فيه رؤية تفصيلية تأخذ بالإمكانات المتاحة، وتقترح حلولاً للعقبات المعطلة للعمل الذي هو محل النقد. إن فعلتُ ذلك أكون قد استوفيت أول شرط من شروط من له حق الانتقاد للأداء.

٢- أن يخلو النقد من التجريح، والتعصب لفكرة مسبقة يتبناها الناقد، ويعتبرها صواباً من وجهة نظره، ويشفع نقده برأي تخصصي مسند بالأدلة، إذ لا يكفي أن يقول هناك خلل في الجزء الفلاني، بل أن يشخص موضع الخلل، ويردف ذلك بالإشارة إلى الصواب، أو حل المشكل محل النقد.

٣- أن لا يعتبر الناقد رأيه هو الحقيقة المطلقة غير القابلة للنقض، فالناقد البناء يقدم ما يراه صواباً مستنداً إلى خبرته وعلمه، ثم يسلم بأن رأيه قد يؤخذ به، وقد لا يؤخذ.

٤- أن يكون هدف النقد تقديم الحلول للمشاكل، ومناقشتها مع الآخرين، دون أن يلتفت إلى ذوات الأشخاص، فيجعل من التشكيك في أهليتهم مدخلاً للنقد.

٥- أن يفصل الناقد بين فكرة وأخرى، فلا ينتقد بطريقة البلدوزر الذي يجرف كل شيء أمامه، ويرى كل شيء أسود دون أن يلمح بياضاً في ما ينتقد، إذ لا يوجد في الكون مطلقات؛ لا شر مطلق، ولا خير مطلق.

إذا استوفى الناقد شروط النقد، وفتحت المؤسسة مصاريع أبوابها لكل ناقد، تكون قد وصلت إلى واحدة من أهم المرايا التي يمكن أن ترى فيها ذاتها. وإذا اختل أي من الشرطين، تحولت عملية النقد إلى عبث، ودوران في الفراغ.

وللحديث بقية..❐

لماذا نكرهُ المعارضين؟

بكر أبو بكر - فلسطين

✍ لطالما أكدنا المفاهيم والأفكار، وذلك في السياق النظري التربوي والتثقيفي والتعبوي، بمعنى أننا في كثير من المحاضرات نلجأ لطرح الأفكار والمفاهيم لتبيانها، والعمل على غرسها في النشء، أو إعادة غرسها في الكبار، ممن نسوا - تحت ضغط واقع الحال - أهميتها، فنشعلها في النفس لتعود مفاهيماً ومسلكاً وقيماً، أي تحويل الأفكار إلى أداة فاعلة تمشي على الأرض.

التعبئة الدينية، والتعبئة الوطنية، والتعبئة الحركية والمجتمعية.. تستلزم التشديد على المفاهيم؛ تلك الأساسية المتعلقة بالفكرة الأساس، أو بالدين، وهي عامة الأفكار الرحبة التي تنضح بالمحبة والرحابة والقبول، فلا دين أو فكرة ممتدة لا يكون لها من هذا الاتساع ما يجعل منها متبناة من الشريحة الأوسع.

واقع الحال -كما يقولون- كثيراً ما يتناقض مع سمو أو بهاء أو عظمة أو صحة الأفكار، كما الحال فيما نقوله عن الإسلام العظيم: فلقد تقاتل المسلمون زمناً طويلًا، حتى باتوا لا يشكلون النموذج الحي للدلالة على الدين السمح. وبمعنى آخر أنك تستطيع أن تأخذ الإسلام من مصادره الأولية، أي من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد لا تستطيع ذلك

حين تلجأ للآراء والتفاسير والتأويلات، التي لوت فيها عديد الاتجاهات عنق المفاهيم لما يتفق مع طريقة تفكيرها، أو مع أهدافها ومصالحها الفئوية الخاصة.

لنقل بشكل آخر: إن الدين الإسلامي -كما الأديان- يبتغي المحبة والعدالة والحق والإعمار وسعادة الإنسان في الدارين، فأين تجد هذا الأمر اليوم، بعيدًا عن الكتب؟ لقد وجد الإمام محمد عبده ذلك في أوروبا؟ وليس في الدول المسماة (إسلامية)؟! وفي آخر إحصائية، بدت دول الشمال الأوروبي الأكثر تطبيقاً للقيم الإسلامية! وكان الإمام محمد عبده قد قال عن أوروبا، أو فرنسا: رأيت الإسلام ولم أر المسلمين، قاصدًا قيم النظام الداخلي داخل البلد (ولم يقصد العقيدة، أو السياق الإرهابي الاستعماري للغرب الغازي آنذاك).

كانت هذه المقدمة ضرورية للقول إن النظرية والتطبيق كثيراً ما يتصادمان على أرض الواقع، وفي كثير من الأحيان لا يكون معتنقو الفكرة السامية - غالبًا اسميًا - هم بالفعل رعاتها، ونموذجها. وسوء أداء المعتنقين ليس حجة على الفكرة.

دعنا نقول أيضًا: إن هناك فئة كبيرة تهتم بالشكليات، أو تهتم بالمظاهر(الطقوس...) على حساب الفكرة برجليها، أو على حساب التطبيق، فتفترض بذاتها أنها هي حامية الفكرة، ولكن عندما تصطدم بمصالحها، تدوسها برجليها! وتحت مبررات جاهزة من نبع ذات الفكرة (الدين، الأيديولوجية...إلخ).

وهناك فئة تعتنق قيم امتلاك المطلق والحق الأبلج حصرياً، كما تتسم بالاستبداد وقيم التفرد وقيم الأنا العليا والكبر، فتقف هذه القيم العائق الأول أمام الأذن، فتمتلأ وقراً يمنع السمع.

يقول الله تعالى: {تلك الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}(٨٣ القصص)، ويقول: {ولا تمشِ في الأرض مرحًا}، أي: لا تمشِ مختالًا مستكبرًا، لأنك {لن تخرق الأرض}، وأيضاً في ذات الآية من (سورة لقمان): {ولن تبلغ الجبال طولًا}.

ذات الأمر يمكننا أن نعكسه على التنظيمات السياسية، ومنها الفلسطينية، والثورة الفلسطينية التي في خريفها التنظيمي، وربما الفكري العملي اليوم، باتت تتبرم بالاختلاف، وتنظر للمعارضين نظرة خروج ومروق وردّة أو عداء، فبدلًا من السعي لزيادة مساحات الاقتراب، تعمل مع الأسهل، أي أن تستخدم كل وسائل إلحاق الأذى - المستمدة من السلطة المادية، أو المعنوية- بالآخر، لمجرد المخالفة بالرأي أو الفهم أو السياسة.

التبرم بالمعارضين، لدى البعض، ليست إلا دلالة على هوى ونزق لصاحب الموقع، المركز، أو دلالة استبداد لا يقبل الآخر، {أنا ربكم الأعلى}!

التبرم والرفض المطلق للمعارضين مؤشر أو دلالة ضعف ذاتي، ليس بالضرورة للفكرة، وإنما لطريقة فهمها. وهو رفض يقفز ليتحول حقدًا على المخالف، ولربما يكون مثل هذا التبرم بالآخر لسوء التفسير، أو الانغلاق والتحجر العقلي، وكثيراً ما تكون المصالح الذاتية الأنانية الطاغية حجر عثرة أمام تقبل الآخر.

نحن في المجتمعات العربية والإسلامية، أو ما تسمى مجتمعات العالم الثالث، وبالفصائل -في كثير منّا- مازلنا نتبرم بالآخرين، الى الدرجة التي نسعى فيها لإقصائهم، وكأن الحدّية، أو الإقصائية، أو منطق الأبيض والأسود، هو المنطق الوحيد السائد في الدنيا، رغم عديد الألوان.. فنحن لا نعي آداب الاختلاف حين نتنكر للاحترام المتبادل، ومساحات الالتقاء الواسعة للفكرة، وحينما نتسلط باستخدام النظام (أو تطويع بنوده) لعزل أو إقصاء المخالف. فالأسهل هو البتر، بينما الطبابة تأخذ وقتًا طويلًا، قد لا يسعف المستفرد، ولا يتحمل ثمنه❐

في مرايا الواقع شيء من الشك

أ م.د سامي محمود ابراهيم
رئيس قسم الفلسفة كلية الآداب جامعة الموصل

✍ مجتمعاتنا تقليدية رغم كل مظاهر الحضارة المستوردة، والمدنية السطحية. من هنا تأتي أهمية مسألة مراجعة أصولنا المعرفية، وجذور البنية التقليدية لثقافتنا الدينية والدنيوية، لا بهدف التكرار أو الإعادة، أو اجترار ما لم يعد صالحاً، بغية إرضاء الحال، وتمويه الواقع، بل لغاية نقد تلك الجذور؛ تواصلاً وانقطاعاً في الوقت ذاته، إذ لا انقطاع بلا تواصل نقدي مبدع وخلاق، يراعي ظروف العصر، وشروط الواقع، ومتطلبات الإنسان المعاصر.

أما التواصل لغاية التواصل وحده، فهو التقليد الذي نهينا عنه شرعاً وعقلاً، ومغبون من تساوى يوماه.

ما زلنا كأهل الكهف؛ أيقاض نيام.. ما زلنا نتنفس الغزالي، ونعيش مع ابن تيمية، رغم السياق التاريخي، والفارق الزمني.. رغم التقدم العلمي، والثورات المعرفية، والمنهجية.. ما

زلنا نطمح بقراءات رشدية نرتجي منها الحلول، ونستجدي منها المقدمات الفقهية.. وكل العالم من حولنا قد رشد، ونحن لا رشد لنا.. نفكر مأجورين، ونقاتل بعضنا بالنيابة. لذلك تبدو العودة إلى مراجعة التراث ضرورة ملحة لبحث جذور الأزمة الحضارية التي نعانيها، وليس لمجرد إعادة التأويل، والتأويل المضاعف، الذي ترتب عليه هدر الإمكانيات، وإضاعة الوقت، وتضييع الحقيقة.. ترتب عليه إعادة إنتاج الغزالي، وابن تيمية، في نسخ مكررة تحاكي نفس الصور والمواقف، حتى ملّنا الزمان، وأزاحنا تيار النص الحداثي إلى ما بعد الهامش..

ألا يشير هذا إلى أن المجتمع التقليدي يسعى دائماً إلى إعادة إنتاج ذاته القديمة، أي يعيد إنتاج بناه الإيديولوجية الثابتة؟!

نعم. لو نظرنا إلى بنية ثوراتنا العربية، وأحزابنا الإسلامية، وتكتلاتنا السياسية، فمن السهل أن نكتشف أنها بنية قبلية تقليدية، مع أنها تفترض أن تكون مؤسسات مجتمعية معاصرة، ويفترض بالتالي أن تكون نزعتها إنسانية حداثية، وأن تكون آليات اتخاذ القرار فيها آليات قيمية ديمقراطية أصيلة. والواقع أن سيطرة البنية الدكتاتورية التحزبية والحزبية، وخضوع استراتيجيات اتخاذ القرار لرغبة الزعيم أو القائد أو الملك أو الرئيس تكشف أن الحداثة والمعاصرة مجرد قشرة خارجية، تعجز تماماً عن إخفاء البنية التقليدية.

ولا يحسن الحلم إلا في مواطنه

ولا يليق الوفاء إلا لمن شكرا

وعبر ثنايا الزمن تتشكل ملامحنا بانتظام جميل، يبقينا أحسن مما كنا، بانتظام متلاحق. وإن أية حياة - مهما كانت بسيطة - ستكون جميلة وممتعة، إن رويت بصدق..

هذه الرؤية تعني التحرر من سائر القيود، خاصة تلك القيود المنهجية والموضوعية التي تكتنز بمضامين وإشكاليات ما بعد الحداثة.. فهناك دلائل وإشارات تعمل على إرساء ضغط المثاقفة والتثاقف بين حداثتين تعملان على تزييف الواقع، وتمويه معالم الصدق والبساطة في قيمه الإنسانية.. حصل ذلك بعد أن استعرنا هموم الغير، هموم العالم الغربي، ومشكلاته، وصرنا نبشر بها، ونروج لها في مجتمعاتنا التي لم تنجز حداثتها الأولى بعد.. فتحولت الثقافة عندنا إلى اغتراب عن الذات، واستلاب عن المعنى والسياق.. وبقيت نصوصنا، ومقالاتنا، ومؤلفاتنا، مجرد تدريبات على تهجي قيم الآخرين، مما أفقدها الصلة بجمهورنا وواقعنا المعاش..

هذا حال مثقفينا، وإن راجت كلماتهم وكتبهم في أماكن أخرى..

فحروفنا مريضة لا تشم ريح الحياة، ولا ترى ضوء الشمس..
حتى الألف نقيم لها أصلاً، وتنحرف !!
غابت حكمتنا، واستسلمت لصلابة الواقع، وامتناعه عن المعنى، مما أفقدنا القدرة على النطق، وجعلنا نؤثر الصمت.
إن إنساننا يحتاج اليوم - أمسّ الحاجة - إلى خطاب روحي، يوقظ فيه سبات الضمير، ويضخ النور في الإرادات الإيجابية البناءة.. نرغب دائماً ببرمجة مسيرة المستقبل إلى إشغال مكان بين نجوم السماء قريباً من موقع الثريا.
وفي مدن تعج بقطع الغيار الآدمية، يغتال الضمير، وتسلب الإنسانية، مما يدفعنا إلى السفر عبر فضاءات الروح، وعوالم الزمن البعيدة. فندرك أنه لا شيء ميت إلا ظاهرياً.. فطبيعة الوجود ملأى بالحياة. لذلك، ففي كل مرة تملأ سحب اليأس عقولنا، لا نلبث أن نحس يداً تربت على أكتافنا، وأخرى تملأ السراج فيضيء، وإذا بنا نبصر آثار أقدام تؤنس وحشتنا، وعندئذ يعود القلب للغناء، حتى إذا أذنت شمسنا بالغروب، أيقنا أن هذا الغروب سيكون شرقاً ما، في مكان ما.
ولكن الناس تاهوا في الخبر، عندما فقدوا الأثر..
إذ كيف ستبصر العين وجه الحبيب المسافر..
وهي عين لا تبصر غير الصور؟!
فلن نرتوي أبداً من كأس الحياة.
إنها الدنيا، وهذا الجمال، ونحن فيها نطارد المستحيل❐

الرحلات الجبلية في إقليم كوردستان..

مثنى قانوني
عضو أرارات گروب للرحلات الجبلية

✍ انتشرت في السنوات الأخيرة ظاهرة الرحلات الجبلية في إقليم كوردستان، ويعود ذلك للدور الذي تمارسه وسائل التواصل الاجتماعي، وما توفره أجهزة الهواتف الذكية من تطبيقات متعددة لنقل الصور والفيديوهات الجذابة للرحلات.

كوردستان بلاد غنية بالمظاهر الطبيعية الخلابة؛ كالجبال، والتلال، والأودية، والبحيرات، والعيون، والثلوج، وغيرها، وتمثل بيئة طبيعية مناسبة لممارسة هذا النوع من الرياضات.

الرحلات الجبلية في الإقليم ليست بجديدة، فتشكيل اتحاد هواة الجبال في كوردستان يعود تاريخه إلى ١٢-٢-٢٠٠٦، ولكن نشاطاته بقيت محدودة في نطاق ضيق حتى السنوات الأخيرة، لأسباب مختلفة. أما اليوم، فقد توسعت بشكل كبير، للأسباب التي ذكرناها آنفاً.

يضم الاتحاد اليوم أكثر من ١٠٠ مجموعة لهواة تسلق الجبال، والرحلات الجبلية، وهنالك المئات من الأعضاء المسجلين وغير المسجلين، وأعدادهم في تزايد مستمر، لكون هذه الرياضة مناسبة لمختلف الأعمار، فهي رياضة للصغار والكبار، والشباب والشيوخ، والنساء والرجال.

هـــذا وتتضـــمن نشـاطات هـذا الاتحـاد رياضات متعددة؛ منهـا تســـلق الجبـــال، والصــخور، والــرحلات الجبليـــة، والســـير في الكهوف، والتزحلق على الجليد، إلا أن الـرحلات الجبليـة تبقـى أكثرهـا شعبية..

إن هـذه المجموعـات تمارس نشاطاتها ضمن لوائح وأنظمة وبرامج معدة مسبقاً، فكل عضو تقع عليـه التزامـات معينة، سأذكرها بإيجاز.

بداية يتواصل الشخص الذي يرغب في المشاركة في إحدى هذه الرحلات؛ إما عـن طريـق أحـد الأصـدقاء الأعضـاء المسـجلين في تلـك المجموعـات، أو عـن طريـق قـراءة الإعـلان أو الدعوات التي تنشـر في وسائل التواصل الاجتماعـي، والتـي يشـار فيـه إلى وجهـة الرحلـة، ومكان وموعد انطلاقها، والمدة التي تستغرقها، والمستلزمات المطلوبة، ووسـيلة النقـل. ثـم يقوم الشخص بتسجيل اسمه لأول مـرة، وبعـد مشـاركته في الرحلـة سـيتعرف عـلى أشـياء كثيرة عن الرحلة؛ منها المستلزمات المطلوبة، كـالملابس التـي تخـص هـذه الرياضـة، ونـوع الحقائب، والأحذية، والأدوات، ومسـتلزمات التخيـيم، وإعـداد الطعـام، بالإضـافة إلى أمـور فنية أخرى.

من جانب آخر، يتعرف المشارك على نظام الرحلات، وكيفية توزيع الأدوار فيهـا؛ فهنالـك المشـرف على الرحلة، ودليل الرحلة، والمسؤول عن المؤخرة، والمراقبين، والمسـعف، والفنـي، والمصور، ويتم التواصل بينهم عبر أجهزة الاتصال اللاسلكي.

وتنطلق تلـك الـرحلات في الصـباح البـاكر، حيـث يجتمـع المشـاركون في نقطـة الالتقـاء، ويستقلون وسيلة النقل التي تنقلهم، والتي تحدد حسب عـدد المشـاركين، وبعـد المسـافة، ومن ثم ينطلقون نحو الوجهة المقصودة. وبعد الوصول يجتمع المشاركون في نقطة البـدء، ويتم حينها ممارسة بعـض تمـارين الإحـماء، والإطالـة، مـن اجـل الإعـداد البـدني، لتجنـب الإصابات، ورفع درجة حرارة الجسم. ومن ثم تنطلق الرحلة بشـكل مسـتقيم، في مسـارات

محددة، للمشي بين التلال، والجبال، أو الوديان، ومجرى المياه، حتى الوصول إلى نقطة النهاية.

ويتم عدّ المشاركين أثناء الرحلة، للتأكد من حضورهم، وعدم تخلف أحدهم في الطريق. وتتوقف المجموعة أثناء سيرها عدة مرات، لأخذ قسط من الراحة، أو أخذ وجبة خفيفة، أو التقاط الصور الجميلة للمناظر الطبيعية، وتوثيق الرحلة، والتعرف على جمالية المكان. وغالبية الرحلات تكون في فصول الخريف، والشتاء، والربيع، وتقل في فصل الصيف، بسبب ارتفاع درجات الحرارة.

بعض الرحلات تكون لمدة يوم، وبعضها تكون لمدة يومين، أو أكثر. ويتعلم المشاركون الكثير من هذه الرحلات؛ فهم يستمتعون أولاً، ويكتشفون اماكن جديدة لم يزوروها من قبل، ويحافظون على نظافة البيئة، ويلتزمون ببرنامج الرحلة، وتوجيهات المسؤول، والمراقبين. وحين يصلون إلى وجهتهم يتوقفون لأخذ الاستراحة، والبدء بإعداد الطعام، والشاي، أو القهوة، ومن ثم يحملون حقائبهم من جديد، للعودة إلى نقطة الانطلاق. وخلال هذه الرحلة يعملون على توثيق تلك الرحلة؛ من حيث الصور، والمسافة، والمدة التي استغرقتها الرحلة. وبعد العودة يشاركون صورهم في وسائل التواصل الاجتماعي، وهكذا ينجذب إليها آخرون، وتزداد الرغبة في المشاركة..

إن الرحلات الجبلية – فضلاً عن جانبها الرياضي - عبارة عن مدرسة لتعلم الصبر، والالتزام، والنظام، والاعتماد على الذات، والتعاون، وتحمل المسؤولية، والمشاركة، والحفاظ على البيئة. بالإضافة إلى الاستمتاع بمشاهدة المناظر الجميلة، فهي رياضة وهواية أيضاً..

إن هذه الرياضة لها مستقبل مشرق بسبب المميزات التي تتمتع بها، إضافة إلى سهولتها، وعدم تكلفتها. وهي في تطور مستمر، بحيث يتوقع أن تستقبل العديد من السواح من داخل البلاد وخارجها، ومن هواة تسلق الجبال والرحلات الجبلية، ولكنها تبقى رياضة وهواية ممتعة..❐

التبليغ وجدواه

عمار وجيه

✍ في كثير من الأحيان أسمع وأقرأ تعليقات للأصدقاء حين ننصح من يوصفون بـ (المنافقين) من أمتنا، بأنه لا جدوى من النصيحة، وأسمعت لو ناديت حياً، ولكن لا حياة لمن تنادي. فرأيت أن أذكر نفسي وإياكم بنصوص الوحي الدالة على وجوب التبليغ:

- فالأمم الغابرة على الإطلاق تم تبليغها، بل إن نوحاً - عليه السلام - دعاهم ٩٥٠ عاماً، ولم يتوقف إلا بعد أن يئس، وعلم أنهم قفلوا كل دوائر التواصل مع نبيهم، بتوريث ذرياتهم الفجور والكفر .

- وبالرغم من كفرهم وجحودهم، كان رسلهم يدعونهم بلفظة (يا قومِ)، تأليفاً لقلوبهم .

- بل إن نبي الله صالح - عليه السلام - وهو يغادرهم، قبل أن يهلكهم الله بالصيحة، قال كلمته الأخيرة، معذرة إلى ربه سبحانه: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ [الأعراف: ٧٩]

-وموسى - عليه السلام - تحمل من قومه، وأبناء عمومته بني إسرائيل، أذىً كثيراً، قل نظيره، واستمر بدعوتهم بلطف وحلم تارة، وبزجر وتقريع أخرى، ولم يتركهم حتى مات بين ظهرانيهم، ومن أقواله المحفزة لقومه: ﴿وَإِذ قالَ موسى لِقَومِهِ يا قَومِ اذكُروا نعمَةَ اللهِ عَلَيكُم إِذ جَعَلَ فيكُم أَنبِياءَ وَجَعَلَكُم مُلوكًا وَآتاكُم ما لَم يُؤتِ أَحَدًا مِنَ العالَمينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

-وبالرغم من أن بني إسرائيل فعلوا الأفاعيل عبر مئات بل ربما ألوف السنين، من قتل للأنبياء، وتحريف للتوراة، وكفر، وربا، وفواحش، فإن القرآن خاطبهم بخطاب الموعظة والتذكير، ولم يطلب من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يتركوهم ليهلكوا، بل

يبلغوهم ليقيموا عليهم الحجة البالغة بعد نزول القرآن المحكم المحفوظ على قلب النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام. فقال تعالى: ﴿يا بَني إسرائيلَ اذكُروا نِعمَتِيَ الَّتي أنعَمتُ عَلَيكُم وَأوفوا بِعَهدي أوف بِعَهدِكُم وَإِيّايَ فَارهَبونِ﴾ [البقرة: ٤٠]

-وأما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد عاش حياته مبلغاً لقريش، وثقيف، وهوازن، وسليم، وغطفان، والأوس والخزرج، واليهود والنصارى، والمناذرة، والغساسنة، والفرس، والروم، والقبط... وجميع من تمكن من الوصول إليهم، أو إرسال رسله.

-وخير دليل على صبره وحلمه واستشرافه للمستقبل، ورؤيته الاستراتيجية، هو أنه لم يغضب لنفسه بعد أن آذاه أهل الطائف من أولاد عبد ياليل وغيرهم، بل تأمل في ذرياتهم الخير: (... فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليه السَّلامُ ، فَناداني فقالَ : يا محمَّدُ ، إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ، قد سمِعَ قولَ قومِكَ لَكَ ، وما ردُّوا عليكَ ، وقد بعثَ اللَّهُ ملَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهِم

▪ قالَ : فَناداني ملَكُ الجبالِ : فسلَّمَ عليَّ ، ثمَّ قالَ : يا محمَّدُ : إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد سمِعَ قولَ قومِكَ لَكَ ، وأنا ملَكُ الجبالِ ، وقد بعثَني ربُّكَ إليكَ لتأمرَني أمرَكَ ، وبما شئتَ ، إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهِمُ الأخشبَينِ فعلتُ ،

▪ فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللَّهَ ، لا يشرِكُ بِهِ شيئًا.

فما أحلمك يا حبيبي يا رسول الله .

الخلاصة: وعطفاً على إجرام المليشيات في (ديالى)، أقول:

-يجب استخدام كل الطرق القانونية، والإعلامية، والعلاقاتية، والاجتماعية، والإغاثية، الرسمية وغير الرسمية، والتوعوية... لدعم المظلوم، وزجر الظالم..

-ومع ذلك كله، يجب أن لا تتوقف الدعوة إلى الله للجميع؛ سنة وشيعة، مسلمين وغير مسلمين .

فهناك من سيستجيب، ويكون عوناً للمظلوم على الظالم .

-وإذا قلنا إن نسبة كبيرة من شعبنا العراقي اليوم فاسقون ومنافقون وغافلون، فإن الحال لا يدوم، وإن التعليم ومحو الأمية اللغوية، والأمية الثقافية، والأمية الدينية، والأمية التنموية... هي الحل الأخير❐

مرافئ

قطرة من بحر الإتكيت!

د.يحيى عمر ريشاوي

✍ يعكس الذوق والإتكيت – إلى حد كبير – شخصية الإنسان وماهيته، ونحن شئنا أم أبينا، أحسسنا به أم لم نحس، خططنا له أم لم نخطط، فإننا نستخدم في حياتنا اليومية - وبشكل دائم - قواعد السلوك والإتكيت في التعامل مع الآخرين. نستخدمها مع العائلة، ونستخدمها مع الأصدقاء، ومع الجيران، ومع زملاء العمل، بل وربما نستخدم الإتكيت (من دون أن نشعر به) أحياناً مع أنفسنا وذواتنا حين نهم بفعل شيء، أو التفكير في شيء!

وهناك مساحات واسعة حول استخدام الذوق والإتكيت في التعاملات اليومية، في ثنايا التنزيل العظيم، وفي ثنايا السيرة النبوية العطرة. الإتكيت في العبادات، والإتكيت في العلاقات السياسية مع الآخرين، والإتكيت في الزيارات والعلاقات الاجتماعية، الإتكيت في تناول الطعام، الإتكيت في اللبس، الإتكيت في الحديث ومخاطبة الآخرين، وغيرها كثير. والغريب أننا في كثير من الأحيان ننسى هذه الدرر النادرة الموجودة في ديننا الحنيف، وتثير إعجابنا فنون وأساليب الإتكيت في المجتمعات الغربية! (من دون أن يعني ذلك أنني أقلل من شأن هذه السمة الحضارية لدى هذه المجتمعات).

ومعظم الذين لا يراعون الذوق والإتكيت وقواعد السلوك الاجتماعي في تعاملاتهم اليومية، حجتهم الوحيدة أنهم أحرار في تصرفاتهم، وأن الإتكيت وقواعد السلوك الاجتماعي فيها نوع من التقيد والتعقيد! ناسين بذلك، أو متناسين، أن حريتهم الشخصية تنتهي حين تبدأ حرية الآخرين وحياتهم، وأنك لست حراً في تصرفاتك اليومية، وتعاملك مع الآخرين، كيفما وأنى شئت. فحين تعيش مع الآخرين، وتحتكّ بهم، فإن عليك أن تدفع شيئاً من الضريبة الاجتماعية لهذا الاحتكاك، وذلك بقواعد اجتماعية وسلوكية - ربما لا إرادية - اتفق عليها الجميع، أو ربما معظمهم، وأنك حين تتجاوز هذا السلوك الاجتماعي والإتكيت، فإنك ستحاسب (اجتماعياً) شئت أم أبيت.

صحيح أن هذه القواعد الاجتماعية في الإتكيت تختلف من مجتمع إلى آخر، وصحيح أنه لا يمكنك تطبيق القواعد نفسها على المجتمعات كافة، وصحيح أن المبالغة والتطرف في الإتكيت ليس محبذاً، وربما يؤدي إلى نتائج عكسية، ولكن من الواضح أننا لكي نعيش ونتعايش بسلاسة مع الآخرين، فإننا نحتاج إلى رعاية هذه القواعد الاجتماعية التي تدل على سلوك حضاري رفيع لدى صاحبها.

جرب الإتكيت أثناء تواجدك في مناسبة اجتماعية، وجرّبه حين تحاول أن تتصل عن طريق الهاتف بصديقك، أو حتى بزوجتك، وجربه حين تريد أن تذهب لزيارة أحدهم في بيته.. جربه هنا وهناك لمدة شهر (من دون تصنّع أو مبالغة) وسوف ترى النتيجة.. وأي نتيجة؟!❐

- تأملات في الدين والحياة	د. عماد الدين خليل

تأملات في الدين والحياة

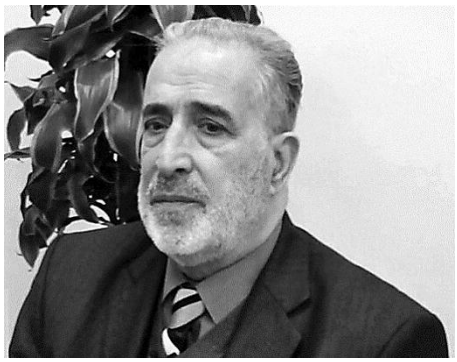

أ.د. عماد الدين خليل

(١)

✍ ما بين ظلمتي الرحم والقبر لحظات من عمر الزمن ..

(٢)

القرآن الكريم وهو يقص علينا أنباء الأمم الغابرة.. وهو يشـرّع لنا نظم حياتنا الدنيا، ما يلبث أن ينقلنا، بشكل مفاجئ، إلى يوم الحساب.. دائماً يحدث هذا.. النقلة المفاجئة إلى يوم الحساب وكأنه واقع اللحظة.. الحقيقة المطلقة التي يغدو ما قبلها سـراباً لا يملك أي ثقل حقيقي.. أي قدرة على الديمومة والاستمرار.. إنه يتفلت قبالة الوعي بالمصير الذي ينتظر كل واحد منا هناك..

ما الذي يدلّ عليه هذا؟!

(٣)

والفارق بين الزمن الأرضي، والزمن الكوني، كبير كبير، يصعب على الخيال أن يتصوره، أو يلاحقه، فكيف بالمعادلات الرياضية، والأرقام؟

لقد كشفت بحوث (شـ رودنجر) و(بور) و(هايزنبرغ) و(اينشتاين) جانباً من الظاهرة، لكنها لم تصل إلى القرار.. والقرآن الكريم يرحل بنا هو الآخر عبر هذا الفارق

الشاسع بين الزمنين، حيث يصير اليوم الكوني الواحد كألف سنة مما نعد، بل كثمانية عشر ومائتين وخمسين ألفاً يوماً أرضياً: {**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**{١} **لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ**{٢} **مِّنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ**{٣} **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**{٤} **فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً**{٥} **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً**{٦} **وَنَرَاهُ قَرِيباً**{٧}!!(سورة المعارج: الآيات ١-٧).

في المنظور القرآني ينحسر اليوم الأرضي حتى ليغدو ساعة من زمن.. حفل تعارف لا يكاد أحدنا بعد ارفضاضه، أن يتذكر حتى الأسماء التي تعرّف عليها.. ما الذي يدّل عليه هذا؟

(٤)

الحياة الدنيا عروض مسرحية على شاشة الزمن.. لا تملك سوى الطول والعرض، وليس ثمة بعدهما أي عمق حقيقي على الإطلاق.. يمثل كل واحد منا دوره سريعاً، ثم ما يلبث أن يغيب عن العيان لكي يخلي المكان لغيره؛ أولئك الذين سيعيدون الدور نفسه.. أما الحياة الحقيقية ذات الطول والعرض والعمق.. الحياة المترعة بالأحاسيس والمشاعر والملذات الكبرى الدائمة.. الحياة التي تتجاوز السطح إلى الأعماق، فهي هناك {**... لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** }(سورة العنكبوت: الآية ٦٤)..

وإن من الجهل الذي يغطي على الرؤية الصائبة لحقائق الأشياء، والذي يخيل لكثير من الناس أن فرصتهم الحقيقية في الحياة هي هذه التي يمثلون فيها أدواراً ليست لهم.. إنما هم ممثلون مستأجرون، يقدّمون أدوارهم دونما أي إحساس بأنهم هم.. بأنهم يعبرون عما يجري في عروقهم فعلاً.. ثم ما يلبثون أن يرحلوا !!

(٥)

هنالك مقاطع وآيات قرآنية تثير الدهشة حقاً، لا يملك الإنسان وهو يعاينها إلاّ أن يأخذه إعجاب من نوع عالٍ، يصعب التعبير عنه بالأحرف والكلمات.. ذلك أنه يتعامل مع كلمات الله - جلّ في علاه -.. وإلا كيف يقدر الإنسان على أن يعبر عن إحساسه وهو يتلو هذه الآيات: {**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً**{١} **فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً**{٢} **فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً**{٣} **فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً**{٤} **فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً**{٥} (سورة العاديات: الآيات ١-٥) وكأنه يحيا لحظات الصراع المحتدم في قلب المعركة، بجرس الكلمات، بسرعتها المتلاحقة، بالفاء التي لا تترك أيما فاصل بين الفاعل والمفعول، وبإيقاعها الذي يضع الإنسان فعلاً في لحظة الاحتدام التي يلتقي بها، في ساحة الموت، طرفا النزال؟

ترى كم من أمثال هذه المقاطع، المرسومة بكلمات الله، يلتقي معها الإنسان وهو يرحل في كتاب الله وآياته البيّنات؟ كثيرة.. كثيرة جداً.. ويكفي أن يرجع الإنسان إلى القرآن الكريم ببصيرة نافذة، لكي يتلقى منه القيم والتعاليم، ويعاين اللوحات التي تكاد تجسد الحالة، وتضعها شاخصةً قبالة السمع والبصر..

وهاكم مقطعاً آخر، من بين العشرات والمئات من المقاطع: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ{١} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{٢} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{٣} تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{٤} تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ{٥} لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ{٦} لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ{٧}** (سورة الغَاشية: الآيات ١-٧).. ويقف الإنسان مشدوهاً إزاء هذا التقطيع المنغّم في الجمل القرآنية.. ذلك الذي يرسم الصورة بأكبر قدر من الإيحاء والتأثير، ويعرّف المصير الذي سيؤول إليه الكفار المارقون، وكأنه يتشكل قبالتنا اللحظة الراهنة!!

(٦)

كناقوط الماء الذي يضرب على الجملة العصبية للإنسان دون أن يتركها لحظةً واحدة، محفزاً إياها على مواصلة العمل، والكتابة، والتأليف، منذ لحظات التفتح الأولى على خبرات الحياة، وحتى تدّس أنوفنا في التراب..

ذلك هو قدرنا، أن نظل نكتب ونكتب، ونواصل الرسم بالكلمات، والتعبير عن التصوّرات والقيم والأفكار، دون أن نفيئ - ولو لحظة واحدة - إلى الاسترخاء بعيداً عن هموم الكتابة والتأليف، وإلاّ فإن ناقوط الماء سيستمر على ضرب جملتنا العصبية لكي تواصل العمل ليل نهار، فلا تكف عن الاستمرار لحظةً واحدةً!

إنه جهد ممتع، ذو ثمار حلوة كالعسل المصفى، لكنه يعرف كيف يفترس الأعمار، ويفرق بين الزوج وزوجته، وبين الأب وبنيه، وبين الرجل وأصدقائه.. بل بينه وبين الملذات المباحة للحياة الدنيا..

إنه ناقوط الماء!

(٧)

كلما أوغل الإنسان في رحلة العمر، وأطل على الشيخوخة، وأدرك أن ساعة الرحيل قد أوشكت، ولحظة الفراق قد حانت.. تضاءلت في إحساسه قيمة الحياة الدنيا، تكشفت أوراقها الواحدة تلو الأخرى، لكي ما تلبث أن تقف عاريةً من أي غطاء.. لا تملك أي قدرٍ من الإثارة والإغراء على الديمومة والاستمرار.. ها هي ذي على حقيقتها.. حقيقتها تماماً، مجردةً من أية زينة أو زخرف أو متاع.. وحينذاك.. حينذاك فقط، يدرك الإنسان كم هي

تافهة الحياة المسماة بالدنيا عن قصد مسبق.. فهي في الحقيقة على امتدادها لسبعين أو ثمانين عاماً، لا تعدو أن تكون الأدنى في سلّم الدرجات التي أريد للإنسان أن يرتقيها كي يجعل من حياته تجربةً تستحق أن تعاش.. لكي يمنحها معنى.. إنها تتضاءل وتتضاءل في لحظات المغيب هذه، حتى لا يكاد يتبقى منها أي شيء يغري بالاستمرار والبقاء.. أيما شيء على الإطلاق!

(٨)

عبر حلم سريع، أو شئتم رؤية حقيقية، أتيح لي أن أطلع على نار جهنم.. فيا للويل لقد جيء بقدر هائل يصعب قياسه، يتصاعد منه اللهب المتوهج والنار المتلظمة، ويتطاير دخان أسود بلون الليل.. ووضع قبالتي، وقيل لي ها هي ذي نار جهنم.. لم أنبس ببنت شفة منتظراً مصيري، وأنا أرنو بوجل وإشفاق إلى هذه المحرقة الكبرى التي تعجز الكلمات عن تصوير هولها المريع.. ثم ما ألبث أن استيقظ من الحلم، أو الرؤية، دون أن تمسني النار، فيا الله على هذه الفرحة الطاغية التي غمرتني وأنا أفتح عيني وقد زالت عني تلك الجمرات المتوقدة للجحيم.. وما لبثت أن أسرعت إلى أحد الأصدقاء الملمين بتفسير الرؤى والأحلام، لكي يطمئنني بجملة من الآيات القرآنية أنني نجوت من الهلاك.. فيا الله على هذا العفو الكبير والسخاء الهائل الذي لو بذلت حياتي كلها للحصول على رشفة منه، للاقتراب من ظله الظليل، لما وفيت بها.. لا والله!

(٩)

لا أدري كيف يبيح الإنسان لنفسه هدر الزمن.. لكأنه يحكم بالإعدام على الفرصة الذهبية التي منحه الله إياها، يغيبها في التراب.. تمر الساعة والساعتان، واليوم واليومان، والشهر والشهران، والسنة السنتان، وهو جالس في مكانه لا يبذل أيما جهد للتحرك ولو خطوةً واحدةً إلى الأمام.. بل إن بعضهم يرمي في سلّة المهملات عمره كله، دون أن يفكر لحظةً واحدةً علام أعطي هذه الفرصة، ولماذا؟!

أعرف العديد من الناس فقدوا - بمرور الوقت - الإحساس بالزمن، فليس ثمة عندهم ما بين اليوم والأمس والغد أيما فارق على الإطلاق! ورسولنا - عليه أفضل الصلاة والسلام - يعلمنا أن من تساوى يوماه فهو مغبون.. فكيف بمن تتساوى أيام عمره كله؟!

(١٠)

هنالك نمط من الناس لا يعجبهم شيء في حياتهم الدنيا قدر إعجابهم بالتحدث عن أنفسهم، عن منجزاتهم.. عن تفاصيل يومياتهم، لحظةً بلحظة، ودقيقةً بدقيقة.. يا الله على هذه الشهية للحديث، حتى ولو كانت في أمور أتفه من أن يشار إليها بكلمة واحدة.. المهم أن يتدفقوا عبر المجالس واللقاءات في الحديث، فلا يكاد يوقفهم شيء على الإطلاق.. لكأنهم وقد استأثروا بالحديث حكموا بالإعدام على ألسنة كل الحضور معهم، واعتقلوها في أفواههم، فلم يتركوا لها أيما فرصة للمشاركة فيما يدور.. إنها نوع من الأنانية المفرطة التي لا ترى إلا ذاتها، ولا تدور إلا حول ذاتها.. فليس ثمة من علاج لهذا المرض المستعصي إلا بقلع ألسنة هؤلاء، وإذ يستحيل ذلك، فليس ثمة سوى إقامة جدار عازل، كسور برلين، بينهم وبين أولئك الذين كتب عليهم أن تحاصرهم أحاديث الآخرين.

(١١)

وهنالك نمط من الناس تمرّسوا على التساهل في المواعيد التي يضربونها للآخرين.. تطلب من أحدهم، تتوسل إليه، ترجوه، أن يأتيك تحديداً في الساعة العاشرة صباحاً.. تترك كل أعمالك، تضعها جنباً، وتجلس مشدود الأعصاب بانتظار ذلك الذي ضربت معه موعدك ذاك.. فإذا بالوقت يمرّ.. وتمضي عقارب الساعة بعيداً عن مكانها المحدد، فيزداد توتر أعصابك.. ثم إذا بك بعد ساعة وربما ساعتين، تفاجأ بقرع جرس الباب.. ها هو ذا الزميل العزيز قد جاء، بعد أن أخلف موعده معك، ودفعك إلى زاوية الانتظار القاسية، وقد أفلتت من يديك المشاغل والهموم.. ها هو ذا الزميل العزيز الذي لا تفوته صلاة، يدخل عليك هاشاً باشاً وكأنه لم يقترف خطأ، بل كأنه قد أخذ رخصة من رب العباد - جلّ جلاله - بأن يسمح له بإخلاف موعده ذاك؟ وتجاوزه الساعة والساعتين.. أتراه لم يستمع لحديث الرسول المعلم - صلى الله عليه وسلم -: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذّب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف)!؟

(١٢)

عبر خمسين عاماً من عمري وأنا اكتسح خصومي عبر جدلي معهم.. اكتسحهم اكتساحاً.. ولا يقرب قراري، عبر مناقشاتي كافة، إلا أن أخرج منها جميعاً منتصراً.. ثم ما لبثت بعد هذه المسيرة الطويلة من الحياة أن يتبين لي خطأ موقفي ذاك، وإنني كنت باكتساح خصومي، وإثبات موقفي، أخسرهم.. ربما إلى الأبد.. ذلك أنني كنت أترك في

حلوقهم مرارة الإحساس بالهزيمة التي تعرف كيف تزرع الأحقاد والكراهية في قلوب الآخرين..

أخيراً، أدركت خطأ موقفي ذاك، وفئت إلى طريق آخر.. طريق مغاير، وبزاوية قدرها مائة وثمانون درجة.. أن أعطي خصومي الفرصة لإثبات قناعاتهم، أن ابدي شيئاً من التساهل في قبول بعضها.. أن أشعرهم بأنهم هم الآخرون على حق، وأن نقاشنا وجدلنا المحتدم يتحرك وفق نوع من تكافؤ الأدلة، فلا يؤول إلى هزيمة طرف على الإطلاق!!

(١٣)

يا الله على هذه المنة الكبرى التي تطوقنا بها إرادة الله - جلّ في علاه - ، الذي يعلم -سبحانه - من خلق، وهو اللطيف الخبير.. فها هنا تحت مظلة الله، وبالرؤية الواقعية التي تتعامل بها كلماته، يجد الإنسان المؤمن الطريق مفتوحاً أمامه للخلاص، مهما مارس من خطايا وآثام صغيرة.. من اللمم، بالتعبير القرآني، تلك التي لن ينجو منها أحد من الناس، إلاّ أنبياء الله - عليهم السلام -.. فها هنا لا يجد المؤمن نفسه محاصراً بالخطيئة التي تطوقه من أطرافه الأربعة، وتسدّ عليه الطريق.. إنه مفتوح على مصراعيه لتجاوز الأخطاء وإلغائها من الحساب.. وتلقي جملةً أخرى من الأخطاء، وإلغائها هي الأخرى من الحساب.. فليس ثمة حتى اللحظات الأخيرة جدار يقف بين الإنسان المؤمن وبين الخلاص.. إنه الطريق العريض المفتوح على مداه.. فهل ثمة من كرم أكبر وأكثر سخاءً من هذا الذي منحنا الله إياه؟!

(١٤)

منذ أول كلمة أتيح لقلمي أن يخطها، قبل أكثر من ستين عاماً، وحتى هذه اللحظ ات التي أدوّن فيها هذه الكلمات، قررت أن تكون كل كلمة أكتبها، بل كل حرف أخطه، منذورةً لله، منطلقة من مفاهيم التوحيد، وسمائه الكبيرة، وفضائه الواسع الذي لا تحده حدود..

إن حياتي مترعة بالأخطاء، محاصرةً بجبال من اللمم، وليس ثمة غير الكلمة من مطهر قد يكون وسيلةً نجاتي يوم الحساب!

هكذا كنت أقول في نفسي.. ومضت الأيام والشهور والسنين وأنا منكب على الكتابة والتأليف دقيقةً بدقيقة، وساعةً بساعة، ويوماً بيوم، وإغراءات الكتابة باسم الله تتزايد، وإلحاحها يمسك بخناقي فلا يدعني أرتاح إلا أن أمسك بالقلم وأكتب.. أكتب.. أكتب.. غير مكترث لأي شيء آخر، غير الكتابة..

في الفلسفة والمنهج، والبحث التاريخي.. في الجدل الفكري.. في المعطيات الأدبية؛ تنظيراً وتطبيقاً وإبداعاً.. في الرواية والقصة والمسرحية والشعر والسيرة الذاتية وأدب الرحلات وأدب الحوار.. كان قلمي يلهث، وأنفاسي تتقطع، وأنا أواصل المشوار، إلى أين؟!

يبدو أن لا نهاية لهذه المسيرة المتواصلة إلاّ أن يدس أنفي بالتراب.. وها أنا ذا أدلف إلى التاسعة والسبعين من عمري، لا أزال أواصل الطريق مبتغياً وجه الله وحده، متجاوزاً إغراءات الحياة الدنيا، وعبثها، وسخفها، وتقطعها، وانصرامها.. إلى هناك حيث تعرّش الكلمة كما أراد لها الله سبحانه وتعالى أن تكون: {**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ{٢٤} تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ...**}(سورةَ إبراهيم: الآيتانَ ٢٤-٢٥).

ولكن السؤال الذي ظل وسيظل يؤرقني: هل ستكون كلماتي التي نسجتها حرفاً حرفاً على مدى سبعين عاماً.. هل ستكون كذلك؟!

(١٥)

من الله وحده أريد الثمن يوم الحساب.. فهل ستشفع لي جهود ستين عاماً من الكتابة المتواصلة التي نذّرتها لله - جلّ في علاه - ، أم أنها ستكون باطل الأباطيل وقبض الريح؟

كل ما أرجوه، وأتوق إليه، وأتشبث به، وأعض عليه بالنواجذ، أن تكون الأولى.. وحينذاك سألقي قلمي، وأرتاح، منتظراً الجزاء الأوفى الذي يكافئ جهدي ذاك.

ويظل السؤال المؤرق معلقاً على رقبتي، يمسك بخناقي، ويأخذ بتلابيب جملتي العصبية التي انعدم فاصل الألم بينها وبين العالم: ترى هل سأحظى بالمطلوب؟

لقد تجاوزت، بسبب من حساسيتي الفائقة تجاه هذه المعادلة الصعبة، الكثير الكثير من الإغراءات المادية والأدبية، وخرجت منها بعد كفاح مرير منتصراً، ومنتظراً - في الوقت نفسه - وعد الله..

فهل سأحظى بالمطلوب؟!

(١٦)

ثلاثة عشـر مداخلة جراحية اجتزتها في حياتي.. وهو رقم أظنه كبيراً في حساب المداخلات الجراحية.. بموازاة ضيق في النفس أمسك بخناقي منذ طفولتي وحتى هذه اللحظات.. ترى أيكون ذلك جواز سفري إلى الجنة؟

إنه والحق يقال طموح كبير، أكبر بكثير من كل ما لاقيته وقدمته في حياتي، وبالتالي فإن تحوّله إلى أمر واقع مسألة فيها ألف نظر ونظر، ومن ثم يظل السؤال معلقاً: هل ستراه يتحقق؟

ثمة منفذ كبير قد يقرّبني مما أرجوه وأتوق إليه: إنهم قاعدة قرائي الذين ينتشرون في آفاق الأرض.. ومن يدري فلعلهم في اعقاب كل قراءة مقال ما، أو كتاب من الكتب، يدعون لي بالنجاة في ظهر الغيب.. فمن يدري لعل دعاءهم يستجاب، وأكون قد اجتزت الامتحان العسير!؟

(١٧)

{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ{٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} (سورة الحديد: الآيتان ٢٢-٢٣)..

وإنها والله للآية التي تعرف كيف تحرّر الإنسان من الأسى والطغيان.. الألم المحض على ما فات، الفرح الطاغي بما سيأتي، فيتعرض للانطفاء.. ذلك أنه ما من صغيرة أو كبيرة في حياة كل واحد منا، إلا وقد ثبتت عليه من قبل أن يبرأ الإنسان.. ومن ثم فعلام هذه الجرعات الهائلة من الندم والأسى، التي يكاد كل واحد منا يتلقى حفناتها المريرة ساعةً بعد ساعة، ويوماً بعد يوم؟

إنها - والحق يقال - آية تحرير الإنسان من الحزن والقلق والهواجس والهموم، ودفعه إلى الحياة وقد تجاوز كل هذه العوائق حراً متوازناً وسعيداً، غير نادم على ما فات، ولا خائف مما سيأتي.. وعلام؟ ولم؟ ما دام أن كتاب عمره - بكل تفاصيله وحيثياته - قد مهر عليه من قبل أن يبعث إلى الوجود؟!

(١٨)

إذا أردنا اختصار حياة الإنسان بكلمات قلائل، قلنا بأنها معادلة الصراع القاسي والجهد الموصول والكدح اللا نهائي على المغانم التافهة؛ من مال وولد وتكاثر وزينة وزخرف وقوة وسلطة وجاه.. ثم ما تلبث أن يتبين عدم جدواها.. ربما بعد تعرضها للتآكل السريع.. ربما بعد انكسارها على حين غفلة.. ربما بعد استيقاظ الإنسان على حفنة من الأوجاع، أو سقوطه فريسةً للموت المفاجئ!

إنها معادلة محزنة وخاسرة بكل المعايير.. وما أكثر الذين ابتلوا بها، فانتهت حياتهم المكافحة إلى اللا شيء، وخرجوا من الدنيا غير مأسوف عليهم.. أو تناوشتهم الآلام من كل

جانب، ففقدوا القدرة حتى على توظيف دينار واحد من الملايين التي كدحوا من أجلها بالحق والباطل، من أجل التمتع بلقمة طيبة.. لقمة واحدة فقط.. يغادرون الدنيا ويتركون ما جمعوه من ذهب وفضة وأكداسٍ الدنانير لذريتهم، التي تعرف كيف تشتت هذا الذي أفنوا أعمارهم في جمعه، وكيف تضيّعه في الموبقات!

(١٩)

عشرات ومئات وألوف من الأخطاء والأوهام والتمنيات والمخاوف والندم والآلام نجتازها في حياتنا، ونتجرع من جرائها المرارات والأحزان.. وعندما ينكشف الستار، وتتمزق الحواجز، ويجد الإنسان نفسه يقف عارياً أمام الحقائق.. يتبين له أنه كان واهماً، وأن تصوره لما مارسه من أخطاء كان أكبر من حجم الأخطاء بكثير.. بكثير جداً.. بل ربما لم تكن هناك أساساً ما خيّل إليه الوهم أنها أخطاء..

أخيراً، تتكشف الحقائق أمام كل واحد منا، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن تكون قد افترست من أعمارنا الشيء الكثير.. وليجرب كل واحد منا أن يقوم بمحاولة لإحصاء هذه المتاعب الموهومة، التي دمرت عليه أمنه وسعادته، فإنه سيعجز عن حصرها، لأنها تتدفق كالسيل، ولن يوقفها عن الهدير إلا صوت واحد يملك القدرة على صناعة المستحيل، ذلك هو الإيمان!

(٢٠)

بعض الناس يجتاحهم بين الحين والآخر ما يسميه الأطباء بالمغص الكلوي.. إن آلامه الجسدية لا تطاق، وهي - إذا أردنا الحقيقة - فوق طاقة الإنسان على تحمل الأوجاع.. يتلوى من الألم الذي يتجاوز الحدود، ويخور كخوار الجمل طالباً النجدة، قليلاً من التخفف من شد الأوجاع التي لا ترحم، والتي بيدها أن تستجيب للنداء، وألا تستجيب، فيستمر الخوار والتلوي، حتى إذا اكتملت دورة المعاناة، وكفت الأوجاع، أحس الإنسان بأنه قد انتقل من الجحيم إلى النعيم، ومن لفح النار إلى برد السلام والاسترخاء..

وكنت دائماً أقول إن هناك ما هو أشد فتكاً من المغص الكلوي.. ما أطلق عليه اسم (المغص النفسي)، فهو - والحق يقال - أكثر لعنةً من كل ما يجتاح الإنسان من آلام قاسية، ذلك أنه يضعه على حين غفلة عند مفترق طريق، وعليه أن يختار أي الطريقين يسلك، ويتحتم أن يتم ذلك بأسرع وقت وإلا فاتته الفرصة.. وهو يقف حائراً عاجزاً عن الاختيار،

حيث يجد نفسه في حالة تكافؤ الأدلة، ويصعب عليه - بل يستحيل - الاختيار.. وإلا خسر كل شيء!

ترى كم من المرات في حياة كل واحد منا وجد الإنسان نفسه يتخبط في بئر المغص النفسي.. يبحث عن مؤشر للخلاص، ولا من مجيب؟!

(٢١)

عبر حياتي التي أوشكت أن تبلغ الثمانين، رفضت الكثير من إغراءات الحياة الدنيا وطيباتها التي يصطرع عليها الآخرون، واعتذرت عن العديد منها، واقتنعت بالخلو إلى نفسي وقناعاتي الذاتية وكتاباتي المتواصلة التي تمزج الليل بالنهار.

كنت أحس في أعمق طبقة من وجداني أن أي تساهل إزاء هذه الإغراءات، أي قبول لها، أو انخراط في زخرفها، سيشطرني شطرين، سيجعلني أعاني ازدواجاً يصعب عليّ تحمله.. وكنت أقاتل بضراوة لحماية توحّدي هذا من أية محاولة للاختراق، حتى لو كانت مبررة لا شبهة فيها، ومع ذلك حاولت ما وسعني الجهد أن أتجاوز هذا كله..

نعم.. فإنني - والحق يقال - لم أبلغ المنتهى في موقفي هذا، وكنت أجدني مندفعاً بين الحين والحين بقوة لا ترحم للاستجابة للإغراء، لكنها كانت حالات قليلة لا تتجاوز أصابع اليدين، ومضت سفينة حياتي تجتاز البحار دون أن تقدر على سحبها إلى القرار أية قوة في الأرض.. أية محاولة للاستدراج مترعةً بالإغراء والإغواء.. ذلك أن الذي كان يحرسني من السقوط هو إرادة الله - جلّ في علاه -..

فما أعظمها من منّة وهي تسوق مركبي عبر العواصف والأنواء سبعين سنة من الكفاح، إلى شاطئ الأمن والتوحد والسلام.

(٢٢)

في كتاب (سيرتي الذاتية) ما قلت كل شيء مما خبرته، أو عايشته في حياتي، خشية من تضخم الكتاب الذي كاد أن يبلغ الألف صفحة عدداً.. وها أنا ذا عبر هذه التأملات الموجزة في الدين والحياة أستدرك بعض ما فاتني هناك.. وما فاتني هناك كثير كثير، يصعب الإمساك بخيوطه كافة، ولكن - كما يقول المثل - فإن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه..

(٢٣)

الدعوات المتواصلة للمشاركة في المؤتمرات الدولية والندوات، ولإلقاء المحاضرات في هذه المؤسسة أو المعهد أو الجامعة أو تلك، تنهال عليّ كالسكاكين الحادة، وأجدني مرغماً لأسباب عديدة عن الاعتذار عن تلبيتها، بعد أن أكون قد تجرعت حفنات من المرارة والعلقم، وأنا أرى أصدقائي ومعارفي يهرعون - بشهية تفوق الوصف - لتلبية كل دعوة، بعيداً عن أية حساسية قد تسببها الاستجابة، وما أكثر الحساسيات السياسية والفكرية التي تمسك بزمام هذا المؤتمر، أو تلك الندوة، فيما يدفع الإنسان إلى التفكير مرةً ومرتين وعشرين مرة قبل أن يستجيب لها، ويحزم حقائبه، ويهرع لتلبيتها..

إنني أذكر - على سبيل المثال - كيف تلقيت عبر سنة واحدة (٢٠١٧-٢٠١٨م) ما يزيد عن العشرين دعوة، كلها اعتذرت عنها، وظللت جالساً في مكاني منكباً على الكتابة والقراءة والتأليف، لكي ما تلبث مداخلتان جراحيتان في الشرايين جعلتاني أعاني من عدم القدرة على السير خطوات دون أن تحاصرني الأوجاع وترغمني على الجلوس.. ومن يدري فلعلي وجدت في ذلك الفرصة التي كنت انتظرها منذ زمن بعيد.. أن ترغمني ظروفي الصحية على الاعتذار عن الاستجابة للدعوات.. أتراها مفارقةً غير مبررة بأي معيار من المعايير؟ ولكنها بالنسبة لي على الأقل تجيئ لكي تنقذني من الحيرة والتردد إزاء كل دعوة تأتيني من هنا أو هناك..

(٢٤)

لست أدري لماذا أمسك بخناقي هاجس من نوع غريب.. أن أواصل الكتابة والتأليف حتى أصل إلى الكتاب رقم (١٠٠)، وها أنا ذا إذ أدوّن هذه التأملات أكون قد استجبت للنداء وبلغت المطلوب بفضل من الله ومنّة - جلّ في علاه -؟!

والإنسان عموماً تستهويه الأرقام، والأسباب عديدة متشعبة، ولكن يبقى أهمها على الإطلاق هو ذلك الإغراء الذي يشكله الرقم (١٠٠)، فيدفعه إلى بذل المستحيل للاستجابة لندائه..

يا الله على هذه المنحة الإلهية التي دفعتني ومكنتني من أن أحقق طموحي هذا، وأنا أتذكر المرات العديدة التي جاوزت العشرين عدداً، والتي أفلتَّ عبر كل واحدة منها من قبضة الموت.. وأتساءل بيني وبين نفسي: أتراها إرادة الله؟!

(٢٥)

الحمد لله.. ها هي ذي أعمالي تغادر المحلية إلى العالمية، حيث تنهال علي الطلبات من شتى بقاع الأرض تطلب ترجمتها إلى اللغات الأخرى: من اندونيسيا، وماليزيا.. من كازاخستان وداغستان وروسيا، من انكلترا وفرنسا، من كردستان وتركيا، من البوسنة والهرسك، وغيرها من البلدان في مشارق الأرض ومغاربها.. والذي يهمني من هذا كله هو إيصال حيثيات المشروع الحضاري، الذي قدر لهذا الدين أن ينوء بحمله، إلى سمع العالم ووجدانه.. فاليوم نحن بأمس الحاجة إلى إيصال خطابنا إلى الآخر بقوة الفكر وليس بقوة السلاح، حيث الفارق الكبير بيننا وبينهم.. فبقوّة الفكر، وبما ينطوي عليه مشروعنا الحضاري من قدرة على المشاركة العالمية في إعادة صياغة المصير البشري، يمكن أن نحقق شيئاً من المطلوب، وما ذلك إلا بفضل من الله ومنة منه - جلّ في علاه -..

(٢٦)

هنالك نمط من الناس يملكون شهية هائلة للكلام.. للتحدث عن كل شيء.. للاستئثار بالحديث في المجالس والمنتديات بحيث إنهم لا يتركون أيما فرصة.. أيما فرصة على الإطلاق للآخرين لكي يدلو بدلوهم.. وقد سبق وأن تمت الإشارة إليهم.. ولكني هنا أريد أن أضيف ظاهرة عجيبة يمارسها هؤلاء، وهي أنهم يتدفقون في الكلام المتواصل حتى وهم يتناولون الطعام.. ولقد ابتليت عبر حياتي ولقاءاتي بالعديد منهم، حيث كان أحدهم يطبق علي من جميع الجهات، وهو يندلق بكلماته المتواصلة دون أن يمنحني الفرصة المتعارف عليها لكي استلذ بلقمتي.. يمسك بخناقي، ولا يدعني إلا وقد انتهى موعد تناول الطعام.. فلو أن أحد هؤلاء تمعّن فيما يخرج من فمه، وهو يتحدث، من بقايا الطعام المتطاير الذي يدفع إلى التقزز والغثيان، لربما توقف قليلاً عن اندفاعه في إلقاء الرشاش المقرف على جيرانه، وهو يوزع كلامه بشهية تفوق شهيته للأكل، ذات اليمين وذات الشمال!

(٢٧)

لو أردنا أن نختزل رحلة حياتنا الدنيا بكلمات قلائل.. لو أردنا أن نعتصر خلاصتها بأقل العبارات، وأكثرها دلالةً، لقلنا بأنها رحلة الكدح المتواصل، والمتاعب المتجددة، والمنغصات المتعاقبة، والأوجاع المتلاحقة، وانطفاء الفرح.. ثم المغادرة!

أتستحق حياة كهذه أن نعض عليها بالنواجذ؟ أتستحق أن نتقاتل من أجلها، ويفترس بعضنا بعضاً؟ أتستحق هذا اللهاث المتواصل الذي لا يكف عن الركض المحموم

حتى تدس أنوفنا في التراب؟ أتستحق أن ندوس من أجلها على القيم والمقدسات، وأن نسعى للتسلّق بالحق والباطل لكي نبلغ مداها؟ أتستحق أن نرفع السكاكين والبنادق والرشاشات في وجوه بعضنا، ويذبح بعضنا بعضاً، من أجل حفنة من الدنانير، لا تعدو أن تكون أوراقاً لا قيمة لها مكدسةً في الخزائن والمجرات؟ أتستحق هذا الكدح والعناء كله؟!

(٢٨)

{**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيه**}(سورة الانشقاق: الآية ٦).

بهذه الكلمات القلائل في مبناها، والمترعة بالكثير الكثير من الدلالات في معناها، يختصر الخطاب الإلهي رحلة حياتنا الدنيا، بما أنها كدح متواصل، ومشقة، ومعاناة، ومتاعب، وأوجاع وآلام.. بما أنها ركض حتى اللهاث صوب أهداف سرعان ما يتبين لنا أن هناك وراءها أهدافاً أخرى، وأنه يتحتم علينا أن نسارع للوصول إليها..

ولكن يبقى معيار هذا الكدح الذي سيلقانا به الله سبحانه وتعالى يوم الحساب، هو النيات التي تكمن وراءه، فإن كانت خالصة لوجهه الكريم فلسوف تلقى جزاءها الكبير الذي تعجز الكلمات عن الإحاطة به، ووصفه.. وإن كانت لغيره، فلسوف يكون جزاؤها من جنس ما يكمن خلفها من رغبات ومصالح وأهواء..

ولنا الويل إن مال بنا الميزان يوم الحساب صوب هذا الاتجاه الذي ينذر بالفتنة والعذاب.. لنا الويل!

(٢٩)

(كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها)، هكذا يريد معلمنا الكبير - عليه أفضل الصلاة والسلام - أن يضعنا على الحافة بين الحياة والموت.. لحظة التشييع.. وعند الوقوف على حافات المقابر لتوديع قريب أو صديق.. إنها الخط الفاصل الذي لا يكاد يرى بين الحياة والاستمرار، وبين الموت والفناء.. بين الحضور المنظور، وبين الغياب الذي لا تدركه الأبصار.. بين الأرض الصلبة، وبين السماوات القصية، التي تنطلق فيها الروح متحررة من شد الوحل ولزوجة الطين.

ولكن آه من العيون التي لا ترى، والقلوب التي علاها الصدأ، فلم تعد تنبض إلا بالقريب العاجل، وتلتصق إلا بالحسي المنظور.. فلو أن أصحابها، وهم يقفون على الحافة بين الحياة والموت، ويرون بأم أعينهم كيف يغيب أقرباؤهم وأصحابهم في التراب.. لو أنهم جعلوها ترى وتبصر.. لو أنهم كسروا طبقات الصدأ الذي أحاط بقلوبهم وبصائرهم، وجعلوها ترى الحقيقة كما أريد لها عبر هذه اللحظات أن تكون، لعادوا إلى ديارهم وقد

انقلبوا على أنفسهم فتخففوا من لعنة الحقد والكراهية، ومن سموم اللهاث المتواصل وراء إغراءات حياة دنيا لا تساوي جناح بعوضة.. فها هي ذي عند التشييع تكشف عن وجهها، فإذا هي لحظة عابرة من الزمن.. وقفة سريعة تحت ظل شجرة خضراء، ما يلبث الإنسان أن يغادرها في طريقه إلى ؟!

ومرةً أخرى، وثالثة، وعاشـرة، آه من العيون التي لا ترى، والقلوب التي لا تحس ولا تخفق.. والغفلة التي تعرف كيف تطوق الإنسان من جهاته الأربع!

(٣٠)

من منا لم يتعذب، ويتناوشه الندم المحض الذي يعز على الوصف، وهو يتذكر عدداً من أقربائه وأصحابه الذين رحلوا، دون أن يكون قد أحاطهم بما يستحقونه من محبة ورعاية وتكريم؟ من منا لم يتعذب ويتناوشه الندم المحض الذي يعز على الوصف، وهو يتذكر أباه أو أخاه أو أمه الذين رحلوا دون أن يكون قد احتضنهم وأشبعهم لثماً وتقبيلاً؟ فو الله طالما قلت في نفسي: لو أن أبي عاد إلى الحياة، ولو لدقائق معدودات، لانكببت على قدميه لثماً وتقبيلاً.. وحينذاك فقط أكون قد وفيت شيئاً من الدين الذي في رقبتي إزاءه!

في مسرحية (بلدتنا)، للكاتب المسرحي الأمريكي (ثورنتون وايلدر)، وقفة درامية عند هذه الحالة المأساوية المؤثرة.. أن نترك أحباءنا يرحلون دون أن نكون قد عبرنا عن محبتنا لهم، ولو بعشر معشارها الذي تستحقه.. هنالك حيث يمسك بخناق الإنسان وسواس تسلطي قاهر، كأنه يتطلب منهم، ويتوسل إليهم أن يعودوا مرةً أخرى إلى الحياة، فقط لكي يحتضنهم ويطبع قبلات المحبة والعرفان على وجوههم.. ولكن هيهات!

(٣١)

{... **وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**}(سورة المؤمنون: الآية ٧٠)، تلك هي الثيمة القرآنية التي تتردد بصيغ تعبيرية شتى في كتاب الله - جلّ في علاه - من بدئه حتى منتهاه!

هكذا أريد للحياة الدنيا أن تكون.. أكثريات ساحقة تكره الحق، وتقاومه، وتضع الحواجز والمتاريس في طريقه، وتسعى لوقفه بكل أسلوب.. وأقليات مبدعة تسعى لإعادة صياغة الحياة بما يريده الله سبحانه وتعالى، وبما بعث به أنبياءه الكرام.. ويكون الصراع الأبدي بين الفئتين.. الصراع الذي تستمر ناره في الاشتعال عبر مساحات التاريخ البشري كله.. وتبقى العبرة بالنتائج.. أن يتاح للأقليات الانتصار على خصومها الذين يفوقونها عدداً، وأن تمضي لكي تعيد بناء الحياة وفق كلمات الله - جلّ في علاه -..

فلا يهولنّنا الأمر إذا رأينا بأم أعيننا عبر زمننا هذا، كيف أن المساحات السوداء تغطي على قارات الدنيا الست، وكيف تهرع جماهير الدهماء لسحق كلّ من تسوّل له نفسه بنقلها من مستنقع السوء هذا إلى عالم الحرية والوضاءة والوفاق.. ولكن السؤال الذي يدوّم فوق رؤوس الفريقين: أترى هذا سيدوم إلى الأبد؟

إن على دعاة الإسلام، في اللحظات الراهنة، أن ينفخوا في قرائح الشباب روح الثقة والأمل بالمستقبل، وألا يدفعوهم إلى زوايا اليأس والقنوط.. ما دام أن كل مسلم في هذا العالم هو مشروع مفتوح للصعود، بما وسعه من جهد، وبما يقدر على أدائه في وتائره العليا، فإنه سيلقى جزاءه كاملاً هناك يوم الحساب. فهو ليس مطلوباً منه أن يتلقى الحصاد في حياته الدنيا، تماماً كما أنه لم يكن مطلوباً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الشيء نفسه {... **فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** }(سورة غافر: الآية ٧٧).. وحينذاك.. حينذاك فقَط، سَيشمر كل إنسان مسلم عن ساعد الجدّ لتقديم ما وسعه الجهد في بناء العالم الموعود، والخروج بالبشرية من النُقر الضيقة التي تتخبط فيها إلى سماء الله الكبيرة.

إن الجهد الفردي، أو الجماعي، سينضاف بعضه إلى بعض، لكي ما يلبث أن يشكل نهراً هادراً، قد تتغير به المصائر والمقدرات.

(٣٢)

ألا يتحتم علينا أن نتعلم من رسولنا - عليه أفضل الصلاة والسلام - حتى في هذه؟ فيما يطلق عليه اليوم (أتيكيت الطعام)، حيث نرى بأمّ أعيننا حشوداً من المسلمين، بل من الذين يحملون هم الدعوة، لا يكترثون لهذا، وينقضون على موائد الطعام دونما أي قدرٍ من الإحساس بالمطالب الجمالية اللائقة في تناول اللقمة، بحيث إنك إذا ألقيت نظرك إزاء بعضهم، رأيتهم وكأنهم يلتقون بفريستهم التي انتظروا اصطيادها، فينهشون لحمها وعظمها، وهم ينحنون على موائد الطعام دافعين بأكتافهم جيرانهم ذات اليمين وذات الشمال، وكأنهم يريدون أن يحتكروا المائدة لأنفسهم.. ليس هذا فحسب، بل هم يمضون إلى أبعد من هذا، فتتدفق ألسنتهم وأفواههم بالكلام المتواصل، وبصوت مرتفع، حيث يتطاير منها فتات الطعام فيتساقط قبالة الآخرين فيما يدعو إلى النفور والتقزز.. بل هم يمضون إلى أبعد من هذا، فإذا بهم يمسكون بأعواد الثقاب قبالة الآخرين، الذين لا يزالون يواصلون تناول طعامهم، لإخراج ما عصي من لحمٍ بين أسنانهم، فلا يزيدون ذوي الإحساس المرهف إلا قرفاً واشمئزازاً.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد علمنا كيف نستقبل موائد الطعام، وكيف نأكل من أقرب موضع في الإناء، وكيف نستحيي أن يمضي بنا الشره للطعام إلى مداه.. وكيف.. وكيف.. فيما يشكل منظومة متحضرة في كيفية تناول الطعام.. أفلا يتحتم أن نتعلم منه؟

(٣٣)

{**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجِد** ...}(سورة الأعراف: الآية ٣١).

{**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لعِبَادِه وَالْطَّيِّبَات منَ الرِّزْقِ، قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا خَالصَةً يَوْمَ الْقيَامَة**...}(سورة الأعراف: الآية ٣٢)..

بهذا الأمر الإلهي الحاسم، وبهذا الانفتاح المدهش على التمتع بطيبات الحياة الدنيا.. هذه هي الأخرى (الثيمة) التي طالما ترددت في كتاب الله، من بدئه حتى منتهاه: {**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجِد** ...} وأين؟ في أخص ما يمس الإنسان المسلم من عبادته، وهو متجه لأداء الصلاة!!

فما الذي نلحظه على العديد من أتباع هذا الدين، الذين وضعوا على آذانهم شمعاً أحمر لكي لا ينصتوا لنداء القرآن، فيتجهون للمسجد شعثاً غبراً، تفوح من بعضهم الروائح التي تزكم الأنوف، يتجهون لأداء الصلاة وقد اكتست وجوههم بغمامة من العتمة، وربما الكراهية، وغابت السماحة والبشاشة من وجوههم.. فإذا سلمت على أحدهم، لم يرد عليك التحية بأحسن منها ولا بمثلها، بل إن بعضهم لا يرد عليها، رغم أنهم يعلمون جيداً أنها أمر إلهي: {**وَإِذَا حُيِّيْتُم بتَحيَّة فَحَيُّواْ بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ...}(سورة النساء: الآية ٨٦)، ورغم أنهم طالما سمعوا أحاديث رسول الله التي تأمرهم بإطلاق الكلمة الطيبة على ألسنتهم، وبرسم ملامح البشاشة على وجوههم: (تبسمك في وجه أخيك صدقة)، و(الكلمة الطيبة صدقة)..

يا الله على هذا الإحساس الإلهي والنبوي الأصيل بالجمال.. بالزينة.. بكل ما يجعل الحياة الدنيا تستحق أن تعاش.. وإلا فهو الخسران المبين!

(٣٤)

ما من سكين أجهزت على مقدرات أمتنا الإسلامية كسكين التشدد، بشفراتها الحادة التي تعرف كيف تقطع الرؤوس، بحديدها الملتمظ على سيال الدم، المتشهي لسفكه لحظةً بلحظة، ودقيقةً بدقيقة.. ما من سكين ذبحت الصوت المضيئ الذي جاء هذا الدين

لكي يخرج به الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، كسكين الغلّو والتطرف.. ها هم المتشددون يندفعون عبر تاريخنا كله كالسيل الطامي، فيكتسحون في طريقهم كل ما هو وضيء نبيل في معطيات هذا الدين الذي طالما نادى كتابه بأنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، ونادى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن هلاك الأمم السابقة إنما كان بسكين المراء والغلو والتشدد.. وبم يصف كتاب الله رسولنا - عليه أفضل الصلاة والسلام - : {... **وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ...}(سورة آل عمران: الآية ١٥٩).. أفلا يتحتم أن نطبع كلمات الله - جلّ في علاه - هذه على قلوبنا، ونضعها على رؤوسنا، ونحفرها في وجداننا، لكي نعرف كيف نستميل الآخر، وندعوه للانتقال إلى ديننا، والالتزام بمطالب عقيدتنا؟

إن آداب السلوك المنفتح، المرن، السهل، المحبب، الميسر، هي التي فتحنا بها نصف العالم، والتي يمكننا بها أن نفتح نصفه الآخر.. فها هم الغربيون، بنخبهم، ومواطنيهم العاديين، يهرعون يوماً بيوم للانتماء إلى هذا الدين، والذي يقف في طريقهم دائماً هو الغلّو والتشدد، فيصدهم عن الذهاب إلى ما يطمحون إليه.

ولكن آه من العقول التي لا تعي، والقلوب التي علاها الصدأ، والتي لا ترى إلا في السكين طريقاً لدعوة الآخرين إلى هذا الدين، الذي انطلق منذ لحظاته الأولى وهو يحمل لافتته الكبرى: الحنفية السمحاء!

(٣٥)

في حياتنا الدنيا هذه.. عبر علاقاتنا الاجتماعية.. في مياوماتنا، نلتقي بنموذجين من المعارف والأصدقاء، وهم على تباين مشاربهم، واختلاف أذواقهم وعاداتهم، وتغاير أفكارهم، يمكن للمرء أن يلمّهم في سياقين اثنين لا ثالث لهما: الطيب والخبيث!

الطيب الذي يغمرك بالبشاشة، ويمحضك النصيحة، ويداوي جراحك، ويخفف آلامك.. والخبيث الذي يروغ عنك كما تروغ الثعالب، منتظراً أية فرصة لكي يطعنك بأفعاله أو كلماته.. لا يمد إليك يداً ساعة المحنة، ولا تسمع منه ما يأخذ بك إلى الخروج من المآزق التي وضعك الزمن فيها.. لا تنضح شفاههم إلا بالسّم، ولا كلماتهم إلا بالسم، ولا أفعالهم إلا بالسم.. وكأنهم وقد علّقت جراب السم تحت ألسنتهم، لا يمكنهم - مهما حاولوا - إلا أن يمارسوا بها لدغ الآخرين، وانتهاز أية فرصة لحقنهم بالسم!!

وحظوظ الناس هي التي تضعهم حيناً في دائرة الطيبين، وحيناً آخر في دائرة الخبثاء.. ولكم أن تتصوروا كيف سيرجعون في الحالة الثانية إلى دورهم، وهم يعانون من الدوار الذي حقنه السم في دمائهم!؟

(٣٦)

اللحظات التي أتمّ فيها إنجاز عمل من أعمالي التأليفية هي أسعد اللحظات في حياتي.. اللحظات التي أضع فيها اللمسات الأخيرة على هذا الكتاب أو ذاك، وأعدّه للطبع، هي أكثر اللحظات فرحاً وبهجة في حياتي.. تتضاءل دونها كل المتع والمكاسب والإنجازات الأخرى، ولا يتبقى في دائرة الإحساس والوجدان إلا شيء واحد.. شيء نادر عزيز.. أنني قد أنجزت كتاباً، وأضفته إلى قائمة أعمالي ومؤلفاتي التي سأرفعها قبالة الله سبحانه وتعالى يوم الحساب قائلاً: ها أنا ذا يا رب العزة والكمال، قد أنجزت عشرات الكتب التي لا تتحدث إلا بكلمة التوحيد، ولا تدعو إلا لدينك وعقيدتك وشريعتك.. ولا تتمحض بالرد إلا على خصومك من شياطين الإنس، فتكشف عن عوارهم ودجلهم وشعوذتهم، وتبين للناس كم أن صراطك المستقيم هو الطريق الوحيد في هذا العالم، الذي يقود الإنسان والبشرية إلى الخلاص.. وما دونه سوى التخبط والضياع.

فمن يدري.. لعلها بنبضها المترع بعشق هذا الدين تشفع لي، لعلها تنقذني من ركام اللمم الذي أحاط بحياتي من أقصاها إلى أقصاها.. لعلها تخفّف عني شيئاً من العقاب الذي أستحقه.. ولنا الويل يومها إن جاء الأمر الإلهي برد الرجاء.. لنا الويل!

(٣٧)

لحظة جلوسي منفرداً، أطالع بشوق عميق في كتاب.. هي الأخرى تمثل أسعد اللحظات في حياتي.. فهي تساوي عندي الدنيا وما فيها من متع ومباهج وملذات.. منذ زمن بعيد.. زمن الطفولة الذي يشع فرحاً وبهجةً وسعادةً، كانت قراءة قصة من قصص الأطفال، أو مطالعة مجلة من المجلات، تنقلني على أجنحة النشوة إلى عالم آخر غير هذا العالم، وتضعني في قلب أحداثه ومفاجآته.. فأضحك وأبكي، وأفرح وأحزن، وأتوحد وأتشتت، ماضياً بانفعال يصعب وصفه، لكي أعانق مصائر الشخوص والأبطال..

منذ ذلك الزمن البعيد، وحتى لحظات الشيخوخة الراهنة، كان الكتاب هو محطة الخلاص بالنسبة لي، من الهموم والمتاعب والآلام.. محطة الاسترخاء والتخفف من عناء الكدح المتواصل واللهاث المحموم..

وما بين (السندباد البحري)، و(ليلى والذئب)، و(الوردة البيضاء)، وبين (الأجنحة المتكسرة) و(الأرواح المتمردة) لجبران، و(ماجدولين) و(العبرات) و(الفضيلة) للمنفلوطي، وبين (مائة عام من العزلة) و(خريف البطريق) لماركيز، و(قصة مدينتين) لديكنز، و(أنا

كارنينا) لتولستوي، و(البؤساء) لهوغو، و (زوربا) لكازانتزاكي.. رحلة متطاولة من الشغف بعشق الكلمة التي تنبض بكل ما هو مؤثر وجميل ومشحون في هذا العالم..

(٣٨)

التقنيات الحديثة تلاحقنا بحصارها.. بضرورات اللهاث المحموم لتلبية طلباتها.. بالركض المتواصل للاستجابة لمطالبها، التي ما تلبث أن تنفجر عن المزيد..

نحن جيل كتب علينا أن نعايش زمنين.. زمن الحياة الهادئة المنسابة ذات الإيقاع البطيء.. وزمن الحياة السريعة ذات القفزات الأسطورية المدهشة في عالم الاكتشاف والبحث عن الجديد.. لقد أرهقنا هذا التحوّل الفجائي من حالٍ إلى حال، وجعلنا نتحسر على الزمن الماضي، ونعض على فواته أصابع الندم.. ولكن هيهاتَ، فها هي مطالب الحياة الجديدة؛ بتقنياتها الأسطورية المتلاحقة كالسيل، بكشوفها المدهشة التي لا تنقضي، تنقض علينا وترغمنا على مسايرتها، وإلا تعرضنا للضياع!

وعلى ما في التقنيات الحديثة من مكاسب كبرى، أبرزها - ولا ريب - الحصول على المعلومات بسرعة قياسية، ووضع مكتبات بكاملها بين يدي الباحث والقارئ وهو جالس في بيته.. وتحقيق التواصل السريع بين الأمم والشعوب، ومنحهم المتعة والفرح والسعادة.. إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون أحد جانبي الصورة.. الجانب المضيء.. أما الجانب الآخر المعتم، فهو فتح الأبواب على مصاريعها لسرقة أتعاب الآخرين، ولتحويل أجيال الباحثين من طلبة الدراسات العليا إلى عالة تسرق جهود من سبقهم، وإلى أنصاف أميين لا يعرفون كيف يتعاملون مع الكتاب، وحكمها بالإعدام على العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية، بوضعها في يد كل واحد منهم جهازاً ينكب عليه الساعات الطوال، وقد أدار ظهره للآخرين، وانفصل بالكلية عنهم..

ترى ما الذي سيأتي به الزمن القادم؟

(٣٩)

أعشق عالم الطفولة، ذكرياتي عنها تمثل منجماً خصباً من الفرح والغبطة والسعادة والاكتشاف اليومي المتجدد، وخلو القلب من المتاعب والمنغصات والهموم.. وكلما ضيّقت عليّ الدنيا أبواب التحرر والخلاص، وجدتني أهرع إلى ذكرياتي عن عالم الطفولة استمد منه السلوى والعزاء..

والآن، فإن هذا العشق انتقل بالضرورة إلى أحفادي.. أنتظر مجيئهم إلى دارنا في نهاية كل أسبوع.. يصعدون بخفة ونشاط إلى مكتبي في الطابق الأعلى، لكي آخذهم بالأحضان، وأطبع على خدودهم الطرية قبلاتي الحارة، ثم لأعرض على كل واحد منهم الأقلام الملونة والأوراق لكي ينبطحوا أرضاً، وينهمكوا بالرسم، ثم ما يلبثوا أن يتقدموا إلي بنتاجهم الرائع لكي أبدي رأيي فيه، ويغادرون مكتبي وهم سعداء!

عائشة وطارق وسما ونور وعادل ورفيدة، هذا هو حصادنا الموعود من ابنتيّ مها وعلا.. ولكل واحد منهم في قلوبنا مكان.. فيا الله على عالم الطفولة، وبراءته.. يا الله على أقدار الله التي تصوغ بقدرتها المطلقة استمرارية الحياة وتواصل الأجيال..

(٤٠)

رحمك الله يا أبي الغالي.. لقد كنت بحق ليس أباً فحسب، ولكن مربياً وأستاذاً.. لقد منحت أبناءك هامشاً واسعاً من الحرية وأنت تراقبهم من بعيد.. ومع الحرية، أعطيتهم السعادة والفرح، بما كنت تغدقه عليهم من الهدايا والطيبات، وبما كنت تخرج بهم بين الحين والحين للتجوال في أنحاء المدينة وبراريها الجميلة.. بسماحتك في التعامل معنا كلما تجاوزنا في تصرفاتنا الحدود المرسومة.. ببشاشتك التي لم تفارق وجهك لحظةً واحدةً.. وبعلاقاتك الاجتماعية الواسعة مع كل رموز المدينة وشخصياتها.. بركضك المتواصل لحل مشاكل المأزومين والتعساء.. وبالتزامك المدهش في أداء ما أمرك الله به من العبادات.. بقدرتك الفذة على التحقق بالتوازن بين طيبات الحياة الدنيا، وبين الاستجابة لنداءات الآخرة..

لقد كنت بحقّ أباً ومربياً وأستاذاً.. تعلمنا منك الكثير، وإن كنا قد قصّرنا عن اللحاق بك.. فمن يقدر على اللحاق بالكبار، أولئك الذين عرفوا كيف يتعاملون مع الدنيا في سقفها العالي.. من؟

ومع ذلك فقد بذلنا جهدنا بما نقدر عليه، وكان في ذلك عزاؤنا أيها الراحل الجليل!

(٤١)

جدّتي لأمي كانت نموذجاً نادراً بين النساء.. لكأنها قدمت إلينا من عصر الخلافة الراشدة، ونسائها الفريدات.. لقد فتحت صدرها لكل التعساء والفقراء واليتامى والمحزونين.. كانت تأتي بهم إلى دارها الواسع، وتسكنهم هناك الأسابيع، وربما الأشهر الطوال.. تطعمهم وتكسوهم وتسهر على راحتهم.. وكانت تخرج بين الحين والحين،

مستقلة إحدى العربات التي كانت يومها وسيلة النقل الوحيدة في مدينة الموصل، وهي تحمل أكياس الحنطة والطحين، وأكداس الخبز واللحم، لكي توزعها على الفقراء والمحتاجين.. لم تكن البشاشة تغادر وجهها.. ولم تترك فريضة ولا نافلة إلاّ وأدتّها في وقتها.. وكنا نحن الصغار نأوي إليها، ونحن نعرف سخاءها، لكي تعطينا مما اختزنته الشيء الكثير الذي كان يملؤنا بالغبطة والسعادة.. وعندما يتهددنا الأب، أو الأم، بالعقاب، ما كنا نجد من يحمينا من غضبهم سوى جدتي.. وعندما كانت تطل على بيتنا بين الحين والحين، لكي تبقى الأيام الطوال، كان ذلك بمثابة الفرحة الكبرى لنا نحن الصغار، حيث كنا نسهر في ظلالها الساعات الطوال، وهي تقص علينا جملة من الأقاصيص الشعبية التي كانت تحفظها عن ظهر قلب..

لك الله أيها الجدة الغالية، التي اختارت أن يتوفاها الله في دارنا.. وأنا أجلس عند رأسها أدعو الله سبحانه وتعالى أن يخفف عنها سكرات الموت، فإذا بي أسمعها تردد (من الظلمات إلى النور) (من الظلمات إلى النور).. ثم ما لبثت أن فارقت الحياة، وسيال الدموع ينصب من مآقينا ممتزجاً بفرح يصعب وصفه وهي تتلقى الإشارة بالقبول..

لك الله أيتها الجدة الغالية، التي كانت تؤثرني على كل أحفادها بمحبتها الخالصة!

(٤٢)

ويجيء الدور على أخي الغالي نبيل.. يخترقه الموت في عزّ شبابه، وعلى حين غفلة.. وتلك هي أقدار الله التي لا راد لها، ولله ما أعطى وما أخذ.. لم يكن أخاً فحسب، بل كان صديقاً حميماً، وداعيةً إلى الله من طراز فريد.. وكان فوق هذا كله كاتباً وأديباً.. وكنا نجتمع بين الحين والحين لكي نتباحث في شؤون الدعوة والفكر والأدب، وفي مطالعاتنا النهمة التي لا ترتوي.. وفي تبادل الهموم والأحزان.. بل إننا كنا نقضي الساعات الطوال في اللعب، متخففين بذلك من هموم الحياة اليومية ومطالبها التي لا تنتهي.

التقيته عند بوابة جامع الملاح في الحي الذي نسكن فيه.. لحظته يعد أحد الطلبة بأنه سيسعى لحلّ أزمته.. وما لبث أن غادر المكان عائداً إلى البيت، بينما اتجهت أنا إلى بيت عمي لتناول الغداء، وهناك نادتني زوجتي وهي تحبس دمعتين تريدان أن تنطلقا من أسر الأهداب قائلة: إنك يا عماد مؤمن بالله، وها هي ذي أقداره تضعنا في قلب الفراق.. أخوك نبيل.. وما لبثنا جميعاً أن اجتاحتنا موجة من البكاء الحار.. وهرعت إلى دار الأهل، لكي أطبع على جبين أخي وصديقي قبلة الفراق، وأنا أردد: رحمك الله أيها الأخ

والصديق، لقد تركت في قلبي فراغاً أحس أن بمقدوري أن أضع قبضة يدي فيه.. لقد كان بحق فراغاً كبيراً!

(٤٣)

كثيرون من أخوتي، وأصدقائي، وأعمدة الدعوة إلى الله، رحلوا عن الدنيا.. الواحد أثر الآخر.. أحصيتهم يوماً، فإذا بهم قد تجاوزوا المائة عدداً.. رحلوا وتركوني وحدي!

كثيرون ملأوا، بكدحهم ونشاطهم في خدمة هذا الدين، المساحات الواسعة من حياتهم الخصبة ذات العطاء السخي الوفير..

كثيرون ممن كنت التقيتهم بين الحين والحين، أو يجيئون لزيارتي، لكي أتبادل معهم الرأي في هموم الدعوة والعمل والفكر والحياة.. وها أنا ذا أنفض يدي منهم.. لقد رحلوا وتركوني وحدي..

عمّن أتحدث؟ وكيف لي عبر أسطر معدودات، أن أوجز سفر كل واحد من هؤلاء الذين ملأوا الدنيا بعطائهم وفكرهم وإبداعهم وجهدهم اللاحب في الدعوة إلى الله؟ ومن ثم سأجدني مرغماً للكف عن التفاصيل والاكتفاء بطرح بعض الأسماء التي كانت أشبه بالقناديل المشتعلة في ليل الزمن المعتم، فعرفت كيف تضيء السبيل للمدلجين في الظلمات: الشيخ الدكتور فيض الفيضي، خالد عثمان، رعد الحيالي، الدكتور حازم عبد الله، الأستاذ غانم حمودات، عمر الصيدلي، سالم عبد الرزاق، الدكتور حازم طه، الأستاذ سعيد الديوه جي، نكتل كشمولة، يحيى علي، ثامر عزيز، الدكتور عدنان السلمان، الأستاذ عبد الحافظ سليمان، محمد الحسناوي، إبراهيم عاصي، الدكتور جمال عطية، الدكتور عبد الحليم عويس، الدكتور إسحق فرحان، الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني، كمال رشيد، أديب الدباغ، أورخان محمد علي، الدكتور عمر الساريسي، الدكتور عبد اللطيف عربيات، فاروق نبهان، وغيرهم كثيرون.. كثيرون جداً..

ودائماً أقول في نفسي، معزياً إياها: لقد سبقتموني إلى هناك، فهل ستأخذون بيدي عندما تحين ساعة الرحيل إلى الله؟ هل ستأخذون بيدي؟!

(٤٤)

رحلة الحياة الدنيا لا تعدو أن تكون سلسلة متلاحقة من الأفراح والأحزان، من الأفعال وردودها، من المباهج والحسرات، من الانتصارات والهزائم، من النور والظلمات.. ولن يكون لأحد - كائناً من كان - أن يفلت من قبضتها التي تطبق على حياته من بدئها

حتى منتهاها.. هكذا أريد للإنسان أن يكون، وإلا فقدت الحياة طعمها وعذوبتها.. وإلا أصبحت شيئاً مسطحاً مكروراً لا لون له ولا طعم ولا رائحة.

إن الآيتين القرآنيتين الكريمتين تختصران هذه المعادلة التي كتب على الإنسان أن يدخل أسارها الذي لا مهرب منه: {**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**{٥} **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**{٦} (سورة الشرح: الآيتان ٥-٦)، وهكذا وعبر مئات الصيغ، وربما ألوفها، يتكرر هذا الالتحام المكتوب على بني آدم بين اليسر والعسر.. إنها - بحق - رحلة عجيب أمرها، هكذا يتساءل الناس، ولكنهم لو أنهم أدركوا ما وراء المنظور، وأوغلوا عميقاً في اكتشاف سرّ الظواهر والأشياء التي تحكم الحياة، لما قالوها، ولأعلنوا قبولهم إياها، لأنهم بذلك فقط سيدركون مغزى الحياة التي أريد لها منذ البدء أن تكون هكذا.. ولأحسوا حتى أعمق طبقة من وجدانهم، بأن السعادة الحقيقية، الفرح العميق، التوافق والانسجام.. لن تتحقق ويشعر الإنسان بطعمها العذب، إلا بعد أن يجتاز سلسلة من الخبرات الصعبة، التي يجيء بعضها مراً كالعلقم، قاسياً كالجليد المتجمد منذ مئات السنين!

(٤٥)

لو أننا فكرنا قليلاً بطبيعة المتع التي كتب علينا أن نتلقاها ونتعامل معها في حياتنا الدنيا.. لو أننا أوغلنا قليلاً في ملاحقة عمقها الحقيقي.. لو أننا قسناها بالزمن الطويل نسبياً الذي كتب لكل واحد منا، لوجدناها لا تعدو أن تكون لحظات من عمر الإنسان.. لحظات سريعة الانصرام، ما تلبث بعد أن تخفق مرة ومرتين أن تغيب عن العيان.

أكثر من هذا.. هل فكر أحدنا في أننا، ونحن نتناول الطعام كواحد من المتع المباحة في حياتنا الدنيا، نسارع في التقامه وكأننا في سباق مع الزمن من أجل الإجهاز على آخر لقمة فيه؟ هل فكر أحدنا في مساحة اللذة القصوى، ما تسميه كتب الجنس بالذروة، كيف أننا نريد أن نختزلها اختزالاً، وكأن هناك فوق رؤوسنا من يسوقنا لكي نقطف الثمرة الحلوة سريعاً.. سريعاً قبل أن تتيبس وتذبل وتنحسر؟! هل فكر أحدنا، ونحن نقضي الساعات الطيبة عبر هذه الأمسية أو تلك، أو خلال هذه الرحلة أو المناسبة الترفيهية، أو الاحتفالية، أو تلك، كيف أنه ينظر إلى ساعته، بين لحظة وأخرى، وكأنه يستعجل عقربها باللف والدوران، لكي يؤول في نهاية الأمر إلى نهاية المناسبة، كأنه يتمنى لو تجيء سريعاً؟!

فما من متعة، ما من لذة، ما من فرصة لإشباع النفس البشرية من الرغبات، إلا وتجيء مقترنة بهذه الرغبة في الاختزال.. في الوصول السريع إلى نهاياتها، في انطفائها في

نهاية الأمر.. فما الذي يدل عليه هذا، إن لم تكن حياتنا قد عجنت بالسرعة والعجلة، والرغبة المؤكدة في الإتيان السريع على المتع والملذات؟

ألا يدل هذا على تفاهة هذه الحياة، وأن علينا أن نضعها تحت أقدامنا بدلاً من وضعها على رؤوسنا؟ ألا يدل هذا على الفارق الكبير بين هذه الحياة وبين الحياة الأخرى.. الحياة الأبدية التي تتطاول فيها المتع والملذات الروحية والفكرية والجسدية، وتتطاول حتى لتبدو ألاّ نهاية لها على الإطلاق!؟

(٤٦)

الحقد والمحبة.. الكراهية والسماحة.. البغضاء والألفة.. الإثرة والإيثار.. الشح والسخاء.. الجبن والشجاعة.. التردد والإقدام.. الشد والاسترخاء.. القلق والانسجام.. النفور والتوافق.. الخوف والاطمئنان.. ولو شئت أن أمضي في استعراض الثنائيات التي تمسك بتلابيب الإنسان، لعجزت عن الإحصاء..

وتلك هي مرةً أخرى وثانية وثالثة وعاشرة، رحلتنا جميعاً مع الحياة الدنيا، التي وضعتنا – شئنا أم أبينا – قبالة هذه الحالة المزدوجة، التي تسحبنا إحداها إلى القعر، وتمضي بنا الأخرى إلى السماء!

والرجل الرجل هو الذي يبذل أقصى ما يقدر عليه من جهد لكي يقاوم، لكي يحول حياته إلى جهاد صعب من أجل أن يتجاوز كل عوامل الشد وإغراءاته، يتفوق عليها، ويمضي مصعداً إلى السماء..

الرجل الرجل هو الذي يكافح من أجل مدّ مساحات الإيجاب في حياته، وتضييق الخناق على مساحا ت السلب.. فمن يدري لعله يخرج منتصراً في المعركة، فيكون بذلك قد حقق انتصار خفقة الروح في كيانه، على شدّ الطين ولزوجته وعتمته!

من منا لم يحاول اجتياز هذا الخندق العميق بين الحالتين؟ ومن منا لم يتعذب وهو ينزلق صوب القاع والظلمات؟ ومن منا لم يحس بالفرح الذي يجل عن الوصف، وهو يجتاز قوى الشدّ، ويمضي مصعداً إلى فوق.. إلى سماء الله الكبيرة، وفضائها الواسع.. من؟

تلك هي - بإيجاز شديد - رحلة حياتنا الدنيا، وعلينا أن نتعلم من مغزاها، وإلا فهو الخسران المبين.

(٤٧)

طبعت نفسي على علاقة نادرة بالطبيعة.. على صداقة حميمة بالجمال.. على ألفة متميزة بكل ما يخفق في هذا العالم، مومئاً بلغته الخاصة، بالمدهش والمثير.. انعدم فاصل الألم بيني وبين العالم، وأصبحت جملتي العصبية مكشوفةً تماماً لأية لمسة، لأي نداء، لأية همسة من همسات دنيا لا تكف عمّن يحسن الإصغاء إليها، عن تقديم أطباقها الشهية التي ما لها من نفاد!

ألفة ميتافيزيقية، إذا شئتم أن تسمونها، تدخلك في حوار دائم مع الملكوت.. تضعك في كل لحظة إزاء معطياته المتدفقة كالشلال، لكي تقودك ليس إلى إشباع أحاسيسك المتلهفة للجمال، بل إلى ما وراء ذلك كله، إلى الله - جلّ في علاه - الذي ما تنفد كلماته حتى لو استمد حبرها من بحار الدنيا السبعة.. تتجدد وتنبعث وتعدو وتومئ بالعطاء، وتقول لك بلغة الألوان، والكلمات، والكتل، وعوالم النبات والحيوان.. بأنه ليس ثمة إلا الله، وأن لا إله غيره - جلّ في علاه -..

من أجل ذلك دخلت عبر حياتي كلها، من أقصاها إلى أقصاها، في حوار يومي دقيقةً بدقيقة، ولحظة بلحظة، مع الكائنات.. مع كل ما ينبض بالعشق والمحبة في هذا الوجود.. وتقلبت مع كلماتي، وأنا أعاني الدهشة والغبطة والفرح، فانعكس ذلك في أعمالي كافةً؛ قصيدةً وقصةً وروايةً ومسرحيةً ورحلةً وسيرةً ذاتية.. بل إنه مضى لكي ينعكس حتى في أعمالي الفكرية والتاريخية والفلسفية.. لقد تغلغل الإحساس بالجمال في بنيتي، وساقني إلى ما يريده هو.. إلى سماء الله الكبيرة التي تنبض في كل آنٍ ولحظة بألف نداء ونداء.. وأن علينا أن نستجيب إذا أردنا فعلاً أن نكون أكفاء إنسانيتنا التي منحنا الله إياها.. جلّ في علاه..

(٤٨)

ليس ثمة ما يبقى في هذا الكون والعالم سوى الله.. الكل ذاهب.. الكل آيل للضياع.. الكل سيكتسحه الفناء.. ولكل مشروع مفتوح لتقبل الموت والغياب.. ولا يبقى ثمة إلا وجه الله: {**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ{٢٦} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ{٢٧}** (سورة الرحمن: الآيتان ٢٦-٢٧)..

ما من دولة، أو مملكة، أو حضارة، إلا وجرى عليها القانون نفسه، أمسك بخناقها، وساقها إلى التفتت والزوال.. ما من إنسان، كائناً من يكون؛ زعيماً أو ملكاً أو معبوداً أو قائداً تعبده الجماهير وتضع رؤوسها تحت قدميه، إلا وتلقى مطرقة الموت، فما لبث أن غاب عن الدنيا.. ما يبدو الآن للوهلة الأولى من تقدم أسطوري في التكنولوجيا والخدمات

والبناء، والعمارات الشاهقة التي تناطح السحاب، والأبراج الهائلة، والشوارع الفسيحة، والمتنزهات الفارهة، والمصانع العملاقة، والأجهزة المدهشة.. أنه باق إلى الأبد.. وأنه ماضٍ إلى مزيد من التمخض والإبداع والتنامي.. فإن كلمة الله سبحانه وتعالى ستكتسحه عبر لحظات من عمر الزمن.. ستكنسه من الطريق، وتسوي به الأرض، لكي لا يبقى بعدها سوى وجه الله سبحانه وتعالى.. سوى كلماته التي لا راد لها - جلّ في علاه -: {**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً**}(سورة الفرقان: الآية ٢٣)، {**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**{٧} **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً**{٨} (سورة الكهف: الآيتان ٧-٨).. الكل باطل الأباطيل، وقبض الريح: {**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**}(سورة يونس: الآية ٢٤)..

الدول والممالك والإمارات والحضارات.. الأشخاص والزعماء والأرباب والطواغيت.. العمالقة والأقزام.. الكل ذاهب، ولا يبقى سوى وجه الله.. لا يبقى ثمة سوى وجه الله سبحانه وتعالى!

(٤٩)

يعجبني أن استرجع شريط ذكرياتي بين الحين والحين، ليس فقط لكي أهرب من واقعي القاسي، وأستمتع باستراجاع وقائع ومعطيات الزمن السعيد، ولكن أيضاً لكي أتعلم منه.. فليس ثمة معلم كحياة الإنسان نفسها، وهي تتقلب وتموج وتضطرب وتتحول من حال إلى حال.. أهرب إليها كلما ضاقت بي السبل، وسدّت أمامي طرق الخلاص، فأجد فيها السلوى والعزاء، وأتمنى لو يتاح لي أن أرجع ثانيةً لكي أعيش بعض حلقاتها؛ بكل ما انطوت عليه من سعادة وبهجة وفرح ودهشة وانسجام ورغبة في اكتشاف سر الأشياء، ولكن هيهات.. وأقول في نفسي: لا بأس، فإن مجرد تذكرها عبر لحظات الشيخوخة.. مجرد استرجاع وقائعها ومفرداتها وخفقانها، كما تشكلت بالفعل، قد يحقق شيئاً من المطلوب.

يوماً بعد يوم أجد خلاصي في استرجاع شريط ذكرياتي.. حيناً مع حشود الأصدقاء والمعارف الذين رحلوا عن الدنيا.. وحيناً مع الكتب والروايات التي كان لكل واحدة منها طعم في فمي ووجداني لا يمكن أن أنساه.. وحيناً ثالثاً مع رحلاتنا العذبة الشهية إلى براري الموصل زمن الربيع.. وحيناً رابعاً مع جملة من المفارقات والغرائب زمن دراستي الابتدائية أو المتوسطة أو الإعدادية أو الجامعية.. وحيناً خامساً مع أسفاري إلى خارج العراق، بكل ما انطوت عليه من خبرات وتفاصيل.. وحيناً، وحيناً.. وفي أعقاب كل جولة مترعة من هذه

الجولات، التي لا تندّ مفرداتها عن ذاكرتي التي احتفظت بها كشيء عزيز.. أرجع، وقد استعدت الكثير من فرحي وتوازني وانسجامي مع الحياة، وكأنها قد بعثتني من جديد!

(٥٠)

تعرّضت للموت، ليس مرةً واحدةً، أو مرتين، أو ثلاث، وإنما عشرات المرات، وكنت أخرج من كل واحدة منها وأنا أحمد الله وحده على أن منحني - بسخائه العجيب - فرصة الاستمرار على الحياة!

عشرات المرات وجدتني قبالة الموت وجهاً لوجه، لكي ما ألبث أن أفلت من قبضته في اللحظة الأخيرة، وأواصل الحياة!

عشرات المرات ويد الله القدير - جلّ في علاه - تمتد لكل تنتشلني من الهلاك المحتوم، وأقول في نفسي: ما الذي يدل عليه هذا سوى أن إرادة الله سبحانه وتعالى تحيط بهذا الإنسان أو ذاك، فتحرسه وتحميه وتنقذه من السقوط في مستنقع الموت؟!

ربما.. ومن يدري؟ لأنه شاء سبحانه وتعالى أن يمدّ في حياتهم لغرض ما، غرض قد لا يتكشف بسهولة لعيوننا التي علاها الغبار، وقلوبنا التي أكسدها الصدأ.. ولكنه شيء مؤكد طالما دفعني إلى بذل مزيد من الجهد في الكتابة والتأليف، لعلّي أفي بشيء من الدين الذي طوقتني به عناية الله.. ومن أجل ذلك.. من أجل أن أكون وفياً مع سخاء الله، أممت حياتي كلها، عبر جهد مكافح موصول، وأنا أعاني الآلام والأوجاع، وتحاصرني موجات قاسية من ضيق النفس الذي يسد عليّ منافذ الهواء، أكافح عبره لالتقاط رشقة واحدة من الأوكسجين الذي يمكنني من مواصلة العمل..

وها أنا ذا أخيراً، بعد أن أوشكت بلوغ الثمانين من عمري، لا تكف يدي عن الإمساك بالقلم الساعات الطوال، لكي تنجز الكتاب رقم مائة في سلسلة أعمالي التي لا أبتغي بها سوى أن تكون وفاءً للدين الكبير في عنقي، ذلك الذي طوقني به الله - جلّ في علاه -.. وهو ينقذني من واقعة الموت المرة تلو المرة؟

فهل يكون جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

وألا أكون وفياً معك يا من لا إله إلا أنت؟!❐

بصراحة

حتى متى يدوم الظلم السياسي؟

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

للظلم أنواع، ولكنَّ الأخطر منه هو (الظلم السياسي) الذي بدوره يؤثر كثيراً على كل مفاصل الحياة في المجتمع، بدءاً من الفرد، مروراً بالأسرة، ووصولاً إلى مساحة المجتمع برمته.

يجب ألّا ننسى أن (الظلم السياسي) - مع معطياته الخطيرة على كيان الدولة والمجتمع - لا يمارس فقط من قبل فئة سياسية متسلطة على زمام الأمور، في جغرافية معينة، في أي بقعة على وجه المعمورة، دون أن تكون له أياد مساعدة داخل مكونات المجتمع المختلفة.

والمراد بـ(الفئة السياسية) هنا هي: الأنظمة الحاكمة في بلداننا، وطبعاً تتغير صور هذه الأنظمة الحاكمة في محيطنا من مملكة إلى أخرى، ولكن المهم هنا هو أن هذه الفئة السياسية لم يكن بمقدورها وحدها أن تفعل ما تشاء من الظلم والجور والطغيان، دون مشاركة ومساندة ومباركة جزء كبير من البيئة التي تحكم فيها.

عليه، إن الظلم عموماً، والظلم السياسي على وجه خاص، لا يدوم حتى لفترة وجيزة، إذا رفع المظلمون أصواتهم ضده، وقالوا للظالمين: قفوا عن ظلمكم، وكفوا عن الطغيان والجبروت والجور.

بمعنى آخر، حينما نقرر ألا نكون جزءاً من أجندة الظالمين؛ بصمتنا، ومواقفنا الداعمة لهم، بأي نوع كان، حينئذ تبدأ بداية نهاية ظلمهم، ويضع الله حدوداً لهم، ويحذرهم من مصيرهم الحتمي، وهو هلاكهم من قبل الخالق - عز وجل - ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، يونس: ١٣

يتعهد الخالق بهلاك الظالمين، كما أهلك الذين من قبلهم حينما ظلموا (في الماضي)، أي يحسم أمر الظالمين من قبل الخالق - عز وجل -، ويحدد مصيرهم بهلاكهم حتماً.. ما يبقى هنا هو: فترة ظلمهم، إلى متى، وكم تدوم؟

الإجابة تقع على عاتق الذين يحكمهم الظالمون، فعندما يقررون أن يوقفوا ظلمهم، فسيقف يقيناً، ويروا وعيد الله بهلاكهم.. وحينما يختارون الصمت، ويساندونهم، بمواقفهم المتخاذلة، فوقتئذ عليهم أن يدفعوا الضريبة، وأن يكتوا بنار الظالمين، إلى أن يظهر جيل منهم، ويصرخ بوجه الظالمين، ويرفض العيش في الظلمات، والظلم السياسي على وجه أخص ❐

- نظرية ما بعد الاستعمار / ٢	عبدالله خوراني

نظرية ما بعد الاستعمار

إرهاصات اليقظـة الإنـسانيـة

في الفكـر والأدب

الجزء الثاني

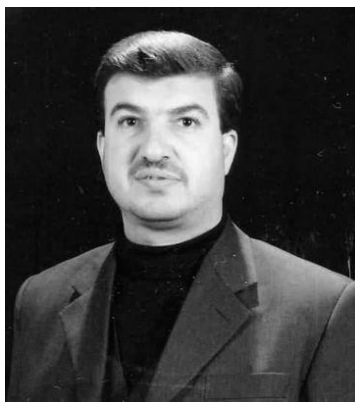

عبدالله خوراني

✍ التهجين Hybridation/ Hybridization

هذا المصطلح أو المفهوم مـن أكـثر المصـطلحات المسـتخدمة عـلى نطـاق واسـع والمثـيرة للجدل في نظرية ما بعد الاستعمار، وتعتبر المفهوم المعبر المؤثر الأقوى لإثارة وخلـق أجـواء مناقشة الباحثين والأكاديميين لقضايا ما بعد الاستعمار، وهو أحـد أكـثر المفـاهيم تكـراراً في النقد الثقافي لما بعد الاستعمار. مشتق من مجال علم الوراثة، وهو ما يعنـي الاخـتلاط بـين عرق وآخر، وفي دراسات ما بعد الاستعمار تدل على انصهار الثقافـات عـن طريـق تفكيـك المركزية الأوروبية، بعيداً عن الفكر والتصور الغربي.

أصبح التهجين موضوعا رئيسيًا في العديد من مجالات البحث والنظرية والنقد الثقافي. بينما يرى البعض التهجين موقعًا للنضال الديمقراطي والمقاومة ضد الإمبراطورية، بينما هاجمها آخرون على أنها خطاب استعماري جديد متواطئ مع الرأسمالية العابرة للحدود، متخفيًا في زي النظرية الثقافية. كان التهجين أيضًا هدفًا للهجمات التي تزعم أن المفهوم يعكس حياة منظريها، أكثر من المواقع والمجتمعات التي يكتب عنها هؤلاء المنظرون. الجدل الحاد الذي يدور حول التهجين هو أحد أعراض الجدل المحتدم حول الإمكانات السياسية، والفائدة المعرفية لنظرية ما بعد الاستعمار، بشكل عام. ولم يكتسب التهجين مكانة بارزة في وسائل الإعلام الدولية، ودراسات الاتصال، إلا مؤخرًا.

الكاتب (هومي بهابها) هو الناقد المعاصر الرائد الذي حاول الكشف عن التناقضات المتأصلة في الخطاب الاستعماري، من أجل إبراز تناقض المستعمر فيما يتعلق بموقفه تجاه الآخر المستعمَر. إن الوجود البسيط للآخر المستعمَر داخل الهيكل النصي، هو دليل كاف على ازدواجية النص الاستعماري، وهي ازدواجية تزعزع استقرار مطالبته بالسلطة المطلقة، أو الأصالة التي لا جدال فيها. أدرك (بهابها) بعد ذلك أن القوة الاستعمارية تضع بعناية استراتيجيات متطورة للغاية للسيطرة والهيمنة. أي، على الرغم من إدراكها لسرعة الزوال، فإنها حريصة أيضاً على إنشاء الوسائل التي تضمن قدرتها على التحمل الاقتصادي والسياسي والثقافي، من خلال المفهوم، على حد تعبير (ماكولاي) في (محضر عن التعليم الهندي) (١٨٣٥)[١٦٢].

يجادل (بهابها) بأن التهجين يفسد سرديات القوة الاستعمارية، والثقافات المهيمنة. يتم تفكيك سلسلة التضمينات والاستثناءات التي تقوم عليها الثقافة المهيمنة من خلال دخول الموضوعات المستبعدة سابقًا في الخطاب السائد. الثقافة السائدة ملوثة بالاختلافات اللغوية والعرقية للذات الأصلية. وهكذا يمكن النظر إلى الهجينة، في تفسير (بهابها)، على أنها سرد مضاد، ونقد للقانون، واستبعاد للروايات الأخرى. بعبارة أخرى، يريد أتباع التهجين أن يشيروا أولاً، إلى أن تناقض الخطاب الاستعماري هو توضيح واضح لعدم اليقين فيه. وثانيًا، أن هجرة (المتوحشين) بالأمس من مساحاتهم الطرفية، إلى منازل (أسيادهم)

[١٦٢] Mssu.edu/project southasia/history/primarydocs/education/Macaulay001.htm. [2]

[2]scholarblogs.emory.edu/postcolonialstudies/2014/06/21/mimicry-ambivalence-and-hybridity

تكمن وراء غزوة مباركة، من خلال (العالم الثالث)، يخلق المركز (شقوقًا) داخل الهياكل التي تدعمه. ومن ضمن منظومة الحضارة الغربية، هناك التفكير المستمر، ومراجعة الأفكار، و الممارسات السابقة، وإبداء الملاحظات، وانتقاد كل شيء سلبي لتطوير المنظومة المعرفية الغربية، وهذا يجعلنا نعترف بأنه على الرغم من كل الملاحظات المسجلة ضد النظام الغربي، في مستوى حقوق الإنسان، والانتهازية، والأخلاق الاستعمارية البشعة، فإن النظام الغربي لديه دائماً هيكل فكري لاستعراضه، وتصحيح الأخطاء والنقد. ويعترف بالممارسات على المستوى النظري، الذي يرجع إلى التوجهات الفكرية والأكاديمية ونظام الحياة، مما يجعلها تنتقد السلطات السياسية الحاكمة، واستعراض الجرائم الاستعمارية دون الإضرار بشرفهم.

ويذكر أن معظم المثقفين الذين ينتمون إلى نظرية ما بعد الاستعمار هم من غير الأوروبيين: فهم من دول العالم الثالث في آسيا وأفريقيا الذين عاشوا في الغرب، وتعلموا في الجامعات، واستمروا في البقاء في المجتمع الغربي، حيث لم يعودوا إلى بلدهم، ويمثلون موقف المهمشين، المهاجرين المنفيين، لديهم قلم وصوت لتمثيل المستعمر، يحملون ثقافة الدول الشرقية، ويكتبون باسمها، لكنهم لا يعيشون معها، يعملون على تفكيك خطاب المستعمر، لكنهم يخاطبون الطبقة الواعية المستعمرة. الغرب، من وجهة نظرهم، هو الكيان الحر، والفكري، وفي الوقت نفسه هو المستعمر الطاغية.

التهجين يعني لقاء العقول، والمزج، والاستنساخ، وهذا ما حدث في الواقع، من قبل الكتاب والمثقفين الذين يعيشون في الغرب، ويبتكرون باللغات الغربية، وفقاً للأشكال الأدبية، والجوانب المعرفية، في إطار مؤسساتهم التعليمية، بل في إطار أخلاقيات فلسفاته عن الإنسان، والعالم، وحقوق الإنسان، وثقافة المجتمع. تمزقت البلدان والشعوب من قبل المستعمرين الغربيين: فرنسا، وإنجلترا، وبلجيكا، وإيطاليا، والولايات المتحدة، وتتحدد حدودها بحدود المستعمرين الذين قسموا المستعمرات فيما بينهم. تبعثرت الخطوط، ولسوء الحظ، استمرت هذه البلدان في النظر إلى الاستعمار على أنه تمدين، وأنه النموذج الذي يجب اتباعه[١٦٣].

النموذج الغربي لم يعد نقياً، ويقتصر على شعوبه، وثقافاته، ولكنه أصبح مزيجاً من مجموعة متنوعة من المراجع والتواريخ والموضوعات. وأهم سمة في العقود الأخيرة هي ميزة التهجين. هل هي علامات على تفكك المركزية الغربية في المجال الثقافي؟ على سبيل

[١٦٣] د. جمعة، مصطفى عطية، المفاهيم المؤسسة لآداب ما بعد الاستعمار.

المثال، إذا نظرنا إلى مبتكري الأدب السردي الغربي في الواقع المعاصر، نلاحظ هيمنة كبار الروائيين من ثقافات ليست غربية، حيث إنهم انطلقوا في كتاباتهم من مراجعهم الثقافية المحلية، وكتبوا عن الموضوعات المتعلقة بالعلاقة مع الغرب، والاستعمار، والتفسيرات الدينية، والهوية، وإعادة تفسير التاريخ.. روايات ومئات المواقع على شبكة الإنترنت مليئة بأفكارها، ولها مجلات خاصة رفيعة المستوى، بل هناك دور نشر كبيرة تقتصر على جهودها الثقافية. وتؤكد العديد من الدراسات الاستكشافية أن أفكارها ومناهجها تجتاح الجامعات في أمريكا وأوروبا، بعد الفكر القديم البارد، الذي ينافر الروايات الغربية، وحركات التحرير والمقاومة، وقضايا حقوق المرأة. هناك قائمة طويلة من هذه، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر: أمين معلوف، كازو إيشيغورو، طاهر بن جلون، محمد ديب، نيبال، شينوا أجابي، نور الدين فرح، غوران، أمين الزواوي.. إلخ.

التهجين يهتم بمشاكل تمثيل (الآخر) في الأدب، وكذلك في الأوساط الأكاديمية. يجادلون بما أنه لم يتم ترك أي ثقافة بمنأى عن التداول العالمي للناس والمصنوعات اليدوية والعلامات والمعلومات ، فإن الثقافة هذه الأيا م مختلطة بحد ذاتها، وتشكل مكانًا للصراع بين تمثيلات الهوية واختلافها. ومن ثم فإن منظري ما بعد الاستعمار يهتمون بالتحولات والاضطرابات، أكثر من اهتمامهم بالأصول والتجانس، وبالاختلاف أكثر من الهوية. هذا التركيز على القوة التخريبية لـ (الآخر) هو نتيجة، ليس فقط للتحليلات والملاحظات غير البنائية في تاريخ الأدب، ولكن أيضاً من جوانب السيرة الذاتية: بينما ولد سعيد في فلسطين، ولكنه قضى معظم حياته في (نيويورك). انتقل Spivak من (كلكتا) إلى (نيويورك)، وBhabha من (بومباي) عبر (أكسفورد) إلى (شيكاغو).. إن تاريخهم الشخصي يجسد حقيقة أن الثقافات الوطنية، في ظل الظروف العالمية، يتم إنتاجها بشكل مشترك، ومتزايد، من منظور الأقليات.

تعتمد نظرية ما بعد الاستعمار بشكل كبير على أفكار اللغوي والفيلسوف الروسي ميخائيل باختين (١٨٩٥–١٩٧٥) الذي استخدم (الهجينة) بمعناها اللغوي، من أجل وصف شيء خاص في نظريته. بالنسبة له، يحدد التهجين الطريقة التي يمكن بها مضاعفة اللغة، حتى في جملة واحدة، - صوت واحد يكوي، ويكشف الآخر في نفس الكلام. أعطى باختين الهجاء اللاهوتي للقرن السادس عشر (رسائل الرجال المجهولين) مع هجينها اللغوي المعقد من اللاتينية والألمانية كمثال واحد، موضحًا ما أسماه (الإضاءة البينية) للغات. وصلت هذه الإضاءة البينية، وفقًا لباختين، إلى أعلى مستوياتها خلال عصر النهضة، وساعدت في

تحفيز الابتكار والإبداع الأدبيين، وبشكل أكثر وضوحًا في أعمال فرانسوا رابليه، الذي كرّس له باختين كتابًا كاملاً (باختين ١٩٨٤).

ارتبطت فكرة الهجين بمفهومين أساسيين في فكره: (تعدد اللغات)، و (تعدد الأصوات). بينما يشير (تغاير اللغة) إلى تنوع اللغة داخل نص واحد، يتم استخدام (تعدد الأصوات) للإشارة إلى الأصوات المختلفة التي يتبناها الروائيون، مثل دوستويفسكي. أيضاً لحساب التعايش المتزامن لكل من التغيير الثقافي، ومقاومة التغيير في المجموعات.

مع التهجين العضوي، يشير باختين إلى الاختلاط غير المقصود، واللاوعي، والاندماج اليومي لعناصر ثقافية متنوعة، كما هو الحال في اللغة، على سبيل المثال. يمكن أن يكون لهذا تأثيرات مثمرة ثقافياً، لأن الهجينة اللاواعية "تحمل إمكانات رؤى جديدة للعالم، بأشكال داخلية جديدة، لإدراك العالم بالكلمات" (باختين ١٩٨١ ، ٣٦٠). بتطبيق هذا على الثقافة والمجتمع بشكل عام، يمكن للمرء أن يقول إنه "على الرغم من وهم الحدود، فإن الثقافات تتطور تاريخيا من خلال الاقتراضات غير العاكسة، والاعتمادات المحاكية، والتبادلات، والاختراعات"، على حد تعبير (بنينا فيربنر)، وخلصت إلى أنه "لا توجد ثقافة في وعن نفسها" (Werbner ١٩٩٧، ٤- ٥).

على النقيض من ذلك، فإن التهجين المتعمد هو نتيجة استخدام التناقضات، والتناقضات الواعية، في حركة متناقضة، حيث يكون صوت واحد، ضمن خطاب واحد، قادراً على كشف الخطاب الموثوق. في حالة التهجين المتعمد، هناك وجهتا نظر غير مختلطتين، ولكنهما يتعارضان مع بعضهما البعض بشكل حواري، وبالتالي خلق مفارقة ساخرة. الوعي المزدوج، تصادم بين وجهات النظر المختلفة حول العالم.

في التهجين العضوي، يندمج الخليط، وينصهر في لغة جديدة، أو وجهة نظر، أو كائن جديد؛ لكن الهجين المتعمد يضع وجهات نظر مختلفة ضد بعضها البعض، في بنية صراع. باختين يقدم نموذجًا جدليًا مهمًا بشكل خاص للتفاعل الثقافي: التهجين العضوي الذي يميل نحو الاندماج، ويتعارض مع التهجين المتعمد الذي يتيح نشاطًا تنافسيًا، ووضعًا مسيسًا، للاختلافات الثقافية ضد بعضها البعض في حوار [١٦٤].

تكمن مشكلة النظرية المركزية الغربية في طبيعة رؤيتها للثقافات الأخرى، حيث قدمت ما أسمته حقائق عن الواقع الجغرافي والثقافي للشعوب الأخرى، في مناطق أخرى، كدراسات وبحوث من الجامعات، ومراكز البحث العلمي الغربية، محاطًا بمجد علمي كبير،

[١٦٤] Wolfgang Stockhammer Hrsg. Conceptualizing Cultural Hybridization، 2012 ، p 25

مما أدى إلى إنشاء تقاليد، ورسائل بحث، ومعلومات معارضة للواقع، وعرضت في صورة كاذبة، ترضي غرور الغرب، وتجعل الشرق مفتوحًا له، وساحة شرعية لخططه، لاستغلال ثرواته. كان العقل الشرقي المعاصر منشغلا بالحروب والمصائب التي تسببت في ذلك، وأهمل من تسبب فيها، ورسم الخرائط التي أشعلتها.

بمعنى آخر: لقد نسي العقل الشرقي المعاصر ما فعله الاستعمار والغرب، لأنه مشغول بأزماته الداخلية، ومشاكله، والتي إذا فكّر فيها لوجد أن الكثير منها هو نتيجة الكراهية والإرث الاستعماري، الذي زاد من فقر الناس، والشعوب، والأوطان. ولم يكن هناك الكثير من إبداعات هذه الدول التي يمكن ان تندرج ضمن أدبٍ ما بعد الاستعمار، على الرغم من أنها تتعلق بعصر من تاريخنا الحديث، فقد كان شيئًا مسكوتًا عنه، بالرغم من وجود العديد من المؤلفات والمراجع الأدبية التي وثقت الحقبة الاستعمارية المليئة بنهب الثروات والفقر والقتل والتهجير.

التهجين هو حتمية مفاهيمية، والتي تفهم الديناميكيات الثقافية العالمية من خلال التعبير عن التهجين والهيمنة، مما يوفر منصة نظرية أولية لتعددية ثقافية انتقادية.

في الواقع، سعت كتابات الهجرة إلى تقويض ثقافة المركزية الغربية، من خلال طرح سلسلة من الأسئلة المثيرة للاهتمام، ومحاولة تبديد النقاء الثقافي الذي فرضته الهيمنة الاستعمارية. الأمر الذي أدى إلى ولادة فضاء جديد، يسمى فضاء التهجين، أو التهجين الذي ناقشناه سابقاً، حيث ثقافة المركز وثقافة المهاجر في مكان واحد، وهو بلد المركز، والدولة التي توجد فيها. فمدارها الثقافي، ليس الهدف استبعاد ثقافة المركز، واستبدالها بالذاكرة التاريخية للمهمشين، بل تفكيك تلك المركزية، وإضافة تلك الذاكرة التاريخية المهمشة والثقافية إليها، ثم النظر إلى الفضاء الهجين. إنه يخلق مساحة ثالثة، يجب اعتبارها حقائق يجب معالجتها واحترامها.

وكانت النتيجة - في النهاية - وجود العديد من النصوص، تنتمي إلى أدب ما بعد الاستعمار، تعرض للنقاد حالات أدبية جديدة، ومشاكل جديدة، وهياكل مختلفة، وهي: نصوص مكتوبة بلغة الاستعمار، تعبر عن ثقافة الدولة. الشعوب المستعمَرة تتبنى قضايا ما بعد الاستعمار، وتطرح روايات مختلفة عن هذه الدول، تتعارض والمعتقدات الغربية، بل تهزها، وتطالب بمراجعة جذرية لهذه التصورات..

خلقت النصوص أيضًا تعبيرات من ثقافاتهم الوطنية الشفهية والمحلية، فضلاً عن التقنيات الخطابية الجديدة، والصيغ السياسية، وصياغة المصطلحات بأحمال دلالية مختلفة، مما أضاف إلى تقاليد الشفوية الإنجليزية، وجعل اللغة الإنجليزية أكثر ثراءً في

مصطلحاتها، ومختلفة عن دلالات لغة المستعمر الأصلي، وذلك ما يمكن تسميته مقاومة في اللغة.

إنه مصطلح مهم، عندما يقرأ الناس الأدب المناهض للاستعمار بلغة المستعمر نفسه، أو يشاهده مسرحيًا، أو متلفزًا، أو يستمع إلى الراديو، يتم إزالة الرعب من نفسه ضد المستعمر الأعلى المتسامي، الذي يقلل من قيمة المعيار الاستعماري، ويضعه في سياقه المحلي. ويؤدي في النهاية إلى إزاحة المركزية المهيمنة لفكرة المعيار نفسه[١٦٥].

اللـغـــة

أفضت التجربة الاستعمارية إلى بروز ظاهرة ثقافية لم تكن معروفة في التاريخ من قبل، إلا في نطاق ضيق، هي تبني لغة المستعمر وسيلة للتعبير عن مشكلات المجتمعات المستعمرة، فأصبح المستعمر غير مسيطر على تلك المجتمعات، إنما جرى استعارة لغته للتعبير عن البطانة الداخلية لمشاعرها وأحاسيسها وطموحاتها ومشكلاتها وتاريخها، بل وأعيد إنتاج موروث تلك المجتمعات بلغة المستعمر.. ولم يكن استعمال تلك اللغات بريئاً، ولا محايداً، لأنها حاملة للمرجعيات الثقافية والاجتماعية الحاضنة لها.. وأدى ذلك إلى مزاحمة اللغة الأصلية في الشرق الأوسط، وقد تأتى عن ذلك اجتثاث جزء كبير من الذاكرة التاريخية، أو تخريب الوعي بها، فلم تبق مرتكزاً للهوية، و إنما أصبحت عبئاً يذكر بالماضي[١٦٦].

غالبا ما تكون اللغة قضية مركزيًة في دراسات ما بعد الاستعمار. فقد فرض المستعمرون هيمنة لغتهم الأم على الشعوب التي استعمروها، حتى أنهم منعوا السكان الأصليين من التحدث بلغتهم الأم. وقد أشار العديد من الكتاب الذين عاشوا حقبة الاستعمار، كيف أنهم أهانوا الطلاب، وتم إذلالهم، أو حتى ضربهم بسبب تحدثهم بلغتهم الأم في المدارس الاستعمارية. في المقابل تم الفرض المنهجي للغات المستعمرين.

ودعا بعض الكتاب والناشطين، فيما بعد الاستعمار، إلى العودة الكاملة لاستخدام لغات السكان الأصليين. ويرى آخرون أن اللغة (مثل الإنجليزية)، التي فرضها المستعمر كبديل، أكثر عملية، حيث يمكن استخدام اللغة الاستعمارية لتعزيز التواصل بين الدول (على سبيل المثال، يمكن للأشخاص الذين يعيشون في جيبوتي والكاميرون والمغرب وهايتي وكمبوديا

[١٦٥] د.جمعة عطية، إشكالية اللغة في أدب ما بعد الاستعمار للقارة الأفريقية ،2 :2017

[١٦٦] إ دوارد سعيد ودراسات ما بعد الكولونيالية " الاستشراق نموذجاً، أمينة، قدوشي.

وفرنسا، التحدث بالفرنسية) ومواجهة الماضي الاستعماري، من خلال إزالة تشكيل لسان أوروبي (قياسي)، وإعادة تشكيله في أشكال أدبية جديدة [١٦٧].

السبب الأول في مناقشة هذه القضية هو أصل عملية الكتابة، قبل الحديث عن الفرع. الالتزام الأصلي للكاتب هو الإبداع في لغته الأم، لأسباب عديدة، أولاً لأنها اللغة التي تعلمها منذ الصغر، وطريقة تفكيره هي من خلال تلك اللغة، فكل سنين حياته تكون حاضرة في وعيه، إذا أراد أن يكون له تعبير، أو تخيل، باستخدام كلماته، وهياكله، والأرض، وعلاماتها، وأيقوناتها الثقافية، المتعلقة بالكلمات المنطوقة. كما يقال الإنسان يفكر ويتخيل بلغته الأم، ثم يأتي الإبداع على هذا الأساس.

يرتبط التحدث باللغة الأم ارتباطًا وثيقًا بشعور الاستقلالية والكرامة للمتحدث، الذي يختفي عندما يترك الشخص لغته الأم، ويتحدث بلغات أخرى. نمط القيم الذي تمتلكه اللغة له مفاهيمه الخاصة، وقناعاته الفكرية، والجغرافيا، والتاريخ، ودرجات التميز. اللغة نظام يقوم على الخطاب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للحديث عن الشعوب[١٦٨].

تم تناول الجدل النظري والأكاديمي حول اللغة بالتفصيل في *The Empire Writes Back* ، حيث يستكشف (بيل أشكروفت) و(غاريث جريفيث) و(هيلين تيفين) الطرق التي يواجه بها الكتاب لغة استعمارية مهيمنة. يصنفون العملية الى جزأين، يقوم من خلالها الكتّاب في عالم ما بعد الاستعمار، بإزاحة لغة معيارية، يُشار إليها بحرف (e) في (الإنجليزية)، واستبدالها بصيغة محلية لا تحتوي على كلمة دون المستوى، بل تعكس نظرة ثقافية مميزة من خلال الاستخدام المحلي. المصطلحات التي يطلقونها على هاتين العمليتين هي (الإلغاء) و (الإقامة)، أو التزويد:

الإلغاء، هو رفض مقولات الثقافة الإمبراطورية، وجماليتها، ومعيارها الوهمي للاستخدام المعياري أو (الصحيح)، وافتراضها لمعنى تقليدي وثابت (منقوش) في الكلمات.

التخصيص، هو العملية التي يتم من خلالها جعل اللغة "تتحمل عبء" التجربة الثقافية للفرد.. يتم تبني اللغة كأداة، واستخدامها للتعبير عن تجارب ثقافية شديدة الاختلاف.

---

[١٦٧] Scholarblogs.emry.edu/postcolonial studies/2014/06/21/language

[١٦٨] د.جمعة عطية، إشكالية اللغة في أدب ما بعد الاستعمار للقارة الأفريقية ،2 :2017

يحرص المؤلفون على الإشارة، مع ذلك، إلى أن الإلغاء وحده - على الرغم من كونه خطوة حيوية في (إنهاء الاستعمار) للغة المهيمنة - غير كاف، من حيث إنه يوفر خطر عكس الأدوار، ومجموعة جديدة من المعيارية ستحل محلها.

نمو الإمبراطوريات الأوروبية، وهيمنة القوى الأجنبية، كان لها تأثير كبير على الجوانب الاقتصادية، والسياسية، والحياة الثقافية للأشخاص الخاضعين، الذين يعانون من تشوهات جذرية في لغتهم، وقانونهم، ومجتمعهم المدني. في الواقع، التدخل الإمبريالي هو إنكار أساسي للسمات الوجودية للإنسانية.

لكن (فرانز فانون) ذهب إلى اكثر من ذلك، حيث اعتبر أن الاستعمار يفعل أكثر من مجرد حرمان المستعمَر من الاستقلال. الاستعمار، وتوابعه، والعنصرية، تضرب عمقًا أكثر في نفسية المجتمع والفرد. لقد أعاد النظام الاستعماري تمثيل الأعمال الأدبية على نطاق واسع، من خلال استبدال اللغة، مع صورة الاغتراب، والهيمنة، حيث ينظر المستعمر إلى العالم، ولا يرى سوى انعكاس للإمبريالية القوية، التي حلت محل الشعور الوجودي للآخر. المستعمر يمنع بالتالي تشكيل أي أشكال قابلة للتطبيق؛ من الحياة الاجتماعية والثقافية، وذلك من خلال خلق الاعتماد النفسي عليها، وإبراز صور مستبدلة للهيمنة، والدونية.

بعبارة أخرى: يهاجم الاستعمار جوهر الهوية في الشعوب الخاضعة لها، عن طريق إحداث شكل من أشكال المرض العقلي[١٦٩].

وهذا لا يعني أن اللغة الأم هي اللغة المحلية فقط، بل نقصد اللغة الوطنية المعتمدة في بلد المبدع. يتحدث العديدون، في بلدان آسيا وأفريقيا، اللغات المحلية، أو لهجات اللغات الشفوية، ويتعلمون - أيضًا - اللغات المعروفة عالميا، مثل الإنجليزية، أو الفرنسية. ما يهمنا هنا هو فئة الكتاب الذين يتجهون تمامًا إلى الكتابة بلغة أخرى غير لغتهم الأولى. المشكلة تكمن في تبني لغة المحتل الأجنبي، مع كل الانعكاسات السلبية للتجربة الأليمة للاستعمار الأجنبي، وما ارتكبه من ذنوب وخطايا في بلادهم، لها آثارها النفسية والاجتماعية العميقة.

يتنافس هؤلاء الكتاب مع العديد من الرغبات والتوجهات، بما في ذلك الوصول إلى قاعدة أكبر، ودائرة أوسع من القراء والمتلقين، للإثبات للآخرين أنهم قادرون على الكتابة في لغتهم، ويمكن أن يكونوا ممتازين فيها، بل ويتفوقون عليهم. كما أنها وسيلة للتمييز

[١٦٩] The Empire Writes Back (1989)

بين المنتمين إلى الجماعات والأعراق المهمشة والمهيمنة، وربما يكون عرضة للهيمنة والاستعمار من قبل قوميات وقوى أقوى.

فالكتابة باللغة السائدة، في هذه الحالة، تعادل مسألة الانتقام، والانعكاس الثقافي، والانتصار الرمزي للذات. كما أنها مرتبطة بهامش الحرية الأوسع الذي يسعى إليه الكاتب عندما يكتب بلغة غير لغته، حيث يكون مرتاحًا إلى حد كبير، وربما يتنصل منها تمامًا، بسبب قيود المحرمات والنواهي التي تفرضها عليه لغة شعبه، والتي قد تكون مرتبطة بالقيم والأعراف ونظام ثقافي لا يتسامح مع التعبير الذي يذهب إلى المدى الطويل في ممارسة حريته دون قيود [١٧٠].

في الحالة الهندية، كان صعود الإمبراطورية البريطانية مصحوبًا بمناخ فكري واحد كان قائمًا على تطور إمبراطورية لم تغرب فيها الشمس، وتعتمد كليًا على تطوره حصراً دون الأخرين. على مستوى الدعاية، تم الاعتراف بوحشية وبدائية الشعوب المستعمَرة كقيم جديرة بالإصلاح من قبل المستعمر الأبيض. لذا، فإن فرض لغة على المستعمَر كان جزءًا من المشروع الإمبريالي، الذي يسعى - بنشاط - للسيطرة على هذه الذات تمامًا، والنظر إلى اللغة المحلية كلغة مسيئة، أو لغة أفظع المستعمرين. تتمثل الخطوة الأولى في تدمير الثقافة، في منع السكان الأصليين من التحدث بلغتهم الخاصة، كما هو الحال في أستراليا مع السكان الأصليين، لأنها تؤدي إلى فقدان التاريخ الشفوي، والأسماء، والارتباط بالأرض[١٧١]. (هيلين جيلبرت ، جوان تومكينز ، ١٩٩٩: ٢٢٩)

هنا نلاحظ شيئًا مهمًا عن اللغة الإنجليزية نفسها في بريطانيا ، حيث بدأوا ينظرون إليها كلغة عالمية: لغة التفوق والعلم والحضارة ، ثم قاموا بتسويقها لشعوب الأرض بهذه الطريقة، بما يتوافق مع الدعاية الاستعمارية. هناك صلة واضحة بين الفترة التاريخية التي ظهرت فيها اللغة الإنجليزية أكاديمياً، وتلك التي أنتجت الشكل الاستعماري للإمبريالية، ابتداءً من القرن التاسع عشر.

لقد اكتشفت الإدارة الاستعمارية البريطانية، بدعم من البعثات التبشيرية، حليفًا في قمع التمرد والسيطرة على الشعوب الأصلية، متمثلاً في الأدب الإنجليزي. (بيل أشكروفت ،

[١٧٠] الصوت والتمثيل: نهج ما بعد الاستعمار في التعليم العالي ،10 :2015

[١٧١] تم أخذ الأطفال الأستراليين من أحضان والديهم، وتعليمهم اللغة الإنجليزية، ومعاقبتهم إذا استخدموا اللغة المحلية.

١٩٨٩: ٢٦). أصبحت اللغة والأدب حلفاء أو أجنحة للحركة الاستعمارية، وهذا بلا شك عودة إلى الأدب الذي يطمح إلى الكمال البشري.

يؤكد المبدعون، في مرحلة ما بعد الاستعمار، أن الانفتاح على الكتابة باللغات العالمية لا يقلل من معنوياتهم، خاصة وأنهم لم يتخلوا عن قضاياهم الأصلية، بل يساعدون في وضعها في الخريطة العالمية للتفكير والإبداع. الكاتب المغربي الطاهر بن جللون – مثلاً - يرى أن الانفتاح على الثقافة الفرنسية لا يعني فقدان الهوية. وهو ما يعترف به الكاتب الإسباني (خوان غيتوس)، موضحاً أن الكتاب المغاربة، الذين يكتبون بالفرنسية، يعملون على مستوى المعنى بمعزل عن الآخرين، يكتبون بروح اللغة الفرنسية. بينما تدخل (أنيتا ديساي)، الكاتبة الهندية التي تكتب بالإنجليزية، في فكرة مثيرة للجدل، فإنها تنظر في التنوع اللغوي الواسع لبلدها، الذي يجعل الإنجليزية منطوقة محلياً لعشرات الملايين من الهنود، مما يجعلها لغة أخرى مضافة إلى اللغات الهندية، ضمن النسيج اللغوي للهند. (د. عطية جمعة، إشكالية اللغة في أدب ما بعد الاستعمار للقارة الأفريقية ، ٢٠١٧: ٤).

يعتقد الكتاب أنفسهم أن اللغات العالمية المنتشرة الآن عالمية، بمعنى أنه يمكن بسهولة قبولها من قبل سكان العالم كلغات تحتاج إلى تعلمها في النظام العلمي الحديث. يتم إنشاء العديد من العلوم والفنون والآداب من خلال اللغة الإنجليزية، ثم الفرنسية. هذا لا يعني ترك اللغة المحلية، أو استبعادها، بل يعني المزيد من التوسع والانتشار.

والرؤية المشتركة بين هؤلاء هي أن قضايا أوطانهم تعيش في أعماقهم، وأن المشكلة تكمن في أنهم ينتمون إلى بلدان مختلفة في لغاتها. يوجد في الهند مئات اللغات المكتوبة وغير المكتوبة، وأكثر من ٣٠٠ لغة. اللغة الإنجليزية هي اللغة الأولى تقريباً بين سكان الهند، الذين يقترب عددهم من المليار شخص، بسبب الاحتلال البريطاني للهند لعدة قرون، وظهور أجيال متعاقبة من الهنود يتقنون اللغة الإنجليزية بدرجة عالية. ويعتمد نظام التعليم على اللغة الإنجليزية كلغة العلم، بالإضافة إلى اللغة الهندية. لذلك، أصبحت لغة تتجمع حول فسيفساء اللغات الهندية المختلفة، جنباً إلى جنب اللغة الهندية التي انتشرت عبر السينما.

من ناحية أخرى، نرى أولئك الذين يختلفون مع هذا الاتجاه، ويفضلون مناقشة الكتابة في حقبة ما بعد الاستعمار، ينظرون إلى اللغة على أنها حاوية للأفكار والرسائل، يمكن اعتمادها لنقل مآسي الشعوب وحياتها اليومية. المسألة، من وجهة نظرهم، لا تقتصر على إلغاء مكانة اللغة الإنجليزية أو إنكارها، بما في ذلك من رفض لسيطرة القوة الإمبريالية ولجمالياتها ومقاييسها المفترضة، ولكن اللغة المحليّة داخل ما يسمّى بعملية (الاستحواذ)،

تعمل من أجل تحمّل عبء التجربة الثقافية للفرد، وبالتالي نكون أمام لحظة حيوية لإنهاء استعمار اللغة الأجنبية، والكتابة بها(بيل أشكروفت ، ١٩٨٩: ٦٧)

على سبيل المثال، الكتاب الذين يستخدمون اللغة الإنجليزية لا يؤيدون ولا يوافقون بالضرورة على السلطة البريطانية، ولا هم من مؤيدي الاحتلال البريطاني، لكن الأمر أكثر فاعلية بالنسبة لهم. بمعنى آخر: اللغة الإنجليزية هي أداة للانتشار في العالم الخارجي من جهة، وفي الداخل أيضًا.

مثال آخر هنا هو الدولة الواقعة في جنوب إفريقيا، ولديها ١١ لغة رسمية، جميعها مكتوبة، ولغات منطوقة، لكنها في الواقع لا يتحدث بها كثير من الناس، لأسباب عرقية، ووطنية. فهنا تُستخدم اللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة الأكثر شيوعًا، على الرغم من أن نظام الفصل العنصري هو الذي فرضها على السكان، مما ترك تجربة مريرة فيهم.

استخدام لغة المستعمر الأدبية، وإعادة تدوير مفرداتها، وتعديلها، وتكوين رموز جديدة، وتقديم كل ذلك للقارئ الغربي، أو المحلي، الذي يعرف اللغة الأجنبية؛ يؤدي في النهاية إلى الاعتراف بالاختلافات بين الدلالات، وغالبًا ما تحمل المفارقات الساخرة، وبعض الكلمات معاني مزدوجة، مما يثري النصوص [١٧٢].

فمثلاً، في حالة رائد نظرية ما بعد الاستعمار، هناك مفارقات عدة في حياته، تتعلق بخلق فكرته عن النظرية؛ فالتصدع الاسمي في وعي (إدوارد سعيد) لم يكن المفارقة الوحيدة له، إذ يذكر بعدها مباشرة مشكلة أخرى مقلقة في حياته، ألا وهي لغته، فهو لم يعرف أبداً أي لغة كانت لغته الأم، فاللغتان العربية والإنجليزية كانتا حاضرتين في طفولته الأولى: "ما أعرفه هو أن اللغتين كانتا موجودتين دوماً في حياتي، الواحدة منهما ترجع صدى الأخرى، ويستطيع كل منهما إدعاء الأولوية المطلقة، من دون أن تكون هي فعلاً الأولى. وأنا أعزو مصدر هذا الاضطراب الأولي إلى أمي، التي أذكر أنها كانت تحدثني بالإنجليزية والعربية معاً".

كانت الازدواجية اللغوية من أسباب زعزعة الوعي بالذات، وفي بدايات التشكل عبر سياقها التاريخي والاجتماعي والثقافي، إذ لم يفهم من أين تسللت اللغة الإنجليزية إلى أمه العربية، وكذا كونه هو الفلسطيني العربي الذي ولد في القدس، وترعرع بالقاهرة، ثم انتقل للعيش في لبنان، أي العالم الذي تنتمي إليه عائلته العربية من جهة، والعالم الكولونيالي الذي تربى ونشأ فيه، من جهة أخرى. "لقد اختبرت دوماً الشعور بالغربة

---

[١٧٢] Helen Gilbert&Joanne، Post-colonial Drama:Theory،Practice،Politics، 1996

المزدوجة، فلا أنا تمكنت كليا من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الإنجليزية، ولا أنا حققت كلياً في العربية ما قد توصلت إلى تحقيقه في الإنجليزية. هكذا طغى على كتاباتي كم من الانزياحات والتغايرات والضياع والنشوة"[١٧٣].

تم تطوير الإدخالات النقدية التي يمكن أن تستجيب لهذه النصوص الإبداعية. وقام مؤلفو كتاب (الإمبراطورية ترد بالكتابة) بتقسيمه إلى أربعة مداخل رئيسة:

- المدخل الوطني، أو الإقليمي: الذي يسلط الضوء على سمات محددة لثقافة وطنية أو إقليمية معينة. فهم يعتبرون أن النصوص - كتعبير عن الثقافة الوطنية، على مستوى اللغة والعادات والتقاليد والروابط المشتركة التي تجمع الناس معًا في مجتمع واحد - إطار وطني، يتحدث بلغة واحدة، مع الكثير من التجانس الثقافي.

- المدخل العرقي: الذي يرصد سمات معينة تشترك في مواقف وطنية متنوعة، كما في التراث المشترك للأدب الأفريقي، أو ما يسمى بالكتابة السوداء. وهنا نلاحظ أن هذا اللون من الكتابة كان له صدى ورد فعل للكتابة المعادية، التي تثير العرق الأبيض، وتدعم ثقافته، وتحتقر الأجناس الملونة. المصطلح هنا مخصص لمعارضة هذا الصعود اللاإنساني، حيث كان يجمع بين عدة أشكال أدبية من الشعر والسرد والدراما والبحث، وكذلك للتعبير عن العرق الأسود، والذي يتنوع أيضًا في جنسياته ومكوناته الثقافية.

- المنهج المقارن: الذي يسعى إلى دراسة خصائص لغوية وتاريخية وثقافية معينة، يشارك فيها واحد أو أكثر من أدبيات ما بعد الاستعمار. إنها نتيجة الأدب المقارن، الذي يناقش الظواهر اللغوية، أو الثقافية، أو الأدبية، ضمن نوع أدبي واحد، من خلال لغتين مختلفتين، أو بلغة واحدة ذات توجهات مختلفة. مثل مناقشة الصورة الاستعمارية المقدمة في الروايات الإنجليزية الاستعمارية، مع تلك الخاصة بما بعد الاستعمار. أو مناقشة الاستخدام الجمالي للغة بين الكتاب المنفيين، والكتاب الأصليين.

- نهج مقارن، ولكنه أكثر شمولاً، يركز على خصائص مثل التهجين والتوفيق، كخصائص لجميع أدبيات ما بعد الاستعمار.

يمكن دمج هذه الإدخالات معًا، أو دمجها فيما بينها، أو دمج واحد فقط كاف. يمكن تحليل النص الأدبي، أو عدة نصوص لمؤلف واحد، في الصياغات الأدبية: البنيوية، والسرد، والتفسير، والنقد اللغوي، وكذلك بالنقد الثقافي والاجتماعي والنفسي. القضية كيف أن المنهجية تكشف النص بكل المراجع والأكواد؟ خاصة النصوص التي تعبر عن حياة الشعوب

[١٧٣] إ دوارد سعيد ودراسات ما بعد الكولونيالية " الاستشراق نموذجاً، أمينة، قدوشي.

المهمشة، التي لا يعرفها القراء الغربيون والشرقيون، على حد سواء، تلك الشعوب التي مات تاريخها، ويتم ذكرها لعلامتين: خطر الاحتلال الأجنبي في الماضي، ونظرتهم على أنهم ليسوا بشرًا، أو يعيشون في حياة بدائية، وهذا لا يعني الكثير للرجل الأبيض المتحضر تمامًا، كما رأينا معاملة المحتل الأجنبي مع الأمريكيين الأصليين في أمريكا الشمالية، أو الشعوب الأصلية في أستراليا، وأمريكا الجنوبية. والخطر الثاني، هو: تخلف هذه الشعوب، وسقوطها -بعد الاستقلال- في براثن نظام حكم فاسد، كما نجد في الدول الإفريقية؛ حيث تنازع العسكريون على الحكم، وقاموا بالانقلابات، وأثقلوا البلاد بالديون، وحدثت مجاعات كبيرة، ومشقات وصعاب عديدة. (بيل أشكروفت ، ١٩٨٩: ٤١)❐

أكبر المحتالين فى العالم!

محمد واني

كل ما جرى في العراق من تغيير في النظام، والسياسة، وكتابة الدستور، والديمقراطية، والبرلمان، الذي طالما صدعنا به رؤوس العالم منذ ٢٠٠٣، طلع مجرد كذبة كبيرة، وكلام فارغ، خدعنا به أنفسنا والشعوب العربية والعالم أجمع، حتى إن أمريكا بجلالة قدرها انخدعت بنا، المسكينة صرفت آلاف الملايين من الدولارات، وضحت بالمئات من خيرة جنودها في غزوها للعراق، وإزالتها لنظام صدام حسين، ظناً منها أننا بعد هذا التغيير الجذري ستنصلح حالنا، ونركن إلى الهدوء والسكينة، و(نبطل) إثارة المشاكل والتحرش بالجيران وإشعال الحروب، ونتفرغ لبناء بلدنا من الدمار الذي لحق به منذ عقود.. ولكن خاب ظنها وظن كل من راهن على حصاننا الخاسر، وأكلوا على أيدينا أكبر مقلب في حياتهم، وبرهنا للعالم بالدليل القاطع، أننا ما زلنا ومنذ أيام سيء الذكر الحجاج بن يوسف الثقفي، من أكبر الكذابين والمنافقين على وجه البسيطة، ندّعي شيئاً، ونفعل ضده، نقول كلاماً، ونعمل خلافه، ندّعي الشراكة، ونحن ألد الخصام، ندّعي الإسلام، ونقطع الرؤوس! أحدنا يشرب دم الآخر، الشيعي فينا يكره السني، ولا يطيق أن ينظر إلى وجهه، ويحمله مساوئ التاريخ، وكذلك السني يشعر بنفس الشيء تجاه الشيعي، وهما يكرهان الكوردي معاً، ويتمنيان له الموت والهلاك..

عنوان دولتنا العتيدة هو؛ العراق الاتحادي، أي الفيدرالي، والمفروض أن يكون كذلك حسب الدستور الذي كتبناه، ولكن لا يوجد لحد الآن غير إقليم واحد، وهو في مرمى سهام يومي للميليشيات والتنظيمات الإرهابية! ولا نعرف لحد الآن هل العراق فدرالي برلماني، أم دكتاتوري فردي، أم طائفي ميليشياوي، أم ماذا؟ اختلط حابلنا بنابلنا، ولم نعد نعرف رأسنا من رجلينا.. وإذ نحن في هذه الحالة الهلامية، ظهر علينا من عمق العدم تنظيم (داعش)، ليزيد الطين بلة، ويبشر العراقيين بالموت الزؤام، وإحراق القرى الآمنة، وإخلائها من السكان و.. باسم الإسلام!❐